الجماعات الهامشية المنحرفة
فى تاريخ مصر الاجتماعى الحديث



الجماعات الهامشية المنحرفة في تاريخ مصر الاجتماعي الحديث

تأليف

الدكتورة ابتسام علام

مدرس علم الاجتماع والأنثروبولوجيا - بجامعة القاهرة

إهداء

إلى أستاذى الأستاذ الدكتور فاروق العادلى الـذى أحاطنى برعايته وتشجيعه بأبوة خالصة، فلسيادته منى كل شكر وحب وتقدير.

وإلى أسرتى الصغيرة .. زوجى وابنتى أمينة مع حبى ومودتى.

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر إلى العديد من أصحاب الفضل أخص منهم أستاذى الأستاذ الدكتور محمد الجوهرى مدير مركز البحوث والدراسات الاجتماعية جامعة القاهرة لإتاحته هذه الفرصة لى لنشر رسالتى للدكتوراه بالمركز. وقد سبق أن شرفت بإشرافه على رسالتى للماجستير، بالإضافة إلى حضوره كعضو فى لجنة مناقشتى للدكتوراه. وقد تعلمت فى خبرة التلمذة الأولى على يديه قيمة العمل شأنى فى ذلك شأن جميع تلاميذه من طلاب العلم. كما أدين لأستاذنا بفضل آخر: إذ لفت نظرى منذ بداية تلمذتى معه على وجوب الاهتمام بعالم قاع المدينة. فلسيادته منى كل حب وتقدير وعرفان بالفضل.

وأتوجه بالشكر أيضاً إلى الأستاذ الدكتور محمود الكردى وكيل كلية الآداب لشئون الطلاب والذى قدم لى كثير من المساعدات والتشجيع الدائم الذى كان حافزاً قوياً لى للاستمرار.

كما أشكر الأستاذ الدكتور نبيل صبحى رحمه الله لإشرافه المشارك مع أستاذى الدكتور فاروق العادلى على الرسالة التى أنشرها فى هذا الكتاب.

وأشكر بمزيد من الإعزاز الأستاذ الدكتور أحمد زايد الذى كان وما يزال مع نفر من الأساتذة يمثل النموذج والقدوة للأستاذ الذى أود أن أكونه. فلسيادته منى كل مودة وتقدير.

وفى النهاية أود أن أذكر أن الأستاذية ليست بالكلمات، إنها سلوك ومواقف رأيتها متجسدة بحق فى أساتذتى الذين شرفت بالتلمذة على أيديهم، وبانتمائى لهم فى قسم الاجتماع كلية الآداب جامعة القاهرة.

المؤلفة

الإهداء

إلى الأديب المبدع الفنان أستاذى

نجيب محفوظ

أعمالك الروائية إضافة حقيقية إلى تاريخ مصر، بكل ما تتضمنه من إيحاء ودلالة وصدق لجزئيات الواقع الحياتى المجتمعى. وفى ظـل اغتـراب العلـم التاريخى وتجاهله وتهميشه لبعض الشرائح والجماعات الشعبية، تأتى أعمالـك وعلى وجه الخصوص "اللص والكلاب"، "ملحمة الحرافيش"، "الشحاذ"، لتعطـى المؤرخ صوراً أكثر مصداقية عما حوته الكتابات ذات الصبغة الرسمية.

إلى صاحب ملحمة الحرافيش الذى أعطى للفتوة واللصوصية بعـض قـيم المروءة والشهامة، وبحيث أصبح لمن أطلق عليهم "الأسافل الأوغاش والأراذل الأوباش" تاريخاً لا يتجزأ عن تاريخ الوطن والذى هو الشوق حقاً إلى الحيـاة. كل ما فى الأمر، كما يقول مطران:

ما بين لصوص ولصوص فرق فى الأعلى والأدنى
لصغارهم الشنق المزرى وكبارهم الشرف الأسنى

د. سيد عشماوى

٦ أكتوبر ٢٠٠٢

فهرس المحتويات

الباب الثالث

الحركة التاريخية لبعض الجماعات الهامشية

الفصل السابع: النشالون فى مصر، سرقة الكحل من العين.

الفصل الثامن: اللصوص فى مصر. السلب والنهب وقطع الطريق.

الفصل التاسع: نحو دور سياسى عام لجماعات هامشية، التقاء العوام بأولاد القرافة والأطراف.

الملاحق.

مقدمة

هذه الدراسة مخاطرة علمية، تحاول فى حدود الإمكان وبقدر المستطاع اجتياز إحدى الطرق الصعبة الحساسة فى دراسة تاريخنا الحديث، لما هو مسكوت عنه أحياناً فى الدراسات العلمية ذات الصبغة التاريخية، تنظر بعين القلق على بعض ظواهر عصرنا وبصفة خاصة تزايد الجماعات الهامشية أشكالاً وألواناً، على ظاهرة البلطجة وانتشارها، ترتد إلى الماضى وعلى وجه التحديد التاريخى الفترة التى تمتد من أواخر العصر المملوكى حتى البدايات الأولى لبناء دولة مصر محمد على، تستنطق ما هو مكتوب بين السطور لتلك الجماعات الهامشية والمهمشة المرتبطة بأعمال اللصوصية والسرقة والسلب والنهب. تصنفهم باللجوء فى بعض الأحيان إلى المعاجم اللغوية المعاصرة والتى وجد فيها كاتب هذه السطور من الثراء والوفرة للدلالة اللغوية التى أثرت بحق البحث التاريخى. تعدد وتباين المصطلحات والمفاهيم والتصورات، وهى، وإن اختلفت من زمان لآخر ومن مكان إلى مكان، لكن يظل لها أصل واحد وفروع كثيرة. هذه الأفرع مرتبطة ببعضها أشد الارتباط بحيث يمكننا على حد قول فيلسوفنا العقلانى ابن رشد أن نفصل المقال ونقرر ما بين هذه الجماعات الهامشية من اتصال. لجأت هذه الدراسة أحياناً إلى بعض الخطط، والقواميس الجغرافية لتبيين التواجد والانتشار المكانى لبعض هؤلاء ليس فقط فى أطراف القاهرة وحاراتها البرانية وجباناتها، كما اكتشفت بعض الأماكن خارجها إلى هؤلاء مثل قرية الحرافشة بمديرية جرجا، وطوخ الحرامية، وكفر اللصوص (مديرية الشرقية)، ومنشأة خلبوص.

لم تقتصر هذه الدراسة على السرد التاريخى الممل أحياناً والمخل فى أغلب الأحيان ولكنها بقدر المستطاع حاولت وضع هذه الجماعات فى سياقها التاريخى، أو بمعنى أصح حاولت أن تربط نموهم وازديادهم فى بعض الفترات بالأوضاع المجتمعية، خاصة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وركزت على أن عنف هذه الجماعات كان مرتبطاً بشكل أو بآخر بعنف السلطة وتسلطها وتعسفها، وتؤكد أن ثمة درجات من اللصوصية والسرقة تتفاوت بين الكبار والصغار، بين الأسافل وبين الأعالى، تستشهد بما ذكره الأبشيهى فى

(المستطرف فى كل فن مستظرف): "مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف، فقال ما هذا؟ قيل السلطان يقطع سارقاً، فقال: لا إله إلا الله، سارق العلانية يقطع سارق السر!!" وتتذكر ما كتبه ابن إياس فى (بدائع الزهور فى وقـائع الـدهور) فـى أحداث رمضان سنة ٩٤٢هـ أن "شخصاً من العثمانية كان فى خـان الخليلـى فقبض على شخص من العوام وزعم أنه سرق من جيبه أربعة أنصـاف وأنـه قبض على يده فى جيبه. طلع به إلى ملك الأمراء. أمر بقطع يده وعلقها علـى رقبته وأشهره فى القاهرة فتأسف الناس عليه كيف قطعت يـده علـى أربعـة أنصاف وقد راح ظلماً". تركز على ظروف الفقر والإفقار، الغلاء والوباء الذى نمت فيه هذه الجماعات وتزايدت، تركز على بعض أصحاب الحرف المتدنيـة، أرباب الملاهى والمغانى، حيث عشعشت بعض هذه الجماعات.

تركز هذه الدراسة على مسار بعض هـذه الجماعـات، وهـم النشـالون واللصوص على وجه التحديد لتنتقل من رؤية أحادية الجانب تنظر إلى عمليات السرقة والسلب والنهب وقطع الطريق المرتبطة بهذه الجماعات إلى رؤية أخرى تستكمل الوجه الآخر من العملة: رؤية الدور العام السياسى الذى لعبته بعـض هذه الجماعات فى تاريخ مصر الحديث حيث تم الالتقـاء بـين العـوام وأولاد القرافة والأطراف والحارات البرانية هؤلاء الذين وصفوا بالأسافل الأوغـاش، والأراذل الأوباش.

هذا جهد علمى مبذول فى منطقة حساسة خطرة. يتمنى كاتب هذه السطور أن يكون قد وضع لبنة فى طريق استكمال هذا الموضوع والذى يحتـاج إلـى جهود كبيرة ومتضافرة من قبل المهتمين بدراسة تاريخنـا المصـرى الحـديث والمعاصر.

د. سيد عشماوى

القاهرة فى ٦ أكتوبر ٢٠٠٢م

الباب الأول

مقاربات منهجية ودلالات زمكانية

الفصل الأول: حول الأهمية النسبية للدراسة، جدل الماضى والحاضر.

الفصل الثانى: تعدد وتباين المصطلحات والمفاهيم، دلالات لغوية تاريخية.

الفصل الثالث: التواجد والانتشار المكانى، من القرافة إلى الأطراف.

الفصل الأول

حول الأهمية النسبية لدراسة الجماعات الهامشية

جدل الماضى والحاضر

إحدى وظائف المعرفة التاريخية الوعى بالحاضر ومعرفة جذوره فى الماضى. البحث وراء الوقائع والظواهر التاريخية، تمحيصها وتفسيرها. إدراك دلالاتها بمراعاة العلاقة الجدلية بين كينونتها وصيرورتها، وهى حقائق موضوعية نسبية على أية حال. والمؤرخ الذى أوتى من قوة الاستقراء والشفافية والمعرفة التاريخية وبما يمتلكه من قدرة على التخيل وأوتى معرفة بالمنهج التاريخى الاستردادى يستطيع إدراك مدى تأثير وفاعلية الظواهر الماضية فى الإحاطة بالحاضر.

وقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين اهتماماً متزايداً بدراسة الفئات والشرائح الاجتماعية المهمشة، داخل مصر وخارجها، بذله على وجه الخصوص علماء الاجتماع والسياسة والقانون"١". وفى مصر ظهرت دراسات عن : سكان العشوائيات، الغجر، التشرد والتسول، الباعة الجائلين، البلطجية، وغيرها من تلك الفئات الحضرية التى تميزت بخصائص لافتة للنظر ذات دلالات اجتماعية عن مجرى التطور العام، أو بمعنى أصح لها ظروفها الخاصة داخل النسق الاجتماعى - أو خارجه - واحتلت مكانة هامشية فى حياة المجتمع، إذ نبذت طبقياً من الجماعات الأخرى أعلى السلم الاجتماعى. هى فئات فى حالة صراع دائم مع الواقع، تمردوا عليه وحاولوا بطرق غير شرعية أن يحصلوا على ما قد تصوروه حقاً لهم. أصبحوا يمثلون برميل بارود قابل للانفجار فى أى لحظة خاصة، عندما تضطرب التشكيلة الاجتماعية أو تفقد تماسكها.

الفقر والإفقار وتردى الأحوال وهموم المعيشة، الغلاء مع الوباء كانت دائماً من العوامل المسئولة عن زيادة حجم تلك الفئات وتزايد فعالياتها.

ولأن أفرادها يعيشون على هامش المجتمع دائماً ولكونهم غير مندمجين فيه

فهم أضعف صلة من الفئات والطبقات الكادحة الأخرى خاصة أهـل الفلاحـة وأصحاب الحرف، بنظام القيم والأعراف الشرعية، ومن ثم تتميز بقلة استجابتها لما تبديه الطبقات المسيطرة من مزاعم إصلاح أحوال البلاد والعباد، وبعدها عن النمط السائد فى المجتمع جعلها تفلت من كل محاولة لرصـد تحركاتهـا علـى المسار الاجتماعى وبالتالى يصعب تقدير أعدادها إحصـائياً حيـث لا تتـوفر المعلومات، والكتابات التاريخية لا تتعرض لها إلا لماماً وفى فتـرات متقطعـة وبين ثنايا السطور خاصة إبان الأزمات الاقتصـادية السياسـية وتتنـاثر بـين صفحات الكتب أسطر حول أنماط هؤلاء وما يقومون بـه، أسـاليبهم، آدابهـم، تقاليدهم المهنية، تراثهم الفنى.

لاحظ كاتب هذه السطور من خلال ما قدمه علمـاء الاجتمـاع والسياسـة والقانون وغيرهم ممن اهتموا بإعطاء خلفية تاريخية لكتابـاتهم العلميـة حـول الفئات المهمشة إن الجهد المبذول كان ضئيلاً ولا يتناسب مع التراكم التـاريخى مع تحليلهم لوقائع ومعطيات الحاضر، ويبدو أن حجتهم القوية وعذرهم المقبول فى ذلك أن هذه هى مهمة المؤرخ "وأهل مكة أدرى بشعابها". وفى نفس الوقت لاحظ الكاتب أنه رغم وجود بعض الكتابات التاريخية عن "العوام" فـى تـاريخ مصر المملوكية - العثمانية، فإن تحليل دور الجماعات الهامشية كان نادراً فـى غالب الأحوال. وهذا ما دعا البعض إلى الدعوة إلى كتابة تاريخ هؤلاء بل وإلى الدعوة إلى إعادة تقويم الدور الذى قامت به هذه الشرائح فـى تـاريخ مصـر الحديث"[٢].

تتعدد وجهات النظر وتتباين تجاه هذه الجماعات الهامشية، ينظر إليهم فـى بعض الأحيان "كنتوء شاذ" و "كبؤرة للسلب والنهب" و "محترفى البطالة واللهو". وفى أحيان أخرى ينظر إليهم كمرآة عاكسة لمجموعة من الاختلالات المجتمعية السياسية - الاقتصادية والسياسات غير المتوازنة على المستوى الاجتماعى مثل البطالة وعدم وجود وسيلة مشروعة للتعايش بل وعدم وجود محل إقامة مستقر الأمر الذى يستدعى الإقامة فى الطرقات والزوايا والجوامع والقرافة وأطـراف المدينة. وهو ما أدى بهم أحياناً إلى السرقة والنهب ولأنهم لـم يكونـوا فئـات مرتبطة بالإنتاج فحركتهم كانت أقرب إلى ذيل الطبقات الأخرى خاصة "العوام".

ضمت هذه الجماعات شرائح غير متجانسة اجتماعياً، مفتتة، متنـافرة أحيانـاً. ويبدو أن ما كان يقوم به هؤلاء من نهب وسرقة هو بعض النشاط الاجتمـاعى الذى تمارسه بعض الشرائح الاجتماعية الأخرى بصورة مستترة.

ذكر الأبشيهى " قيل: مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف، فقال ما هذا؟ قيـل له: السلطان يقطع سارقاً، فقال: لا إله إلا الله، سارق العلانيـة يقطـع سـارق السر"[٣].

ولفترة طويلة ظل أهل مصر يرددون المأثور الشعبى "حاميها حراميها"[٤]، "يسيب اللى دبح ويمسك اللى سلخ"[٥] أى يترك من قتل ويمسك بمن هو أقل منه جرماً، وفى فترة متأخرة كتب خليل مطران[٦]:

ما بين لصوص ولصوص　　فرق فى الأعلى والأدنى

لصغارهم الشنق المزرى　　وكبارهم الشرف الأسنى

ولعل هذا الأمر هو الذى جعل بعض الدارسين يضع تحركات هذه الجماعـات المهمشة وبصفة خاصة اللصوص وقطاع الطرق وانتظامهم فى طوائف "المناسر مثلاً" فى مرتبة "المقاومة الاجتماعية"[٧]، وإن كانت غوغائية وليست فقـط مـن نوع الخروج الفردى الإجرامى على المجتمع كما يحدث الآن ويستدلون ببعض وقائع تاريخية دالة على ذلك. وهو الأمر الذى جعل بعضهم يركز على السمات التاريخية الثقافية لهؤلاء والمستمرة حتى الآن[٨]، فى السلوك والتـى رصـدها الكثير من المؤرخين المصريين وأيضاً الرحالة المسلمون والأجانب منها سرعة البديهة وسعة الحيلة وخفة الدم والكلام اللين والذكاء الخارق والحركة السـريعة وما يمكن أن نسميه حالياً بالفهلوة مع احتمالات واردة لارتكاب بعض الاحتيـال والنصب والشطارة، أو كما يقـول المثـل "زى ولاد بلبـيس يبيعـوا العـيش ويشحتوه". وهى سمات ليست قدراً أزلياً بل هى نتـاج الأوضـاع الاقتصـادية والاجتماعية التى عرفتها مصر منذ بداية تاريخها ونتاج القهر السلطوى وأنظمة الحكم القهرية والتمايز الطبقى الصارخ.

ما أريد التركيز عليه هو أن الدراسات العلمية المعاصرة حول الجماعـات الهامشية حاولت بقدر الإمكان الإشارة إلى جذور تاريخية لها لمعرفـة طبيعـة

الدور، وتدنى الوضع الاجتماعى لها ومعرفة التغير الذى يحيط بطبيعـة هـذا الدور ما بين فترة تاريخية وأخرى. واستندت هـذه الدراسـات علـى بعـض النظريات العلمية أخصها بالذكر: نظرية التبعية حيث تنظر إلى المكانة المتدنية لهذه الجماعات بالمقارنة للفقراء والأساليب غير المشـروعة للـرزق وتضـخم أعدادها كسمة من سمات التكوين الطبقى فى ظل تحول اقتصادى "البروليتاريـا الرثة" وهى جماعات رافضة لمعايير المجتمع تمثل تهديداً للسلطة الحاكمة ينظر إليها فى بعض الأحيان كرصيد شعبى لتحرك راديكالى يستخدم العنف كآلية. أو نظرية الهامشية بما تعنى الخروج على النسق العام للمجتمع الذى يسـعى إلـى التكامل. ذلك لأن الأوضاع الاقتصادية المتدهورة تؤدى إلى عزلـة حضـرية لجماعات معينة، هى ليست عزلة تامة بل نسبية ترتبط بحالة إحباط من البطالـة والإحساس بالدونية، هذا الإحباط الدائم يؤدى إلى انسحاب واتخاذ سلوك رفضى من المجتمع الذى تشعر فيه هذه الجماعات بالنبذ. أو ينظر إلى هذه الجماعـات فى ظل ما يسمى بالثقافة الفرعية وهى على كل حال مرتبطة بالثقافة الخاصـة الجانحة وثقافة الفقر وما يستدعى ذلك من وجود ثقافات أخرى محددة: للتسول، للنشل.. إلخ"[٩].

هوامش وإحالات الفصل الأول

(١) من المحاولات العلمية الجادة لتناول ظاهرة الجماعات الهامشية فى المجتمع المصرى فى مقاربة نظرية وتاريخية وميدانية على مستوى علم الاجتماع: صلاح الدين عبد المتعال، أثر العوامل الاجتماعية فى تشرد الأحداث مع دراسة تطبيقية على فئة جامعى أعقاب السجائر بمدينة القاهرة، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٦٤. محمود إبراهيم حسين: دراسة أنثروبولوجية تطبيقية للأنساق والعلاقات فى مجتمع المتسولين بالإسكندرية، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣. نبيل صبحى حنا(د): جماعات الغجر فى مصر والبلاد العربية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠. محمود محمد جاد(د): سكنى المقابر فى القاهرة، إطلالة تاريخية وبانوراما ميدانية، دار ماجد للطباعة، القاهرة ١٩٩٢. ابتسام علام(د): الجماعات الهامشية دراسة أنثروبولوجية لجماعات المتسولين بمدينة القاهرة، مطبعة العمرانية للأوفست، الجيزة ٢٠٠٢. وعلى مستوى العلوم السياسية: جلال معوض(د): الهامشيون الحضريون والتنمية فى مصر، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة ١٩٩٨، أمانى مسعود الحدينى (د): المهمشون والسياسة فى مصر، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة ١٩٩٩. وعلى مستوى العلوم القانونية: محمد نور فرحات(د): "الدور السياسى للجماعات الهامشية فى مصر.. بحث فى التاريخ الاجتماعى لجماعات الجعيدية والزعر"فى كتاب: المجتمع والشريعة والقانون، كتاب الهلال، العدد ٤٢٦، القاهرة ١٩٨٦. على فهمى "ملامح الثقافة السياسية للمهمشين فى مصر المحروسة" كمال المنوفى(د)، حسنين توفيق(د) (محرران): الثقافة السياسية فى مصر بين الاستمرارية والتغير، مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، المجلد الأول ١٩٩٤.

(٢) لاحظ آندريه ريمون نقص المعلومات التاريخية عن تنظيمات هذه الشرائح وقياداتهم اللهم إلا عبارات مبهمة حول ما يقومون به من سلب ونهب، انظر: آندريه ريمون: المصريون والفرنسيون فى القاهرة ١٧٩٨-١٨٠١، ترجمة بشير السباعى، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث، القاهرة٢٠٠١، ص٥٠-٦٥، وفى تعرضها للسياق التاريخى لتطور ظاهرة التسول وجدت

الباحثة الدكتورة ابتسام علام فى دراستها المشار إليها سابقاً (ص١٦-٢٨) ندرة البيانات التاريخية وغموضها حول طبيعة الأشخاص وطبيعـة الأنشـطة التـى مارسوها والتغيرات التى طرأت عليهم مثل الحرافيش وأشكال تنظيمهم الجماعى وعلاقتهم بالسلطة.

(٣) الأبشيهى: (شهاب الدين بن محمد): المستطرف فى كل فـن مسـتظرف، جزأين، دار القلم، بيروت ١٩٨١، الجزء الأول، ص٢١٧.

(٤) أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، الطبعة الرابعة، مركز الأهرام للترجمـة والنشر، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٧٤.

(٥) نفسه، ص٥٢١.

(٦) خالد محمد خالد: من هنا نبدأ، الطبعة الرابعة، دار النيل للطباعة، القـاهرة ١٩٥٠، ص١٢٣.

(٧) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعى-الاقتصادى فى ضـوء الـنمط الآسيوى للإنتاج، الطبعة الأولى، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٩، ص٤٧٣-٤٧٤، يستدل على ذلك بأن الزعر والصبيان والشطار انضموا إلـى جـيش طومانباى فى مقاتلة العثمانيين فى الريدانية وكذلك فى المعركة الأخيرة التى دارت مع جيش سليم الأول بالقرب من القاهرة.

وهنا أشير إلى أن دراسة الدكتور محمد رجب النجار "حكايـات الشـطار والعيارين فى التراث العربى"، عالم المعرفة(٤٥)، مطـابع الأنبـاء الكويتيـة ١٩٨١، تدور حول هذا المحور وتؤكده، بنفس القدر الذى يؤكده الذين يدرسون السيرة الشعبية "على الزيبق نموذجاً".

(٨) انظر دراسة على فهمى السابق الإشارة إليها (ص٥٨١) وكـذلك التحقيـق الصحفى معه فى ملحق "أيامنا الحلوة" العدد ٤٥، الأهرام ٢٢ مارس ٢٠٠٢، والذى أجراه خميس البكرى دراسة اجتماعية تؤكد: أفكار الحرافيش تسـاير مقولة "ساعة لقلبك وساعة لربك".

(٩) لعل فكرة النبذ مستوحاة أساساً من قصيدة بيرم عن (المنبوذين):

يا منبوذين الهند كفـوا دموعكـ ـم   دى مصر فيها المنبوذين ملايين
من منبوذين حافيين يلموا سبـارس   ومنبوذين ماسحين جزم دايرين
ومنبوذين شبان معـاهم شهايـ ـد   حرم عليهم يدخلوا الدواويـ ـن
ومنبوذين نسوان وضابـط مباحث   داير وراهم من كمين لكميـ ـن
ومنبوذين فى البيت عشاهم فلافـل   فى العيد، وأيام السنة جايعيـن
ومنبوذين ضايعين ما يعرف خبرهم   ونا اللى فيهم ينسمع لى أنيـن

راجع: بيرم التونسى: الأعمال الكاملة(٥) بيرم ناقداً للحياة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٧٧، ص٧٣.

الفصل الثانى

تعدد وتباين المصطلحات والمفاهيم للجماعات الهامشية

دلالات لغوية تاريخية

ثمة بلبلة لغوية وذبذبة عقلية يجدها الدارس فى العلوم الاجتماعية تجاه ما يسمى قضية تحديد "المصطلحات - التصورات - المفاهيم" والتى تصاغ فى قوالب لغوية وصيغ لفظية، هناك المشترك والمجازى وهناك المترادف والمتباين، وسوف نرى من خلال استعراض الجماعات الهامشية مدى اتساع الحقل الدلالى للمصطلحات بما يظهر أحياناً فى أذهان البعض إن هذه المصطلحات مترادفة تتكاثر فيها الأسماء وتتحد المعانى وتتفق فيها فيظن أنها مترادفة لاتفاق موضوعاتها، أو قد تكون مختلفة الموضوعات فيظهر التباين. ومن هنا فإن تدنى الرؤية الفلسفية للباحث تجعله يترنح بين ما يسميه فوضى المصطلحات وتضاربها وغموضها واختلاف الدلالات اللفظية من زمان إلى آخر.

فى ظل التطورات التاريخية فإن المصطلحات "المفاهيم" تكتسب معناها من خلال الممارسات المعاشة التى لا تكف عن التطور والتغير بحيث تتعدل معها النظرة إلى طبيعة المفهوم " خذ مثلاً التطور الدلالى لمفهوم العصابة، ففى وقت من الأوقات كانت تعنى أشرف جماعة من المسلمين تأسيساً على مقولة الرسول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض"، وبمرور الزمن تحولت العصابة "عصب" إلى مجموعة من الفتوات، وأخيراً إلى مجموعة من قطاع الطرق والسراق"، وبهذا تتطور دلالات المصطلحات فى تعبيرها عن معطيات الواقع.

والمصطلحات ضرب من الاختزال تشير إلى أن الحقائق التاريخية يمكن

أن تصاغ بطرق متعددة و لغات مختلفة بواسطة التصورات بحسب الغاية التـى تراد من صياغتها ووفقاً للمرحلة التى تطورت إليها المعرفة العلمية"[١]".

تتداخل مصطلحات بعض الجماعات الهامشية خاصة تلك الجماعات التـى تعتمد على النهب واللصوصية، تداخلاً شديداً فى معاجم اللغة والألفاظ الفصيحة والعامية، وحتى الكتابات التاريخية لم تفرق بينها تفريقاً واضحاً، رغم اخـتلاف المفاهيم وشيوع بعضها دون الآخر فى عصور تاريخية مختلفة. وهذه الجماعات والطوائف وجدت فى أماكن مختلفة تحت أسماء مختلفة ومع اختلاف الأسـماء "اختلفت أزياؤها ومبادئها الخلقية اختلافات متفاوتة بحسب الزمان والمكان وكان أصحاب هذه الطوائف يتحولون بحسب الظروف إلى لصوص أو قطاع طرق أو قبضايات أو يتحولون إلى عساكر متطوعة أو مرتزقة يشاركون فى الحـروب الداخلية أو على الحدود""[٢]".

وفى معظم الأدبيات التاريخية يأتى الحديث عنها من قبيـل الـذم والقـدح ووصفها بصفات متعددة أهمها: الغوغاء- النهابة- السفهاء- الحثالة- الهباشة- الرعاع- الحشرات- الجراد- الفلاكة- الصعاليك- الحرامية- اللصوص- قطاع الطريق- السراق- أراذل الطوائف- الأوباش- السفلة- الأوغـاد- الأشـرار- الشطار- العيـارون- النقـاب- العيـاق- الفتـوات- البطـالون- المناسـر- الخلابيص- الأوغاش- الجعيدية- البرامكة- الكدية- أولاد درزة- الطرارون- النشالون- الفلاتية- الكلابزية- الشلاق- النتاشون- العواطلية- الغجر"النـور- الحلبية"- الجياع- أولاد القرافة- الطوخية- المشاديد- البطحجية- العصبجية- الشحاتون- الحرافيش- العامة المقلين- غوغاء العامة.. إلخ.

ثمة ملاحظات أساسية بالنظر إلى هذه المصطلحات:

أولاً: هذه المصطلحات فى معظمها عكست الموقف الفكرى المحدد تجـاه هـذه الجماعات أطلقت عليهم لتوصيف أفعالهم ومواقفهم المتدنية المتمردة وغالباً مـا عكست تصورات الفئات العليا فى أعلى السلم الاجتمـاعى لتشـويه الحركيـة الاجتماعية- السياسية والنظر إليهم كجماعات هامشية منبوذة اجتماعياً. والمتتبع

للتاريخ المصرى حتى وقتنا الحاضر يلاحظ أن لغة الخطاب السياسى المضاد لتحرك العوام كان يصطبغ دائماً وأبداً بمثل هذه المصطلحات والأوصاف"[٣]".

ثانياً: فى معظم الكتابات التاريخية لمشاهير الأعلام مثل المقريزى، وابن إياس وأحمد شلبى بن عبدالغنى، والجبرتى تأتى بعض هذه المصطلحات فى تتابع وارتباط وثيق خاصة أثناء الحركية الاجتماعية- السياسية وعلى وجه التحديد أثناء ما تقوم به من أعمال للسلب والنهب بحيث يصعب حصر ما تقوم به كل جماعة انطلاقاً من فكرة تقسيم العمل ووضع تصور لطبيعة العلاقات فيما بينها بما يكشف لنا عن طبيعة عمليات النهب التى تعتمد فى بعض الأحيان على الدراية والشطارة، فالذين يقومون بهذه العمليات من أصحاب "الكار" بما يعنى الصناعة والحرفة، ومن هنا قولهم "الكار مهنة" ويقولون فلان "ابن كار"[٤]" كناية عن حذقه بالسرقة. معظم هذه العمليات كانت تتم بشكل جماعى والقليل منها كان يتم بصورة فردية وهذا العمل الجماعى أو الفردى يتميز بقدر من التنظيم والفكاكة "أى الشطارة" فالفكك أى الشاطر خفيف الحركة والشطارة هى المهارة فى العمل والبراعة فى فن الصراع وفى الأمثال "ما يقع إلا الشاطر". ومن أمثالهم "الهروب نص الشطارة"[٥]".

تؤكد معظم الكتابات المعاصرة لجماعات اللصوص والشطار ما يمتازون به من مهارة فائقة. يتحدث "نيبور"[٦]" عن أحد لصوص النيل الذى قبض عليه رجال الباشا وتوسل اللص أن يسمح له الباشا بأن يقوم أمامه بعمل يكشف له به سراً من أسرار فنه، وسمح له الباشا بذلك فطفق اللص يجمع ثياب الباشا وكل ما وقعت عليه عيناه فى الخيمة من أشياء وصرها صرة ولعب بها بعض الألعاب البهلوانية ثم ألقى بعدها بنفسه فى النيل وسبح إلى البر الآخر والصرة فوق رأسه وبلغ الأمان قبل أن يتمكن الأتراك من إطلاق النار عليه.

يتحدث الشيخ يوسف المغربى عن النشالين فى مصر فى القرن السابع عشر بقوله "ولا أسرع حركة من النشالين ولهم حكايات عجيبة فى النشل يطول شرحها"[٧]". وهذا ما أكده أحد الرحالة الأتراك "أوليا جلبى"[٨]" بقوله عنهم: أنهم

"مهرة إلى حد بعيد فهم يسرقون الكحل من العين ويبقى الكحل فى موضعه".

العبارات السابقة ترينا إلى أى مدى بلغ دهاء وحسن حيلة وفهلـوة بعـض شرائح هامشية استطاعت "سرقة الكحل من العين" كما اسـتطاعت أن "تسـرق النوم من العين". هذه المهارة مكتسبة من "كثرة التجارب"[٩]. من الخبرة الذاتيـة المعاشة من "التعلم"[١٠]. ومن سماع المأثورات الشعبية خاصة السير المرتبطـة بحيل اللصوص. من حكايات المكدين من بنى ساسان الذين توسلوا باللصوصية عن طريق "لطائف الخدع وغرائب الحيل" والتى ارتبطت بالنصـب والاحتيـال لدرجة أصبح "النصاب يأخذ من الحافى نعله"[١١]. واستمر "الزغلية" أى المزيفون للنقود يؤدون عملهم. ويذكر ابن إياس فى أحداث شـوال ٩٢٨هـ ـ أن "والـى القاهرة شنق فى يوم واحد أربعة وعشرين إنساناً وخوزق منهم جماعة وعلقهـم فى أماكن متفرقة وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم"[١٢]. كما اسـتمر المشعبذين والمشعوذين يواصلون عملهم بمهارة، خاصة وأن الشعوذة ارتبطـت "بخفة فى اليد"[١٣] بتصوير الباطل فى صورة الحق وارتبطت الشعوذة بالسرعة وقيل الخفة فى كل أمر. وقد ضمت الرميلة- كما يذكر على مبارك[١٤] – أكبـر مجتمع لتجمع الحرف والمشعبذين، وفى إطار الطائفة الأخيرة مـن المشـعبذين ازدادت أعداد ما عرفوا باسم "الأونطجية"[١٥] ومنهـا "فـلان أونطجـى"[١٦] أى صاحب حيل وخدع خاصة منذ أواخر القرن التاسع عشر.

وترتبط الشحاذة "الشحاتة" بالكدية، وفى اللغة شحذ ذهنه أو عزمه أى نشط فى الكدية، ويذكر الزبيدى فى "تاج العروس"[١٧] أن الكد "الإلحاح"فـى محاولـة الشىء "الطلب" أى طلب الرزق. ولقد استظرف الدمامينى حيث قال:

رعى الله مصر أننا فى ظلالها

نروح ونغدو سالمين من الكـد

وأن "الشحذان" هو "الجائع" وهو من شحذ الجـوع معدتـه أى ضـرمها وأن "التشحذ –الشحذ" معناها "الإلحاح فى السؤال"وقد سموا شحاذة وأبو شحاذة مـن كنى الفقر. كما يذكر تيمور مـدى ارتبـاط الشـحاذة بالكديـة "بعلـم الحيـل

الساسانية"[١٨] ومدى ارتباط الحرافيش بالشحاذين. وقد انتشر هـؤلاء انتشـاراً كبيراً فى مصر على أشكال وأنواع واشتهروا بالإلحاح فـى الطلـب وتحـايلوا بالفقر و لبسوا الملابس البالية وقد جمع بعضهم من الشحاذة أموالاً طائلة. وفـى أحداث ذو القعدة سنة ٩١٧هـ يذكر ابن إياس "وفيه أحضروا بين يدى السلطان شخصاً من الشحاتين الجعيدية، وجدوا معه مائة وسبعين ديناراً وهـم ضـرب الأشراف برسباى، فقال له السلطان: من أين لك هذا الذهب؟ فقال: ورثتهم مـن أمى، فأخذ السلطان منه ذلك الذهب وسلمه إلى محمد مهتار الطشتخاناه، ورسـم بأن يشترى للشحات من ذهبه جوخه وقميصاً وعمامة وأن يصرف له فى كـل يوم نصفين فضة يأكل بها حتى تفرغ فلوسه، فلم يرض الشحات بذلك وصـار يقول: عيدولى ذهبى ومالى حاجة بكسوتكم"[١٩].

والذى لا شك فيه أن بابات ابن دانيال فى "خيال الظل" أو ظل الخيال على الأصح قد جسدت لنا ملامح عشرات من الفئات المهمشة، وقـد انتشـرت فـى العصر المملوكى العثمانى ولعبت دوراً هاماً فى استثارة وعى العوام على وجه أخص مع انتشار عرائس القراجوز.

فى "عجيب وغريب" لابن دانيال إحدى هذه الشخصيات التى قـدمها مـن ضمن "سبعة وعشرين شخصية" شخصية "غريب" الذى تتقاذفه الأقطار ويـدور مع الفلك الدوار ويندب حظه قائلاً[٢٠]:

أين زمانى الذى تقضـى	وأين جاهى وأيـن مالـى
وأين خفـى وطيلسانـى	وأين قيلى وأين قالى
وأين عيشى وأين طيشى	وأين حسنى وحسن حالـى

ويعترف بأنه ينتسب إلى آل ساسان الذين ذهب عنهم الحول والطول وأصـبحوا يطلبون العيش بالكدية والحيلة.

وإذا كانت الكدية تعنى التسول، فقد ظل أهل "الكدية" كطائفة يتجول أفرادها فى البلاد يستجدون ويحتالون وكان لديهم مقدرة أدبية يحتالون بها على النـاس

كشأن ما نسميه فى مصر "الأدباتية"، وعند بعضهم دهاء وحيل لابتزاز الأموال. ولا يستبعد أحمد رشدى صالح أن يكون فريق منهم امتهن حفلات "الزار" منذ أمد فصارت رئيسة الزار تسمى "كودية"[15].

والأدباتية فئة من المكدين يرتجلون الأزجال، يمشى منهم اثنان يكون مع أحدهما طبل فى كشحه الأيسر، معلق بحمائل على كتفه الأيمن فينشدان معاً مطلع الزجل، ثم يرتجل أحدهما دوراً فى واقعة الحال، وبعده يرددان المطلع ويضرب صاحب الطبل عليه ويتمايلان يمنة ويسرة وأمام وخلف ويتقدمان ويتأخران عند الإنشاء، وكانت هذه الحركات تعينهما على الارتجال ويكون فيها فسحة للتفكير ويكثر وزن ما يأتون به على "شرم برم حالى غلبان" بل هو المطلع -كما يعتقد تيمور[22]- الغالب عليهم الابتداء به.

ولعل ما حدث لعبدالله نديم مع فريق من "الأدباتية" والذى بسطه مفصلاً فى مجلته "الأستاذ"[23] أثناء تواجده بمولد سيدى أحمد البدوى سنة ١٢٩٤هـ - مع جماعة من المشايخ، جلسوا على قهوة الصباغ يتفرجون على أديب وقف يناظر آخر، استلفت أحدهم إليه يخاطبه:

انعم بقرشك يا جندى	وإلا اكسنا آمال يا افندى
إلا أنا وحياتك عندى	بقالى شهرين طوال جيعان

فقال له عبد الله على سبيل المزح منه:

أما الفلوس أنا مديشى	وانْت تقول لى ما مشيشى
يطلع على حشيشى	أقوم أملص لك لودان

أقول، لعل هذا يبين لنا مدى ما يتمتع به الأدباتية من مهارة وخفة كطائفة لها شيخها "شيخ الأدباتية"، ويبين لنا كذلك ربط النديم بين الجعيدى والحرامى عندما قال لأحدهم:

الفلوس حظ المفلس	والجعيدى والحرامى

فى الموالد حيث يكثر الزحام والنشل، كان بعض هـؤلاء الأدباتيـة يسـتغفلون الناظر إليهم بألعابهم فيسرقون ما معه، فقد ذكر أحمد أمين[٢٤] أن أحـد الشـبان كان جالساً على مقهى فجاء بعض هؤلاء الأدباتية فلعبوا أمامـه ألاعيـبهم ثـم استغفلوه وسرقوا كيس نقوده وفيه مائتا جنيه فسقط الشاب مغشياً عليـه، فـرآه رجلاً فسأله عن قصته فحكاها له، فطمأنه وكان الرجل صديقاً "لشيخ الأدباتيـة" فأخذ الشاب وذهب به إلى حى السيدة زينب وقصد معه إلى شيخ الأدباتية الذى استطاع أن يعيد له ما سرق منه وأراد المسروق منه أن يعطى شـيئاً للـرئيس فمنعه صاحبه وأفهمه أنه فعل ذلك مروءة على حسب عادته.

وحتى مطلع القرن العشرين ارتبطت جماعات مـن المكـدين "الشـحاتين" بأنماط فنية تكاد تقترب من الدراما الشعبية، كان البعض منهم "لهم مواكب تسير فى الطرقات يستدرون عطف النساء بغناء عامر بالأسى والشجن -كان أكبرهم سناً يتقدم الموكب بشعره الأشعث ويحمل بين يديه حجراً يدق به على صـدره- الذى أسود من كثرة الدق عليه- فى إيقاع غنائى تحـيط بـه مجموعـة مـن الأطفال- فى ثياب مهلهلة- يرددون بعد كل فقرة غنائية وكأنهم كورس مدرب- يا كريم يارب"[٢٥].

الفكرة الأساسية التى أود أن تستلفت أنظارنا فى هذا المجال: ارتباط أعمال طوائف مهمشة بعضها يعتمد على اللصوصية والسرقة وبعضها الآخر لا يلجـأ إلى مثل هذه الأعمال التى توضع فى خانة الرذائل، بالمهارة وخفة اليد والخدع والحيل والفهلوة والبراعة والتفنن. وكانت "حكايات الشطار والعيـارين" أو أدب اللصوص أحد أشكال أو وسائل التعبير الفنى والذى رفض الواقع -على حد قول النجار[٢٦]- الاجتماعى السياسى، وقد ازدهرت حيل "اللصوص" منذ أوائل القرن العاشر الهجرى على وجه التحديد فشخصية أحمد الدنف "التى بدأت فى الظهور إبان القرن الرابع الهجرى" استكملت نموها وتفاصيلها فى العصر العثمانى، كما تؤكدها سيرة "على الزيبق بن حسن رأس الغول"[٢٧] أشـهر حكايـات الشـطار والعياق. فى هذه السيرة تعلم الزيبق فنون التنكر المتقن والحيل من تمثيل أدوار أعدائه وتقليد أصواتهم وحركاتهم حتى ليخدع أقرب المقربين إليهم، وقد تعلم هذا

الفن من المهرجين والممثلين والبهلوانات الذين يقدمون فنونهم فى ميدان الرميلة وقرة ميدان حيث يجتمع أرباب "الشطارة والزلاقة" "ودواهى الشغرابية والخداع". وقد تطور معنى البطولة فى هذه السيرة فلم يعد قاصراً على الفتوة والفروسية، بل أصبحت فى متناول العوام من المهمشين قاطنى حارات المدينة وأطرافها، بل إن القصاص رسم أصحاب السلطة فى السيرة مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق وصلوا إلى السلطة عن طريق التفوق فى السرقة والإمعان فى البطش والمهارة فى اللصوصية حتى ليجعل مقدم درك بغداد أحمد الدنف زعيم عصابة فى الليالى وقائد وجاق الزعر فى السيرة.

هذه السيرة والتى هى "نتاج العصر العثمانى" أوردت بداخلها "وجاق الانكشارية"، "المستحفظان"، "السنجق"، "الأغا"، "الكيخا"، "باش شاويش أغا" وغيرهم، جعلت للزعر "وجاق" جنحت إلى العامية فى السرد، وهى تعرض لضياع معانى الأمن والاستقرار فى حياة شعب مصر واختفاء ضرورات العدالة ويكفى أن بطلها أحد الشطار وإن مغامراتها تدور بين مجموعة من المقدمين الذين يشتهرون بالحيل والخدع وتقوم أعمالهم على تسلق القصور وسرقة النفائس وتحدى السلطات ولا تجد السلطة القائمة حلاً لمشكلاتها الدائمة معهم إلا أن تعترف بوجودهم فتوليهم المناصب الرئيسية وترتب لهم المرتبات السنوية والمخصصات من بيت المال وتفرد لهم القاعات والأماكن يقيمون بها وتسمح لهم أن يسيروا فى مواكب مع أتباعهم.

فى هذه السيرة تفوق على الزيبق على لصوص مصر وشطارهم حتى تولى درك مصر وليس أكثر من هذا سخرية من الجهاز الحاكم الذى يبدو فريسة بين أيدى اللصوص هم فى مجموعهم فى نظر الشعب مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق يتسابقون على السيطرة والنفوذ وسرقة بعضهم البعض.

يذكر الجبرتى فى أحداث سنة مائتين وألف “١٧٨٦م” أن الأمير حسن بك ركب بجنوده وذهب إلى الحسينية وهجم على دار متولى رياسة دراويش الشيخ البيومى ونهبه، وفى صباح اليوم التالى ثارت جماعة من أهل الحسينية بسبب ما

حدث وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول والتف عليهم "جماعة كثيـرة من أوباش العامة والجعيدية وبأيديهم نبابيت ومساوق" تضـامن معهـم الشـيخ الدردير وقال لهم: "فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبـولاق ومصـر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم" وعندما تدخل الأمير إبراهيم بك وأحضر حسين بك وكلمه فى ذلـك فقال فى الجواب:

"كلنا نهابون، أنت تنهب ومراد بك ينهب وأنا أنهب كذلك"، ويعلق الجبرتى بقوله "وانفض المجلس وبردت القضية"[٢٨].

هذه صورة لتحرك ما أسماهم الجبرتى "أوباش العامـة والجعيديـة" وهـم الشطار والزعر الذين تميزوا بالحذق والبراعة وخفة الحركة، هم طائفة الفتوات الذين جمعوا أخلاقيات الشطار والعياق فى البراعة فى الحيل بقدر تفوقهم فـى المصارعة والمصاولة بل بخفة ظلهم وبراعتهم فى الحديث. وهى صورة نجدها بين ثنايا الكتابات التاريخية. فى أحداث مايو ١٧٣٠م يذكر أحد المـؤرخين أن "الحرامية سرقوا جميع ما فى بيت "عثمان أغا الوالى" ولم يبقوا فيه شيئاً وكتبوا ورقة وعلقوها على باب المقعد مكتوب فيها الذى نعلم به عثمان أغا أننا دخلنـا بيتك وأخذنا ما كان فيه وما دخلناه لأجل أخذ شىء، وما كان مرادنا إلا ذبحـك، فما وجدناك ولا وجدنا أحد فلو وجدناك أو وجدنا أحداً كنا ذبحناه، فأخذنا الـذى جمعته من مال الصناجق الذين قتلتهم"[٢٩].

بعد أكثر من قرنين على هذا الحادث، استلهم بعض الأدباء والفنانين مـن مهارة وبراعة بعض هذه الفئات المهمشة والتى ظلـت ممتـدة فـى حركتهـا الاجتماعية حتى منتصف القرن العشرين، مادة خصبة فى أعمـالهم المتميـزة. على سبيل المثال لا الحصر:

الأديب الفنان توفيق الحكيم فى معرض براعة الحاوى وخفة اليد[٣٠]:

"التفت القاضى إلى الحاوى وقال له:

اقنعنا أنك بارع وبراعتك فى خفة اليد -ولكن هل كل خفة يـد تعتبـر صـنعة شريفة؟- النشال أيضاً بارع فى خفة اليد.

فقال الحاوى محتجاً بقوة:

وأنا نشال لا سمح الله؟!.. النشال خفة يده فى جيوب الناس!.. ولكن أنا يا سعادة البك بخفة يدى عمرى ما سرقت، خفة يدى تدهش الناس وتسرهم..وكل واحـد يدفع لى ما فيه القسمة عن طيب خاطر!.. أنا فنان يا بك.. أنا فنان!..".

الشاعر المسرحى نجيب سرور استلهم من تراث النشل المصرى الكثير ضـمنه أحد أعماله المسرحية والتى تبدأ بأغنية الذكيرة حيث يقف المغنى يلقى"[٣١]":

- المطـوة فـن وخفـة ايـد

مشرط جيوب مفعوله أكيـد

والطـب عـايـز خـفيـة

- أبو مطوة جاع لم الجعانيـن

عملوه عليهم شيخ منصـ ـر

بقى عنده جيش من النشالين

وجيشه يوم عن يوم يكبـ ـر

ثالثاً: من الصعوبة بمكان فى الكتابات التاريخية أن نجد حدوداً واضحة جازمـة تمايز بين هذه الجماعات الهامشية التى تتصل بصفة خاصة باللصوصية بشـكل صريح ومفصل، ورغم ما يقال أحياناً إن هـذه العصـور "خاصـة المملـوكى العثمانى" قد شهدت بطء وصعوبة فيما يمكن أن نسميه بلغة عصـرنا بـالحراك الاجتماعى بين الطبقات والفئات الاجتماعية، إلا أن الرؤية التاريخية تثبت عكس ذلك بكثير ويكفى للتأكيد على ذلك فى إطار الطبقات والشرائح الدنيا ما حـدث من هجرة قطاعات واسعة من الفلاحين إلى المـدن وانضـمامهم إلـى جـيش الحرافيش، ومع الانهيار التدريجى لطوائف الحرف تحولت قطاعات كبيرة منهم

إلى طائفة الشحاتين والتى كان لها تنظيمها الحرفى خاصة فى العصر العثمـانى وبعض هؤلاء انضموا إلى طوائف العيارين والشـطار والزعـار والجعيديـة وغيرهم حيث اعتمدوا على النشاط الجمعى على شكل تنظيمات جماعية تشـبه تنظيم الجند أحياناً "لاحظ دلالة ذكر وجاق الزعر فى سيرة على الزيبق" وتنظيم الطوائف الحرفية فى أحيان أخرى. ويكفى التأكيد على أن جماعات اللصـوص اتخذوا كبيراً منهم شيخاً عليهم "أصبح هناك مثلاً شيخ الجعيدية وشيخ النشـالين وشيخ منسر..إلخ" والذى يعرف أهل الحرفة جميعاً، وكثيراً ما كان هذا الشـيخ يطالب بالبحث عن المسروقات فيعيد لمن سرق أشياءه لقاء مكافأة سـخية فـى بعض الأحيان وكان يقوم أحياناً بتقديم بعض اللصوص إلى المحاكمة على نحو ما يذكره بعض الرحالة فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلـع القـرن التاسـع عشر"[٣٢]. وعلى ما تؤكده كتابات بعض المؤرخين منذ أواخر العصر المملوكى. كان بعض الحكام يطلب من شيوخ هذه الطوائف التدخل فى مساعدته فى بعض الأمور، ففى شوال ٨٤١هـ طلب السلطان برسباى "سلطان الحرافيش وشـيخ الطوائف وألزمهما بأن يمنعوا الجعيدية من الشحاتة فى الطرقات وأن لا يشحت سوى العميان ذوو العاهات فقط ورسم للجعيدية أن يخرجوا للعمل فـى الحفيـر فامتنعوا عن ذلك وهربوا نحو بلاد الصعيد"[٣٣].

رغم ما يبدو من أن العصر العثمانى قد حظـى بتحديـد العلاقـة لنظـام الطوائف فإن طوائف اللصوص رغم تمايزها وتباينها لم تتحدد العلاقـات فيمـا بينها تحديداً واضحاً للعيان. وهذا ما تؤكده مثلاً كتابات الجبرتى عنهم فيذكر فى أحداث عام ١١٨٢هـ "وفيه تم إبطال النشالين والحرامية والعيارين" وفى أحداث ١٢٣٠هـ "١٨١٥م" يذكر إن بعض العسكر اتفقوا على غـدر الباشـا، بـدأوا يكسرون ويحطمون الحوانيت المغلوقة وينهبون ما فيها "وشاركهم الكثيـر مـن الشطار والزعر والعامة المقلين والجياع ومن لا ديـن لـه"[٣٤] وانضـم إلـيهم الأوباش البلدية والحرافيش والجعيدية.

الجبرتى والذى يوصف بالدقة فى الكتابة التاريخية كان مـن الممكـن أن يجمع هذه الفئات كلها فى سلة واحدة ويصفهم بالحرامية أو اللصوص مثلاً ولكنه

مايز بين تجمعاتهم: النشالون، الحرامية، العيارون، الشطار، الزعر، الحرافيش، الجعيدية وربط بينهم وبين "العوام" الذين وصفهم بقوله "العامة المقلين والجياع ومن لا دين له" ومن تضافر معهم من أولاد البلد "الفتوات" الذين وصفهم بقوله "الأوباش البلادية" فى حركتهم المتمردة على السلطة الموجودة والانخراط فى الخروج على النظم المرعية من جانب ومثلوا ما يمكن أن يسمى بلغة عصرنا ميلشيات محلية.

على الرغم من أن هذه الطوائف والجماعات الهامشية لم تحظ بتحديد العلاقات فى المؤلفات التاريخية، لكن ما يرد عن الطوائف الأخرى ينعكس عليها إن لم يتطابق معها فى بعض الأحيان فى ظل القواعد المتعارف عليها المتمثلة فى نظام الطوائف وبصفة خاصة فى بعض قواعد السلوك الأخلاقى وهى قواعد غير ثابتة متطورة متغيرة.

ولعل الباحث فى التاريخ الاجتماعى يجد فى تطور الدلالات اللغوية وتباينها مساحة تساعده من جهة أخرى على معرفة المسكوت عنه فى المصادر التاريخية، تساعده على معرفة أبعاد ثقافة التمرد لهذه الجماعات الهامشية له من جهة أخرى الرؤية "الآلية" التى يتم بها تهميش هذه الجماعات من خلال التوصيفات التى ألصقت بهم.

بالتأمل التاريخى، ومع رؤية دلالة اللغة تتكشف شيئاً فشيئاً ملامح هذه الجماعات ومدى الارتباط أو الابتعاد بينها فالسارق يقولون عنه"لص"[٣٥] يقال فى القاموس: اللص السارق، ويرتبط الحرامى باللص بقاطع الطريق "حرامية- لصوص- قطاع طرق"[٣٦] ويرى تيمور أن الجعيدى معناه البرمكى "ويظهر أن الحرافيش هم الجعيدية"[٣٧] وإن الفلاتى يطلق على اللص "لعله منسوب إلى الفلاة على غير قياس"[٣٨] وإن الفلاتية من فلت: الفلت عندهم الفسوق والفجور "لاحظ أوامر محمد على التى نظرت إلى الفلاتية بمثل هذه النظرة واعتبرتهم لصوص"[٣٩].

وفى معظم معاجم اللغة يرتبط الشطار بالشطارة أى الانفصال والابتعاد.

والشاطر هو الذى عصا أباه أو ولى أمره وعاش فى الخلاعة، وشـطر فـلان شطارة، اتصف بالدهاء والخبث والذكاء، واللص الشاطر أى الذى يستخدم الحيلة والقوة فى موضع القوة، ويرى بودكهارت أن الشـاطر هـو القـادر، النشـط، العارف والخبير فى الأعمال ومن هنا تردد المثل "مـا تـتم الحيلـة إلا علـى الشطار"[٤٠].

ويرتبط العيار بالشخص كثير التطواف والحركة "ويسـمى الأسـد عيـاراً لمجيئه وذهابه فى طلب صيده"[٤١]، بينما ينسبه البعض إلى الحمار، فالعير هـو الحمار أهلياً كان أو وحشياً وقد غلب على الوحش، قال الشاعر[٤٢]:

أفى السلم أعيار جفاء وغلاظة   وفى الحرب أشباه النساء العوارك

ويرى الزبيدى أن العرب تمدح بالعيار وتذم به، فهو الذكى الكثير الطواف والحركة وهو النشيط فى المعاصى، النشيط فى طاعة الله. فهو يرتبط من ناحية بالذكاء والخبرة "اللص العيار ما يسرق من حارته شىء" ويرتبط أحياناً بالـدجل والاحتيال كما اشتهر عنه فى أرياف مصر "بهلول الريف عيار"[٤٣].

أما المنسر "المنصر" فقد جاء الاشتقاق من "النسر" الـذى ينسـر الشـىء ويقتنصه وهو من سباع الطير، سيد الطيور "ويعمر طويلاً وقيل إنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل إنه يقطع من المشرق إلى المغرب فى يوم وجثته عظيمة حتى قيل: إنه يحمل أولاد الفيلة وله قوة حاسة الشم حتى قيل: إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ وعنده شره"[٤٤].

وقد ارتبط هذا الوصف بخروج "جماعة بالخيل ما بين الثلاثة إلى العشـرة ويصلون إلى ما بين المائة إلى المائتين فى بعض الأحيان" وفى بعض الأوقـات كان "المنسر قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير"[٤٥] ثم أصبحوا فى وقـت من الأوقات "يأتى بالليل ناس من الفلاحين والعرب يقال لهم المنسـر وبأيـديهم تارة شعل مضيئة بالنار فيصعدون إلى الحارات وينهبـون البيـوت ويقتلـون ويجرحون. وكان أهل المحلات على الدوام حاضـرين ومسـتعدين بالبـارود والسلاح ويسهرون بالدور خوفاً من طرق المنسر"[٤٦].

وارتبط الزعار بطائر لا يرى إلا قلقاً يـدعى "الزعـرة" ولا يسـتقر بـه مكـان، أو بالشخص الذى قل وتفرق شعره فانكشف الجلد وبان ويطلـق لفـظ "زعران" على اللص الخاطف المارد، سىء الخلق، وتقترب الكلمة "ذعار" مـن كلمة "الذعر" بمعنى الخوف والفزع والتخويف "يقال سـنة ذعريـة أى شـديدة ورجل ذاعر ذو عيوب"[٤٧].

أما قطاع الطريق فهم "العياق"، والرجل العائق هو المـانع الـذى يعـوق الطريق ويقطعه على الناس.

ويرتبط "النتاش" و"الطرار" و"النشال" بعلاقة دلالية فى اللغة، فـالنتش هـو "الاكتساب" نتش لأهله ينتشى نتشاً اكتسب لهم واحتال، أما الطر فهـو "الشـق والقطع" والطرار هو الذى يشق كم الرجل ويسل ما فيه و"الطر" ما طلـع مـن الوبر وشعر الحمار بعد النسول "النثول"[٤٨].

أما "النشال" فمن نشل الشىء: أسرع نزعه، واللحم ينشله وانتشله أخرجـه من القدر بيده بلا مغرفة فهو نشيل ومنتشل، والمنشال حديدة ينشل بها اللحم من القدر كالمنشل[٤٩]، ويضيف ابن منظور أن "نشله جذبه جذبات كما يفعـل مـن ينشل اللحم من القدر"[٥٠]، ويضيف الشيخ يوسف المغربـى "ويقولـون نشـال للمختلس وهو أى النشال فى اللغة غير هذا قال نشال كشداد من يأخـذ حـرف الجردقة فيغمسه فى القدر فيأكله دون أصحابه"[٥١].

وقد فصل الزبيدى الحديث عن النشل فى "فصل النون من باب الـلام"[٥٢] وأوضح أن الرجل العسال النسال أى سريع العدو وإن نشل الشىء ينشله نشـلاً "أسرع نزعه" ونشله نشلات أى جذبه جذبات وذكر إن الأصل فى النشـال مـا ذكره سابقاً المغربى "من يأخذ حرف الجردقة فيغمسه فـى القـدر فيأكلـه دون أصحابه" ثم أطلق على المختلس من اللصوص.

ثمة علاقة لغوية بين "النشال" و"النشناش"- "النشنش"- "النشنشى"[٥٣] بمعنى الخفيف فى عمله أو حركاته.

هذه هى أهم الدلالات اللغوية ببعض – ولا أقول كل – فئات مهمشـة اتسـمت بأعمال اللصوصية فى بعض سلوكها وتقاربت أفعالها من أفعال بعض الحرامية، الجعيدية، السراق، الشراط، الهباشة، البرامكية، العصب "العصبجية"، البطحجية، الباطجية، الصعاليك، وبعض الحرافيش وغيرهم ممن ذكرنا بعضهم سابقاً.

ويبقى التساؤل: ما أهم الدلالات التى تكشف عنها هذه المصطلحات السابقة فيما يختص بهذه الفئات؟

الدلالة الأساسية أنها تعبر لنا عن ثقافة التمرد بما تعنيـه مـن الانفصـال والابتعاد عن الأهل "كما فى حالة الشطار" والتطواف الكثير والذهاب والمجـىء والحركة "كما فى حالة العيارين" والانفلات والهيمان على الوجه لا يثنيهم شىء "الفلاتية نموذجاً" والقلق وعدم الاستقرار فى المكان والذين يترددون بلا عمـل ويخلون النفس وهواها "الزعرة، الزعار مثالاً" وبما تعنيه هذه الثقافة من السرعة فى الهروب والخطف، فالمنسر سرعة فى الاقتناص مع قوة حاسة الشم، والفرار يمتاز بالعدو السريع، والنشال السرعة فى النزع والعدو أو كما يقـول يوسـف المغربى "ولا أسرع فى الحركة من النشالين". ومن هنا فقد لصـقت ببعضـهم أوصاف بعض الحيوانات والطيور "منسر من النسر، عيار بمعنى أسد أو حمار أحياناً، الطر ما طلع من شعر الحمار، الزعرة طائر قلق... إلخ". وهذه الثقافـة تعتمد كذلك على ما وصف به هؤلاء من مساوئ ومقابح ومناقص ومخازى. بما امتازوا به من دهاء وخبث ومكر وحيلة وذكاء، فالشاطر يعيش فـى الخلاعـة والعيار النشيط فى المعاصى وهو الدجال، والمحتال والعائق "قـاطع الطريـق" يعوق الناس عن عمل الخير، والرجل العوق هو الذى لا خير عنده، والزعرور سيئ الخلاق "الزعار= شراسة الخلق" والدعر الفسق والخبث، الخيانـة، النفـاق، الفجور كالدعارة، والنتاش السفل"[٥٤]" ونتاش الناس رذالهم وشرارهم، ومن هنـا قولهم "بيت النتاش عمره ما يعلاش""[٥٥]".

ارتبط النتش دائماً بالهبش وظهور ما عرفوا بالهباشة، فالهباش هو الـذى يجمع ويكسب "يقال هو يهبش لعياله هبشاً أى يحترف لهم ويكتسب لهم ويحتال،

قال رؤبه[٥٦]:

لولا هباشات من التهبيش

لصبية كأفراح العشوش

حفلت الكتابات التاريخية "الجبرتى نموذجاً" بصفات وملامح علقـت بهـذه الجماعات وكان من ضمنها:

الشراذم[٥٧]: من الشرذمة أى القطعة من الشىء أو القليـل مـن النـاس وقيـل الجماعة من الناس القليلة.

الأوغاش[٥٨]: أخلاط الناس، والواغش: القمل والصئبان.

الأوباش[٥٩]: من وبش وهم الأخلاط من الناس مثل الأوشاب وقيل هـو جمـع مقلوب من البوش ومنه الحديث قد "وبشت" قريش أوباشاً لها.

الغوغاء[٦٠]: من الناس الكثير المختلطون، صغار الجراد شبه به سواد الناس.

الأسافل[٦١]: من السفل والسفالة ضد العلو، والسافل ضد العالى والسفالة تعنـى النذالة، والسفلة هم السقاط من الناس يقال هو من السفلة.

الدعار- الدعر[٦٢]: "الفسق والخبث" الخيانة، النفاق، الفجور "كالدعارة" فى خلقه "دعارة" أو "زعارة" أى سوء، "الداعر" المؤذى الفاجر فى حديث عدى "فـأين دعار طىء" أراد بهم قطاع الطريق، ورجل داعر ذو عيوب.

أولاد درزة[٦٣]: من درزى، بنات الدروز القمل والصئبان وأولاد درزة: السـفلة، السقاط والغوغاء من الناس ويقال للفقراء بنو غبراء وأولاد درزة أيضـا، ابـن درزة: الدعى أو ابن أمه تساعى.

عشرات الصفات الأخرى والتى لا يمكـن حصـرها فـى هـذا المجـال والمتواجدة فى ثنايا الكتابات المعاصرة والتى وصفت بها هذه الجماعات، وقـد ذكرنا بعضها فى أسطر سابقة، ظلت عالقة بهم حتى وقت قريب، وهذا التعـدد فى الصفات يجعل من المتعذر على الباحث أن يضعها فى سلة واحدة، أو فـى

إطار مصطلح واحد خاصة وإن كتابات المؤرخين المعاصرين من أمثال الجبرتى لم تصف لنا هذه الجماعات بشكل مفصل باعتبار أن نشاطها من قبيل الجزئيات، فالجبرتى يكتب قائلاً: " وانقضت هذه السنة، وما وقع بها من الحوادث الكلية التى ذكر بعضها وأما الجزئية فلا يمكن الإحاطة ببعضها، فضلاً عن كلها لكثرها واختلاف جهاتها واشتغال البال عن تتبع حقائقها ونسيان الغائب بالأشنع والقبيح بالأقبح"[٦٤] .

هوامش وإحالات الفصل الثانى

(١) حول مدى مصداقية المفهومات بما يقبل الزيادة والنقصان راجـع بصـفة خاصة صلاح قنصوه(د): فلسفة العلم، الطبعة الثانية، دار التنوير للطباعـة، بيروت ١٩٨٣، ص١٧٢-١٧٦.

(٢) محمد فؤاد كوبر يلى: قيام الدولة العثمانية، ترجمة الدكتور أحمـد السـعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص١٤٠-١٤١.

(٣) يتذكر كاتب هذه السطور على سبيل المثال لا الحصر إبان أحداث الثـورة العرابية ما كتبه ميخائيل شاروبيم بك (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببـولاق مصـر المحميـة ١٩٠٠، الجزء الرابع، ص٢٩٧): "واجتمع عند ذلك الكثير من الحـرافيش والسـوقة وزعر باب الحديد وزعر باب البحر والأطراف وترامحوا أمام الجنـد وهـم يضجون ويصيحون ببذىء القول وفحش الكلام" ودائماً ما وصفت مظـاهرات الطلاب بانضمام الغوغاء والرعاع والدهماء فى صفوفها على نحو ما تحـدث صدقى باشا عن أحداث ٢١ فبراير١٩٤٦ وحتى حريـق القـاهرة فـى ٢٦ يناير١٩٥٢ حمل عبد الرحمن الرافعى مسئولية الحريق لتلك العناصر التـى وصفها "بالرديئة" من الشعب وشاهد بعض المثقفين كانوا يحرضون "الغوغاء" على الحريق (راجع: عبد الرحمن الرافعى: مقدمات ثورة ٢٣ يوليـو١٩٥٢، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصـرية، القـاهرة ١٩٦٤، ص١٢٢-١٢٣) ويتذكر أخيرا أن الانفجار الشعبى فى مصـر يـومى ١٨،١٩ ينـاير ١٩٧٧ وصف على لسان الرئيس السادات بأنه "انتفاضة حرامية" راجع: حسين عبـد الرازق: مصر فى ١٨،١٩ يناير، الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت ١٩٧٩، ص٢٤، وكذلك محمد حسنين هيكل: خريف الغضب، الطبعة السابعة، شـركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ٢١٩-٢٢٧.

(٤) أحمد تيمور: معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، إعداد وتحقيق الدكتور حسين نصار، الطبعة الأولى، الجزء الخامس، مطبعة دار الكتب المصـرية

بالقاهرة ٢٠٠١، ص ١٨٧، وفى الجزء الرابع، (الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ٢٠٠١، ص١٩٥) ذكر أحمد تيمـور أن: شـرط (الشرطى) اللص الذى يقطع ثياب المارة ويسرق مـنهم ويرادفـه الطـرار ويقال للشرطى الماهر-أى الطرار: فلان ابن كار.

(٥) المرجع السابق، الجزء الرابع، ص٢٠٤-٢٠٦، والجزء الخامس، ص٦٩.

(٦) كارستن نيبور: رحلة إلى مصر١٧٦١-١٧٦٢، ترجمة الدكتور مصـطفى ماهر، المطبعة العالمية، القاهرة ١٩٧٧، ص ١٣٠-١٣١.

(٧) دفع الإصر عن كلام أهل مصر، حققه وقدم له الدكتور عبد السلام عـواد، أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتى، قسم العلم التـأريخى، جامعـة لينجـراد الدولية، دار النشر العلم، إدارة التحرير الرئيسية للآداب الشرقية، موسـكو ١٩٦٨، ص٢٠١.

(٨) سياحتنامه سى: مخطوط غير منشور ترجمه إلى العربية الـدكتور حسـين مجيب المصرى (الفصل الثلاثون: موكب جند مصر : النشالون، ص٤٨٠).

(٩) يتحدث ابن إياس (بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجـزء الأول، القسـم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص٨٤) عند "ذكـر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم وما أشبه ذلك": قال بعض الحكمـاء: أهل مصر يتحدثون بالأشياء قبل وقوعها ويخبرون بالأمور المستقبلة قبـل وقوعها وسبب ذلك أن منطقة الجوزاء تسامت رؤوسـهم فلـذلك يتحـدثون بالأشياء قبل أن تكون بمدة.

ويتحدث اوليا جلبى (سياحتنامه سى، ص٥٤٧) عن سر إلهى فـى مصـر "كل ما يقع على وجه الأرض يصبح حديث أهل مصر قبل وقوعـه بـأربعين يوماً": اتفق ذات يوم أن ظهر درويش من أهل الله وجعل يطوف صائحاً: "وقـع الباشا – وقع الباشا" وبعد أسبوع أسقطوا أحمد باشا الدفتردار.

ومما جاء فى الأمثال (قالوا لأولاد مصر تعرفوا الغيب بإيه قـالوا بكثـرة

التجارب) راجع: نعوم شقير: أمثال العوام فى مصر والسودان والشام، مطبعة المعارف بمصر ١٣١٢هـ، ص ٩٩.

(١٠) من ضمن الأمثال الدالة على التعلم "علمتك الشحاتة سبقتنى على الأبواب"، "علمته السرقة حط إيده فى الخرقة"، "أعلمك السرقة تحط إيدك فى جيبى" يضرب لمن يساجل أستاذه ويبزه فى فنه، راجع: الشيخ محمد عياد الطنطاوى: أحسن النخب فى معرفة لسان العرب، مطبعة ولهام فوغل، لبسيا، ١٨٤٨، ص ١٢٥ وكذلك أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، ص ٣٢٥،٣٢٦. وكذلك فائقة راغب: حدائق الأمثال العامية، الجزء الأول، مطبعة أمين عبد الرحمن، القاهرة ١٩٣٩، ص٢٧٦.

(١١) حيرم الغمراوى: أدب الشعب، مطابع جريدة المصرى، القاهرة ١٩٥٢، ص١٨.

(١٢) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص٤٧٦.

وحول الزغلية انظر: أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨، ص١٣٦. وحول نموذج للنصب والاحتيال فى استخدام النقود زمن محمد على انظر: إدوارد وليم لين: المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر نور، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٥٠، ص٦٨-٦٩.

(١٣) أصبحت خفة اليد ترتبط بعمليات السرقة والاختلاس والنشل وهى من الكنايات العامية "إيده خفيفة" التى تدل على المهارة مثل "سرق الكحل من العين" أو "خد من الحافى نعله" راجع: أحمد تيمور باشا: الكنايات العامية، الطبعة الثالثة، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع، بيروت١٩٧٠، ص١٠، ص٣٢، ص١٥٠.

(١٤) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠، ص٢٠٠.

(١٥) يرى أحمد تيمور (معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثـانى، ص٨٥) أن الأونطجية: أصل الأونطجى هو من يستأجره أصحاب ملاعـب القمار ليوهم اللاعبين أنه مقامر ويعمل على مصلحة الملعب "عمـل عليـه أونطة: أى لعب عليه وخدعه".

(١٦) يذكر أحمد أمين (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصـرية، الطبعـة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القـاهرة ١٩٥٣، ص٤٣٠) أن "أونطة" كلمة إيطالية بمعنى حيلة "أفنتا". يقولون "ده شغل أونطة" و"بلاش أونطة" و"سينما أونطة هاتوا فلوسنا".

(١٧) محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء السابع، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧١، ص٩٧-١٠١، ص٤٢١-٤٢٣.

(١٨) أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير، الجزء الرابع، ص١٧٩-١٨٢.

(١٩) ابن إياس: بدائع الزهور، الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتـاب، القاهرة ١٩٨٤، ص٢٥٠-٢٥١.

ومما قيل فى بيان ثروة الشحاتين المستترة "الشحاتة كيميا" راجع: محمـود عمر الباجورى: كتاب أمثال المتكلمين من عوام المصريين، المطبعة الشـرقية (مصر خان أبى طاقية) سنة ١٣١١هـ، ص٣٥.

(٢٠) عبد الحميد يونس(د): خيال الظل، الدار المصرية للتـأليف والترجمـة، مكتبة مصر ١٩٦٥، ص ٦٩-٧٠.

(٢١) فنون الأدب الشعبى، الجزء الثانى، دار الهنا للطباعة والنشـر، القـاهرة ١٩٥٦، ص ١٣٢-١٣٥.

(٢٢) أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثـانى، ص ٢١-٢٢.

وحول هذه الطائفة من الأدباتية الذين يستجدون بـأدبهم العـامى وطلاقـة لسانهم فى الشعر وحضور بديهيتهم، عرفوا بالإلحاح فى الطلـب، فـإذا رددت عليهم أى رد أخذوا كلمتك على البديهة وصـاغوا منهـا شـعراً يـدل علـى استمرارهم فى طلبهم واستغواء ممدوحهم وقد جمعـوا إلـى طلاقـة لسـانهم وحضور بديهيتهم منظرهم المضحك فى ملبسهم وحركاتهم، فزر خارج العمامة وطبلة تحت الأبط وحركات يدور معها زر العمامة كأنه نحل وتحريك لعضلات وجوههم كأنهم قردة، انظر:

- أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، مطبعـة لجنـة التـأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٨، ص٢١١-٢١٢.

- محمد فهمى عبد اللطيف: ألوان من الفن الشعبى، مطابع دار القلم بالقـاهرة ١٩٦٤، ص ٧٤-٨٣.

الذى أبان أن الأدباتية يلجأون إلى فن يعمدون فيه إلى قلب الأشياء وصرف اللفظ عن معناه الأصلى إلى معنى مغاير يؤدى إلى إهدار القيـاس كمـا يقـول علماء النكتة وتحدث به المفارقة التى تثير الضحك وأنهم يؤدون فـنهم جماعـة يبدأ شيخ بالمطلع فيردون عليه ثم يمضى فى إيراد ما عنده من فن منظوم وفى آخر كل مقطع يردون عليه بالمطلع.

(٢٣) الأستاذ: الجزء الحادى والأربعون من السنة الأولى، ٢١ ذى القعدة سـنة ١٣١٠هـ – ٦ يونيو سنة ١٨٩٣م "محمدة عدت مذمة" ص٩٨٥-٩٩٥.

استمرت هذه المناظرة بين عبدالله النديم وجماعة الأدباتية ثـلاث سـاعات متصلة وكانت الشروط أن من تنحنح أو بلع ريقه أو سكت بعد فراغ صاحبه عد مغلوباً.

(٢٤) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ١٣٨.

هذه الفقرة تدلنا على حرص المكدين (الأدباتية) على بعـض قـيم الفتـوة والمروءة وهذا ما سنوضحه بعد ذلك.

(٢٥) حسن درويش: من أجل أبى سيد درويـش، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، القاهرة ١٩٩٥، ص٢٢٤.

(٢٦) محمد رجب النجار(د): حكايات الشطار والعيارين، ص ١١.

(٢٧) حول على الزيبق انظر: علـى شـادى حسـن شـادى: علـى الزيبـق المصـرى، دراسة وتحليل، رسالة ماجستير، قسم اللغـة العربيـة، كليـة الآداب، ١٩٦٨، جامعة القاهرة، ص٥٦، ص١٣٢-١٣٥، وكذلك فـاروق خورشيد: أضواء على السير الشعبية، مطبعـة مصـر ١٩٦٤، ص ١٢٨-١٥٤، وكذلك عبد الحميد يونس(د): دفاع عن الفولكلور، الهيئـة المصـرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، ص٢١٢-٢١٣.

(٢٨) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الـرحمن، مطبعـة دار الكتـب المصـرية بالقاهرة ١٩٩٨، ص١٤٩-١٥٠.

(٢٩) أحمد شلبى بن عبدالغنى: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة مـن الوزراء والباشوات الملقب بالتاريخ العينى، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبـد الرحمن، مطبعة الجبلاوى، القاهرة ١٩٧٨، ص٥٧١.

(٣٠) توفيق الحكيم: عدالة وفن (من ذكريات الفـن والقضـاء) مكتبـة الآداب ومطبعتها بالجماميز، المطبعة النموذجية، القاهرة ١٩٨٠، ص١٨-١٩.

(٣١) نجيب سرور: ملك الشحاتين- أوبريت، دار المأمون للطباعـة والنشـر، القاهرة ١٩٨١، ص٨.

(٣٢) انظر بصفة خاصة: كارستن نيبور : رحلة إلى مصر، ص٢٥٢، وإدوارد لين: المصريون المحدثون، ص٧٢.

(٣٣) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص١٨٤.

(٣٤) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الرابع، ص ٣٥١.

(٣٥) محمد بن أبى السرور البكرى: القول المقتضب فيمـا وافـق لغـة أهـل مصـر من لغات العرب، تحقيق السيد إبراهيم سالم، المؤسسـة المصـرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة مخيمر، القـاهرة ١٩٦٢، ص٧٨.

(٣٦) أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثالـث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص٨٦-٨٧.

(٣٧) نفسه، ص ٣٨.

(٣٨) نفسه، الجزء الخامس، ص ٦٩. (انظر كذلك فى هـذا الجـزء، ص ٤٦ ذكره: فرار أى لص) ومن التصورات التى شاعت فى العصـر العثمـانى وذكرها الشيخ يوسف المغربى فى كتابه (دفع الإصر عن كلام أهل مصـر، ص١١٧) ما سمعه أن فرعون أصل اسمه عون وكان سارقاً فأخـذ شـيئاً وهرب فقالوا فر عون ثم خفف بفرعون.

(٣٩) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشـا، الجـزء الثانى، دار الوثائق القومية (أمر منه إلى حبيب أفندى فى ٢٦ محـرم سـنة ١٢٥٢هـ)، ص ١٠٩: يأمره فيه بإبعاث عساكر للهجـوم علـى الـثلاث نواحى ببلاد مديرية القليوبية، لوجود "لصوص" بكثـرة وضـبط "الفلاتيـة" تجهيز خمسمائة نفر من عساكر المغاربة الجدد مع مايتين سـوارى أيضـا للقبض على هؤلاء اللصوص والثلاث مشايخ الذين امتنعوا عـن الحضـور لدى طلبهم مع نظار الأقسام لتقرير ما يلزم وألقاهم فى السجن.

(٤٠) جون لويس بوركهارت: العادات والتقاليد من الأمثال الشعبية فـى عهـد محمد على، ترجمة الدكتور إبراهيم شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩، ص١٧٢.

(٤١) محمد بن أبى بكر الرازى: مختار الصحاح، الطبعة الأولـى، المطبعـة الأميرية بمصر ١٩٠٥، ص ٤٨٩.

(٤٢) محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس مـن جـواهر القـاموس، الجـزء الثالـث عشر مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٤، ص١٧٢، ص١٧٧.

(٤٣) جون لويس بوركهارت: المرجع السابق، ص٤١، ص٥٩.

(٤٤) الأبشيهى: المرجع السابق، الجزء الثانى، ص٣٦٤.

(٤٥) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، الجزء الرابع عشـر، مطبعـة الكويت ١٩٧٤، ص٢٠٧-٢١٢، وانظر كذلك أحمد تيمور باشـا: رسـالة لغوية عن الرتب والألقاب المصرية، مطابع دار الكتاب العربـي، الطبعـة الأولى ١٩٥٠، ص٧٢-٧٣، حيث يذكر أن المنسر كما جاء فى (المخصص ٦٦٠، آخر ص١٩٩) ما بين الثلاثين إلى الأربعين سمى بذلك لأنه منسـر الطائر يختلس اختلاساً ثم يرجع ولا يزاحف. وأنشد:

تقول لك الويلات هل أنت تارك ضبوءاً برجل تارة وبمنسر

(٤٦) الشيخ خليل ابن أحمد الرجبى: تاريخ الوزير محمد على باشـا، تحقيـق دانيال كريسيليوس، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربيـة، القـاهرة ١٩٩٧، ص٧٣-٧٤.

ومن المأثورات الدالة على قوة المنسر ويقظتهم لدى العامة قـولهم عـنهم "راسه راس منسر" انظر: أحمد أمين: قاموس العادات، ص ٤٣٠. لأن المناسر دائماً متيقظون شديدو المراقبة لما يجرى حولهم.

(٤٧) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، الجزء الحادى عشـر، مطبعـة حكومة الكويت ١٩٧٢، ص ٣٧٠-٣٧٢.

(٤٨) نفس المرجع، الجزء الثانى عشـر، مطبعـة حكومـة الكويـت ١٩٧٣، ص٤٢١-٤٢٢-٣.

(٤٩) مجد الدين محمد الفيروز آبادى: القاموس المحيط، المجلـد الرابـع، دار الفكر، بيروت ١٩٨٣، ص٥٧.

(٥٠) لسان العرب، المجلد السادس، دار المعارف بمصر ١٩٨١، ص ٤٤٣٢.

(٥١) دفع الإصر عن كلام أهل مصر، ص٩٢ب.

(٥٢) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، المجلد الثامن، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان تصويراً عن طبعة المطبعة الخيرية المنشأة بجماليـة مصر المحمية سنة ١٣٠٦هـ، ص١٣٦.

(٥٣) لويس معلوف اليسوعى: المنجد، المطبعة الكاثوليكيـة، بيـروت ١٩٠٨، ص٦١٠.

انتهى مجمع اللغة العربية بالقاهرة من تحديد (نشل) الشىء نشلاً: أسـرع نزعه (النشال) الكثير النشل، الخفيف اليد من اللصوص، السارق علـى غـرة، راجع (المعجم الوجيز، الطبعة الأولى، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة ١٩٨٠، ص٦١٧).

(٥٤) الفيروز آبادى: القاموس المحيط، الجزء الثانى، الهيئة المصـرية العامـة للكتاب، القاهرة١٩٧٨، ص٢٨٧ "فصل الميم والنون باب الشين (النتش)".

(٥٥) عزة عزت(د): الشخصية المصرية فى الأمثال الشعبية، كتـاب الهـلال، العدد ٥٦١، مطابع دار الهلال، القاهرة ١٩٩٧، ص ٢٣٨.

(٥٦) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، الجزء السابع عشـر، مطبعـة حكومة الكويت ١٩٧٧، ص ٤٥٦-٤٥٧.

(٥٧) أحمد تيمور باشا، رسـالة لغويـة فـى الرتـب والألقـاب المصـري، ص٨٤-٨٥.

(٥٨) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، ص٤٥٣.

(٥٩) محمد بن أبى بكر الرازى: مختار الصحاح، ص ٧٣٢.

البوش: بالفتح الجماعة من الناس المختلطين (الأوشاب) جمع مقلوب منه و(البوشى) الفقير الكثير العيال (نفس المرجع السابق، ص٨٣).

ويذكر الزبيدى (تاج العروس، الجزء ١٧، ص٨٥) أن الأوباش هم الجماعة المختلطة من الناس أو الكثرة من الناس يقال: جاء من الناس الهوش والبوش أى الكثرة وهم الغوغاء.

(٦٠) وهم حشد من الناس يتميز بعدم الاستقرار والنشاط الجمعى وبدون توجيه منظم يصاحبها أحياناً عنف وعدم تعقل، هناك غوغاء معتدية تقوم بالسلب والنهب وغوغاء فزعة (زعار) فى حالة هياج دائم عند وقوع أو وجود كارثة وغوغاء ذات حاجة تتجمع طلباً للحاجة، ولا تظهر قيادة واضحة لها بالرغم من ظهور نوع من القيادة التلقائية أحياناً لكن الاتصال العاطفى المتبادل بين الأعضاء هو السمة الغالبة، راجع: معجم العلوم الاجتماعية، تصدير ومراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٤٣٩-٤٤٠. (مادة: غوغاء).

(٦١) محمد بن أبى بكر الرازى: مختار الصحاح، ص ٣٢٤.

(٦٢) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، الجزء الحادى عشر، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٢، ص٢٩٥، ص٣٧٠-٣٧٢.

(٦٣) راجع: محمد بن أبى السرور البكرى: القول المقتضب، ص ٥٥، وكذلك محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس، الجزء الخامس عشر، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧٥، ص١٤٥، ويذكر جرجى زيدان (مصر العثمانية، تحقيق الدكتور محمد حرب، كتاب الهلال ٥١٧، مطابع دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤، ص١٦١) أن أحد ولاة مصر فى منتصف القرن السابع عشر عندما تولى الحكم وكان يدعى حسين باشا جاء إلى مصر فى عصابة من الدروز التقطهم من كل واد وكانوا من قاطعى السبيل، فساموا المصريين أنواع العذاب نهباً وقتلاً، فاضطربت الأحوال وأقفلت الحوانيت، ووقفت حركة الأعمال وهذا أصل استهجان المصريين لكلمة درزى على ما يظن.. وأتذكر

فى طفولتى عندما كانت أمى تسب وتهين أحد الأبناء وتصفه بالبخل تقول له (يا درزى يا دون).. ويذكر أحمد أمين (قاموس العادات والتقاليد والتعـابير المصرية، ص٤-٥) أن (ابن درزى) تطلق على اللئيم الميال إلى الإضـرار بالناس وهى نسبة إلى الدروز، وعامة المصريين يعتقدون فيهم سوء العقيدة ولذلك يتخذونهم علماً للسباب.

(٦٤) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثالث، ص ٣٧٥.

الفصل الثالث

التواجد والانتشار المكانى.. من القرافة إلى الأطراف

عندما يتحدث الجبرتى عن الحوادث الجزئية الكثيرة، المختلفة الجهات التى لا يمكن الإحاطة بها، فهى الأحداث المسكوت عنها فـى الكتابـات والأدبيـات التاريخية، هى زخم الحياة الاجتماعية-الإنسانية فى مصر العثمانية والتى مـن الممكن أن نعيد اكتشافها فى وثائق المحاكم الشرعية آنذاك، إحدى أشـكال هـذا الزخم ما عجت به مدينة القاهرة وحاراتها وأزقتها من ازدحام وضجيج، وحتى المقابر "القرافة" وأطراف المدينة تكدست بالزحام، كتب الشيخ حسـن البـدرى الحجازى الأزهرى منتقداً أهل عصره وأبناء مصره"[١]":

حارات أولاد العرب	سبعاً حوت من الكرب
بولاً وغائطاً كـ ـذا	تراب غبار سوء أدب
وضجـة وأهلـهـا	شبه عفاريت التـرب

ورغم اهتمام سلطات الإدارة والحكم بتوسيع ونظافة الطرقات والشـوارع والأزقة فى بعض الأحيان وهدم ما أنشئ فى الشوارع والأسواق بغير طريـق شرعى من أبنية ورباع وحوانيت وسقائف ومصاطب وغيرها مراعـاة لحـق الطريق، فإن بعض الناس لم يلتزموا بذلك، الأمر الذى لفت انتباه بعض الفقهاء، فالشيخ أحمد الدردير أحد كبار المالكية اشتكى من أن "الطـرق ضـيقة تضـر بالناس""[٢]".

وفى العصر العثمانى مع تواجد القصور والعمائر والمسـاجد والوكـالات والمدارس وغيرها تكاثر بناء الزوايا والتكايا للدراويش والخانـات والوكـالات وحدثت أشكال كثيرة من الحراك الاجتماعى، فعلى سبيل المثـال اختفـى مـن الجهات القريبة من القلعة وجامع السلطان حسـن سـكانها الأغنيـاء "بعـد أن أفزعتهم حركات المشاغبين وتحولت المنازل إلى أحواش سكنها الرعـاع أمـا

أغنياء الحى فقد هجروه إلى حى بركة الفيل أو بركة الأزبكية اللتـين أصـبحتا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة"[٣].

وتزايد أصحاب الحرف الصغيرة والمشعوذين كالحواة والقرداتية بميـدان الرميلة التى تحولت مبانيه الفاخرة إلى أكواخ وحيشان وإخصـاص، وتزايـدت الربط والتكايا والخوانق والجوامع والزوايا، وبدأت مناطق السكن الفقيرة علـى أطراف القاهرة تتضخم وأصبحت هذه المناطق محلاً لأفقر شـرائح المجتمـع والقادمين الجدد من الأرياف، وبدأت تتكاثر الأحواش داخل نطـاق المدينـة أو خارجها "أحواش المقابر نموذجاً"، والوثائق تتحدث - كما أبانت نيللى حنـا[٤] - فى الكثير من الأحوال عن "حوش الفلاحين" أو "حوش سكن الفلاحـين" وكـان يوجد نوع من التجانس بين سكان تلك الأحواش يعود إلى وحدة مسقطهم "حوش الشراقوة" و"حوش سكن الصعايدة" أو انتمائهم لمهنة واحدة، فقد كان يوجد شمال القاهرة بالقرب من جامع الحاكم "حوش للغـوازى" بـل حتـى فـى "القرافـة" وبالإضافة إلى الأماكن الدينية كالزوايا والجوامع تزايد بناء القباب وجعلوا عليها الحيطان فتكون كالدور وبنيت بها البيوت، بدأ القراء والفقراء يفدون إليها، حيث يقرأ القرآن ليلاً ونهاراً ويوزع الطعام "الرحمة" على الفقراء والشحاتين. يتحدث عنهم الرحالة التركى أوليا جلبى "ولكن المتسولين الذين لا عمل لهم فكثير فـى القاهرة ففى القرافات المذكورة ليلة الجمعة والاثنين لا يسلم أحـد مـن هـؤلاء المتسولين الجبابرة"[٥].

كان بعض العوام والفقهاء والفقراء والحرافيش وجماعات متلصصة يبيتون فى القرافات وبصفة خاصة الواقعة أسفل المقطم. "المجاورين لبـاب الـوزير، وللإمام الشافعى، وللسيدة نفيسة.. الخ"، وفى زمن الحملة الفرنسية تحولت هـذه القرافات إلى مكان يتحصن فيه بعض الثائرين الذين انطلقـوا مـن الحـارات الجوانية والحسينية وبولاق وغيرها ولكن جنود هذه الحملة الذين قتلـوا "شـيخ الجعيدية" هم الذين هدموا القرافة حتى لا تكون مأوى لهؤلاء وأطلقـوا قنـابلهم على الحسينية والتى كانت أحد معاقل الثوار الذين كان معظمهـم مـن العـوام والحرافيش وزعر الحارات الجوانية والبرانية وهم الشرائح المسحوقة اجتماعياً وليس لديهم ما يخافون عليه من مسكن أو أهل أو مال، هؤلاء الذين اعتبـرهم

الجبرتى من الطوائف الخارجة على القانون والعرف.

ومن المتعارف عليه تاريخياً أن الفتوة "العصب-العصبجية" ظلت مرتبطة ببعض أحياء القاهرة حتى منتصف القرن العشرين "الحسينية- بولاق- مصـر القديمة"[٦]، فالحسينية كحى نشأ خارج أسوار القاهرة تجاه باب الفتوح قريباً من الخلاء، وهو إحدى الأحياء الشعبية التى ضمت بعض الطوائف الحرفية إليهـا، ومن ثم كانت مناطق شديدة الحساسية للتقلبات الاقتصادية-السياسية منذ العصر المملوكى العثمانى، وأفرادها كونوا "عسكر الأحيـاء" أو "عصـب الأحيـاء" معظمهم من الزعار والبطالين وصغار الحرفيين، أطلق على بقاياهم "الفتوات"، "الجدعان" اشتهروا بالمهارة فى الضرب وانقطعوا لحماية من استجار بهم وفى الغالب يكونون أهل مروءة، تحدث عنهم الجبرتى فى عجائبه عند حديثـه عـن كفر الطماعين وكفر الزعار، وقال إن سكانها يميلون إلى التعصب والتحـزب. ويذكر الجبرتى أن بعض أمراء المماليك كانوا يسـتعينون بهـؤلاء لحمـايتهم ومساندتهم وقد أطلق على هؤلاء الفتوات "المشاديد". وعندهم -كما يقول أحمـد أمين[٧]- إن السجن شرف ومروءة ويتفاخرون بها "السجن للجدعان".

ويذكر على مبارك فى خططه عند حديثه عن سكان الحارات القريبة مـن الخلاء[٨]:

"كفر الطماعين وكفر الزغارى حارتان، سكانهما يميلون إلى التعصب والتحزب، وكانت لهم غارات فيما سبق فكانوا يتحالفون على المغالبة والمضاربة بالعصى والمساوق ويستعملون الشد والمد بينهم، بمعنى أن كل طائفة منهم لهـم كبيـر يدعونه بالعم وهو يدعوهم بالمشاديد، فكان الواحد منهم إذا أراد التعصب علـى سكان جهة أخرى -كالعطوف مثلاً- لمضاغنة بينهما أرسل إليهم يخبرهم بأنـه يريد التعصب عليهم، فيعطونه ميعاداً، ويخرجون خارج البلـد جهـة الخـلاء ويتضاربون بالمساوق ونحوها وربما فزع بعضهم بسلاح إذا طال القتال واشتد بينهم وفى بعض الأحيان كان يموت منهم القليل وإذا وصل الخبر إلى الحكومة فكانوا ينكرون ذلك ويعدونه من الفتوة".

وهذه الجماعات وإن ظلت بقاياها حتى وقت قريب رغم افتقادها فى بعض الأحيان إلى دورها الإيجابى المتمرد الثائر وانحدارها إلى غايات فرديـة فإنهـا

احتفظت ببعض من تقاليد وأعراف وقـيم وآداب المـروءة والشـرف، سـيجد الدارس مثلاً فى ثورة ١٩١٩ فى مصر "إضراب الشحاتين" وامتناع "النشالين" عن النشل ومشاركة بعض "فتوات الحسينية" القريبة من الأزهر فـى أعمـال الثورة ومن الضاحك الباكى ما يذكر عن أحد ظرفاء مصر محمد بك البابلى "مر شحاذ أمام قهوة أيام اضطرابات الثورة المصرية سنة ١٩١٩ والمدارس مضربة والمحال العمومية مقفلة والإضراب العام ضارب إطنابه احتجاجاً على ظلم وقع أو خطب ألم وجعل الشحاذ يستجدى الجالسين بصوت منكر وإلحاح ثقيل وكـان البابلى بين الحاضرين فقال: أيوه اضرب لك كام يوم انتم ماعندكوش وطنية"[٩].

والمتصفح لكتاب "مذكرات فتوة" ليوسف أبى الحجاج والذى صـدر فـى العشرينيات "الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢٧" أو لرواية المؤرخ الدكتور حسـين مؤنس أحد المعاصرين لهذه الثورة، والتى نشرت مؤخراً "عصـر الفتـوات.. عصر البطولة للمصريين أيام الاحتلال والـوزراء والباشـوات، دار الرشـاد، القاهرة ١٩٩٣" أو ما قدمه الروائى الأديب نجيب محفـوظ وبصـفة خاصـة "ملحمة الحرافيش" يستطيع أن يدرك أبعاد هذا الدور، والذى لم تتعـرض لـه الكتابات التاريخية التقليدية، والذى لا يخلو من دلالاته السياسـية-الاجتماعيـة، على الرغم من أن نشاطهم فى بعض الأحيان امتد ليشكل خطراً علـى الأفـراد وانطلقوا فى طلب الحاجة واغتصابها من منطق التفـاوت الطبقـى الرهيـب، واتضح ذلك فى صورة البلطجى الذى يرى أحمد أمين فى "قـاموس العـادات والتقاليد والتعابير، ص٩٦" أنه الشـخص القـوى الـذى يأكـل مـال النـاس بالباطل،لكنه فى أحيان أخرى امتد من خلال نسق العنف "الفتونة" ليشكل خطراً على السلطة ورموزها آنذاك، فلنتأمل مقتطفات سريعة فى الخاتمة التى كتبهـا محفوظ للحكاية الأولى من "ملحمة الحرافيش" عن عاشور الناجى"[١٠]:

"وجد عاشور الناجى نفسه فتوة للحارة دون منازع – وكما توقع الحرافيش أمام فتوته – على أصول لم تعرف من قبل، رجع إلى عمله الأول ولزم مسـكنه تحت الأرض كما ألزم كل تابع من أتباعه بعمل يرتـزق منـه وبـذلك محـق البلطجية محقاً، ولم يفرض إتاوة إلا على الأعيان والقادرين لينفقها على الفقراء والعاجزين وانتصر على فتوات الحارة المجاورة، فأضفى على حارتنا مهابة لم

تحظ بها من قبل فحق بها الإجلال خارج الميدان كما سعدت فى داخلها بالعـدل والكرامة والطمأنينة، وكان يسهر ليله فى الساحة أمام التكية يطرب للألحان ثـم يبسط راحتيه داعياً "اللهم صن لى قوتى وزدنى منها لأجعلها فى خدمة عبـادك الطيبين".

أو هذه الفقرة من الحكاية العاشرة من "ملحمة الحرافيش" التوت والنبوت"[١١]:

"ولم يتوان عاشور ربيع الناجى ساعة واحدة عن تحقيق حلمه ذلك الحلـم الذى جذب به الحرافيش إلى ساحته ولقنهم تأويله فى الخلاء وحولهم بـه مـن صعاليك ونشالين ومتسولين إلى أكبر عصابة عرفتهـا الحـارة. سـرعان مـا سـاوى فى المعاملة بين الوجهاء والحرافيش وفرض على الأعيان إتاوات ثقيلة حتى ضاق كثيرون بحياتهم فهجروا الحارة إلى أحياء بعيدة لا تعرف فتـوة ولا فتونة، وحتم عاشور على الحرافيش أمرين: أن يدربوا أبناءهم على الفتونة حتى لا تهن قوتهم يوماً فيتسلط عليهم وغد أو مغامر وأن يتعيش كل منهم من حرفة أو عمل يقيمه لهم من الإتاوات"

وإذا كانت رواية مؤنس الاجتماعية التاريخية عن فترة تاريخيـة عاشـها المجتمع المصرى، فقد كان وراء الفتوة جماعة من المتعطلين "حرس المعلم" أو "العواطلية" الذين مارسوا أحياناً نمط البلطجة على النقـيض مـن السـلوكيات المحمودة للفتوات حيث كانوا يعيثون فى الأرض فساداً فيشيعون الظلم والعدوان ويسرقون وينهبون وينتهكون الأعراض غير مكترثين بالقيم والتقاليد والأديـان وهم الذين خرج منهم "البطحجية" "ظهر بالليل رجال يقال لهم البطحجية ومعهم أشياء يضربون بها كل من كان ماراً منفرداً أو تارة يضربون الاثنين ويأخذون من الناس ثيابهم وما معهم من الدراهم حتى عمت البلوى بذلك"[١٢].

وبالطبع فان الفتوة والبلطجى يخشاهم الناس ويحسبون حسابهم، بحيث كان الناس يتقون شرهم بإعطائهم الأشياء مجاناً "كفردة" أحياناً، ومن هنا شاع فـى أقوالهم أثناء المنازعات بين فرد وآخر عبارة "أنت عامللى فردة" لكن مع فارق أساسى هو أن الفتوة يحظى باحترام الناس وحبهم لنصرته للمظلوم وإعطاء كل ذى حق حقه، وهذا ما أبانه محفوظ فى ملحمته عن الحـرافيش أمـا البلطجـى فيخافه الناس ويخشون بطشه وفرق شاسع بين الاحترام والخوف"[١٣]. ولعل مـا

شد انتباه كاتب هذه السطور أثناء دراسة له عن "المقاومة الشعبية أثناء حـرب ١٩٥٦" ما عثر عليه فى مجلة صباح الخير "١٥ نوفمبر ١٩٥٦" من أن فتوات الحسينية اجتمعوا فى بيت أحدهم ويسمى سيدهم الجدع وقرروا فض خصوماتهم والذهاب سوياً لحمل السلاح.

الأعمال الفنية المصرية القديمة خصوصاً زاخرة بالعديد من القيم النبيلـة، وكان نموذج الفتوة "ابن البلد" من النماذج البارزة التى تناولتها مثل هذه الأعمال الفنية عشرات المرات وخاصة الفيلم المميز "فتوات الحسينية" و"زمن الجدعان" والذى لعب فيهما فريد شوقى دوراً بارزاً، كان الفتوات معنيين بإحقـاق الحـق والدفاع عنه ونصرة المظلوم ومساندة الأرامـل والفقـراء، وكانـت الشـهامة والشجاعة والتضحية والعدل تمثل ميثاقاً لا تخرج عنه سلوكيات الفتوات، وكان لكل منطقة فتوة يحميها فلا يجرؤ أحد الاعتداء على أهل منطقته.

وحتى مجىء الحملة الفرنسية كان للجعيدية حارة خاصـة بهـم تضـمهم كجماعة متجانسة نسبياً يمارسون مهنة واحدة -كما يتصور ريمون"[١٤]"- تخضع لسلطة شيخهم، وكان بعضهم يتجمع قبل ذلك بجوار القنطرة الجديدة أو "قنطرة الحشاشين""[١٥]" يستعملون الحشيش المعروف بالزية. ويبدو أن شـيخ "سـلطان" الحرافيش قد امتدت سلطته إلى هؤلاء الجعيدية، وقد مر بنا أن السلطان برسباى قد أمرهم بالعمل بدلاً من الشحاتة فى عام ٨٤١هـ فامتنعوا عن ذلك "وهربـوا نحو بلاد الصعيد" كما يقول ابن إياس فى الجزء الثانى من بدائع الزهور.

ويتساءل المؤرخ: هل تنسب قرية "الحرافشة" بمديرية جرجـا "سـوهاج الآن" والتى تقع فى الجنوب الغربى لمدينة طهطا إلى هؤلاء؟ خاصة وأن علـى باشا مبارك يذكر فى إحدى أجزاء خططه "كان أهلها قبل زمن العزيـز محمـد على باشا فقراء بلا عدد ولا عِدد ليس لهم كسب سوى نسـج حصـر الحلفـاء وكانوا مستضعفين، أو لعل هذا هو السر فى تسمية القريـة بهـذا الاسـم لأن الحرافشة فى الأصل جمع حرفوش ومعناه كما فـى كتـاب السـلوك: الـدنىء الخسيس ويقال فى الجمع أيضاً حرافيش""[١٦]".

ولعل هذا ما يوضح العلاقة بين الحرافيش والجعيدية وأن الحـدود بينهمـا غير واضحة المعالم فثمة علاقة بين الحرافيش والفقراء "من أصحاب الطـرق

الصوفية خاصة أو ما وصفهم شـميس بالمجاذيـب"[١٧]، وثمـة علاقـة بـين الحرافيش الذين نظر إليهم الجبرتى على أنهم من "السوقة وأهل الحرف السافلة ومن لا يملك قوت يومه"[١٨] وبين الجعيدية الذين مارسوا الشحاذة.

ولعل الجعيدية أطلقت على أشخاص شعرهم"جعد"[٩٢]"وضبتهم مخلوعـة أو على حد قول الأبشيهى "كأنها ضبة جعيدى مخلوعة ولا تأخذ شىء"[٢٠]. وظلت طائفة تطلق عليهم هذه الكلمة التى لا يدرى أحمد أمين من أين جاءت، واعتبرها "طائفة سافلة حقيرة من الناس، صناعتهم غالباً الشحاتة يسير اثنين مع بعضـهما فى الغالب، أحدهما يحمل دربكة صغيرة والآخر يحمل "صاجات" ويلبسان ثوبـاً قصيراً لا يتجاوز الركب، حفاة بلا سراويل، وعلى الرأس إما طربوش قـديم أو عمامة قديمة أو طاقية قديمة ويغشيان المحلات أحدهما يطبـل علـى الدربكـة والآخر على الصاجات ويغنيان أغنيات خاصة أكثرها بـذىء"[٢١]وقـد اعتبـر الأدباتية من هؤلاء الطائفة، وقد وصفهم بيرم التونسـى فـى أشـعاره بأسـوأ الأوصاف "الجلافة" والجعيدى هو الجلف أو "الجحلوف" على حد تعبيره والذى تراه:

تلقى الجعيدى فى جمعية فى عماد الديـ ـن

ليلاتى سكر وتسليـ ـة سحت ع الوارثين

ويصف الجعايدة بقوله:"[٢٢]

لما الجعايدة الغجر يتعلموا التمديـ ـ ـ ـن

ويركبوا الكهربا ويبطلوا الكوانيـ ـ ـ ـن

الأرض تصبح سما والعيشة تصبح طين

يتوب علينا وعليك من رؤية السافليـ ـن

يؤكد كاتب هذه السطور من تصفحه للقاموس الجغرافى للبلدان المصـرية والذى ضمنه علماء الحملة الفرنسية فى موسوعة "وصف مصر" أو خطط على باشا مبارك أو قاموس محمد رمزى الجغرافى للبلاد المصرية أن هناك بعـض القرى المصرية ارتبطت بأسماء جماعات مهمشة مثل "طوخ الحرامية"، "كفـر

اللصوص"، "النشيل"، "منشاة خلبوص"، "الحلبية"، "كفر شحاتة"، "الزعيـرة"، "الغوازى"، هذه القرى وإن لم تكن مرتبطة ارتباطاً أساسياً بهذه الجماعـات، إلا أن مجرد التسمية له دلالة فى تصور تواجد جماعات من هؤلاء خارج القاهرة، أو بما يفيد على أهميتهم النسبية فى الوعى العام. الأمر الذى أدى إلى استهجان أسماء هذه القرى والمطالبة بتغيير ما وصفت به، حيث وافقت وزارة الداخليـة على طلب أهل "كفر اللصوص" بتغيير الاسم إلى "كفر الشرفاء" عـام ١٩٢٨ وعلى تغيير قرية البهرجة "منشاة خلبوص" لتصبح "منشاة هديب" علـى اسـم عمدة القرية الشيخ عبد ربه هديب وذلك عام ١٩٣٨."[٢٣]

مع انتشار وتزايد جماعات اللصوص والحرامية وقطاع الطرق، كان لابـد من إجراءات رادعة اتخذت وكان لابد من إجراءات أمنية وقائية، هذا يفسر لنـا إقامة الأسوار حول القاهرة، ففى عهد على باشا الصـوفى "٩٧١هـ ـ" كثـر السارقين وقطاع الطريق لا سيما حول القاهرة، فاضطر إلى بناء حـائط مـن قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض خوفاً من السارقين والأشرار أن يدخلوا البلد "فإنهم كانوا لا يكترثون بشىء لا ليلاً ولا نهاراً "[٢٤]"

وبعد أن امتد العمران خارج القاهرة وفتحت فى أسوارها أبـواب جديـدة أقيمت على الدروب والحارات أبواب لمنع السرقة وكـان ذلـك نتيجـة لتعـدد حوادث السرقة والنهب، عينوا لها البوابين وكانت تغلق عقب صـلاة العشـاء وبعضها عقب الغروب بقليل، وكان لابد من متانـة البوابـات علـى الـدروب والحارات والعطف العمومية والخصوصية، فكثرة حوادث اللصوص أدت إلـى أن يقوم الأهالى "يصفحون الأبواب بصفائح الحديـد، ويسـمرونها بالمسـامير الكبيرة، ويفرطحون رؤوسها ويجعلون بأكتاف الباب السلاسل المتينة، ويجعلون للباب الضبة والضبتين فى الخارج والداخل، ويزيدون من الداخل الترباس، وهو خشبة طويلة ينقرون لها بالحائط نقراً تبيت فيه، فإذا جاء الليل أو خيـف أمـر سحبوها من مقرها بواسطة حلقة فى طرفها، فتأخذ فى عرض الباب أو آخـره. وربما يبيتونها فى نقر من جهة عقب الباب وكانوا يتفننون فى الحيل لمنع الضبة من الفتح بعمل الدواسيس وشق المفاتيح ووضع السواقط"[٢٥]".

وخوفاً واحتراسا من اللصوص روعى فى بناء منازل الموسرين والعظماء

-كما شاهد لين"[٢٦]"- أن يجعل للمنزل "باب سر" يستطيع الساكن أن يهرب منه فى حالة الخطر، وروعى كذلك بناء مكان لإخفاء الكنوز يسمى "مخبأ" يكون فى جانب المنزل. وكان من المعتاد أن يتجول أغا الدرك "الشرطة" فـى شـوارع القاهرة ويرافقه غالباً "المشاعلى" و"الشعلجى" أى حامل الشعلة التى تشعل حال إضرامها فلا يصعد لهبها إلا حين تحك فى الهواء عندما تضرم فجأة فى الخارج لتؤدى عمل المصابيح المعتمة ويقال إن اللصوص كثيراً ما يشعرون بالشعلة فى الوقت المناسب فيتفادون مقابلة حاملها، ويقوم أعوانه بدوريات فى الليـل مـع بعض الجنود، ويتكاثر المخبرون وينتشرون فى أحيـاء العاصـمة ويختلطـون بالناس فى المقاهى وكلهم عيون وآذان وأغلبهم -كما يرى لـين"[٢٧]"- لصـوص عفى عنهم يرافقون الحرس فى دورته الليلية خلال شوارع القاهرة.

ومما يؤكد كلمات لين السابقة ما ذكره الجبرتى فى أحـداث "١٧ شـعبان ١٢٠٢هـ -٢٣ مايو ١٧٨٨م""[٢٨]":

"وفى تلك الليلة ضربوا أعناق خمسة أشخاص من أتباع الشرطة يقال لهـم البصاصون، وسبب ذلك أنهم اخذوا عملة وأخفوها من حاكمهم واختصـوا بـه دونه ولم يشركوه معهم".

وإذا كانت اللصوصية تتضمن فعل الشىء فى ستر، فإن التلصـص كـان يتضمن فى إحدى معانيه السائدة أواخر القرن الثامن عشر معنى "التجسس"،"[٢٩]" ولهذا فقد ارتبط عمل "البصاص- المخبر أو البوليس السرى" "[٣٠]" بالتجسس فى الحكومة وهو وإن ساعد الحكومة فى القبض على أربـاب الجـنح والجـرائم والمشتبه فيهم إلا أن عمله هذا كان يؤذى الأهالى ويظلمهم واستمر الخوف سائداً -حتى وقتنا الحالى- من عمل بعض رجال المباحث.

ففى عصر محمد على كتب الجبرتى فى أحداث "٦ ربيع الثانى ١٢٢١هـ -٢٣ يونية ١٨٠٦م": "[٣١]" "قبض الباشا على إبراهيم أغا وحـبس مـع أربـاب الجرائم وسبب ذلك أن البصاصين شاهدوا حمولاً فيها ثياب من ملابس الأجنـاد أعدها بعض تجار النصارى ليرسلها إلى جهة قبلى لتباع على أجنـاد الأمـراء المصريين ومماليكهم ويربح فيها وسئل الحاملون لها فأخبروا أن أربابها فعلـوا ذلك باطلاع الوالى المذكور على مصلحة أخذها منهم". ويضيف الجبرتى فـى

أحداث "٤ جمادى الأولى ١٢٢٩هـ - ٢٤ أبريل ١٨١٤م": "٣٢"

"وفيه بلغ صرف الريال الفرانسة من الفضة العددية ثمانمائة وعشرين نصفاً، عنها ثمانية قروش، والمشخص عشرون قرشاً، وقل وجود الفرانسة، والمشخص بل والمحبوب المصرى بأيدى الناس جداً، ثم نودى على أن يصرف الريال بسبعة قروش، والمشخص بستة عشر قرشاً، وشددوا بذلك، ونكلوا بمن يخالف ذلك، وعاقبوا من زاد على ذلك فى قبض أثمان المبيعات، وأطلقوا فى الناس جواسيس وعيوناً، فمن عثروا عليه فى مبيع أو غيره أنه قبض بالزيادة، أحاطوا به وأخذوه وعاقبوه بالحبس والضرب والتغريم وربما أرسلوا من طرفهم أشخاصاً متنكرين يأتى أحدهم للبائع فيساومه السلعة كأنه مشتر، ويدع له فى ضمن الثمن ريالاً أو مشخصاً أو يحسبه بحسابه الأول ويناكره فى ذلك، فربما تجاوز البائع خوفاً من بوار سلعته وخصوصاً إذا كانت البيعة رابحة أو بيعة استفتاح على زعم الباعة. وقلة الزبون بسبب وقف حال الناس أو إفلاسهم، فما هو إلا أن يتباعد عنه يسيراً، فما يشعر إلا وهو بين يدى الأعوان ويلاقى وعده".

وفى الجزء الثانى من "الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا" ثمة أمر منه فى ٥ محرم ١٢٥٢هـ "الجزء الثانى، ص٩٢-٩٣" إلى مديرية الوجه القبلى دعا فيه إلى تشغيل أنوال الفابريقات على مقتضى المقاس والمقطوعية "أنه لما كانت الأنوال فى النواحى كانوا البصاصين يظلمون الأهالى الفقراء بالأذية" كان من الضرورى للوالى "محمد على باشا" لحماية وتأمين دولته أن يلجأ لنائبه لكى يقوم بأعمال التجسس على منافسيه ومن يضر بأمن دولته وكان هذا النائب "لاظ أوغلى محمد أغا كتخداى جناب والى مصر" "مطلق التصرف فى أمور الإدارة" -على حد قول أمين سامى- "٣٣" ولمراقبة هؤلاء رتب "من يحمل لهم ما يسدون به رمقهم أثناء سهرهم وسمرهم بالليل ممن يفهم لغة القوم من تركية وعربية وأناط بهم بوسائل شتى أن يجوسوا خلال ديارهم بصفتهم باعة لما يحتاجه الناس فى الليل بعضهم يحمل كعكاً وبيضاً ودقة والبعض الآخر حب العزيز واللب بأنواعه والبعض الآخر أنواعاً من اللوز والبندق المقشر وبراغيث الست وأمثال ذلك، وكل هذه الأصناف من مال الحكومة فيتردد هؤلاء الباعة على سهار الليل من ذوى اليسار من أصحاب

البيوت الواسعة التى يفد الناس إليها لقضاء السهرة فيها.. يتوصلون أثناء ذلـك إلى وعى كل ما يقال فى السهرة بحسب الاستطاعة وعند مبارحة الدور وقبيـل الفجر يدونون ما سمعوه فى تقارير ويلقونها فى فتحة من باب بيت كان معروفاً من عهد غير بعيد بمنزل قفطان باشا غرب منزل مصطفى باشا الكريدلى فـى الساحة أمام المقام الزينبى وهذه الفتحة فى داخلها مخلاة وكل منهم يصـل فـى ميعاد معين لوضع تقريره فى تلك المخلاة وباب هذا البيت مفتاحه عند محمد بك لاظ أوغلى نفسه".

وقد استمر هذا النظام وتزايد بعد ذلك وانتقلت مهامه من الأمن السياسـى إلى الأمن الاجتماعى-الاقتصادى، ونظمت أعماله والتى وضعت تحت رئاسـة "الضابطاخانة"[٣٤] الإدارة الرئيسية للأمن حيث كانت تجرى التحريـات عـن الحوادث التى يطلب الديوان معرفتها عـن طريـق البصاصـين الـذين زادت مرتباتهم بعد ذلك على نحو ما حدث فى عهد إسماعيل باشا عندما أصدر إرادة لمحافظ المحروسة أدهم باشا "فى ربيع الثانى ١٢٧٣هـ" برفع مرتبـاتهم مـن ٣٥قرشاً إلى ثمانين قرشاً بعد أن تبين له أن "إدارة المعيشة بهذا المرتـب مـن المستحيل" وبعد ذلك أصدر إدارة أخرى لأمين باشا محـافظ مصـر "فـى ١٩ رجب ١٢٧٦هـ" دعاه فيها ضرورة مراعاة الكيف لا الكم عند اختيار هـؤلاء ونبه إلى ضرورة استخدام عدد بسيط من الجواسيس من "أهل النشاط والنباهـة المستقيمى الأطوار للمبادرة بتقديم البلاغ عن أية حادثة".[٣٥]

وحتى عصر محمد على لم يكن يسمح لأحد بالتجول فـى الخـارج بـلا مصباح أو أى نور بعد غروب الشمس بحوالى ساعة ونصف، وقلما ترى سائراً بعد ساعتين أو ثلاث، ولا يكاد الليل ينتصف -كما رأى لين[٣٦]- حتى تمر فـى العاصمة جميعها فلا تقابل أكثر من عشرة أشخاص أو عشرين، خلا المـراقبين والحراس وبوابى الحارات والدروب، وعندما يمر عابر سبيل يناديه الحـارس بالتركية "من هذا "كيمن دو أ" فيرد المار بالعربية:"ابن بلد" "ويجيبه أعمـى إذا كان لا يرى" والحارس الخاص كذلك يصيح "وحد الله" أو "وحد" فقـط، فيجيبـه السائر: "لا اله إلا الله" ولا يختلف النصارى عن المسلمين فى هذا القول، فهـم يفهمون التوحيد فهماً مختلفاً، والمفروض أن اللص أو من يشرع فـى مخالفـة القانون لا يجرؤ على النطق بهذه الكلمات.

هوامش وإحالات الفصل الثالث

١- عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الأول، ص١٤٥.

٢- أحمد الدردير"الشيخ": الشرح الصغير، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، مطبعة المدنى، القاهرة ١٩٦٢، ص٣٦"نقلاً عن المقدمة التى كتبتها الدكتورة آمـال العمرى لكتاب أبى حامد المقدسى: الفوائد النفيسة الباهرة فـى بيـان حكـم شوارع القاهرة فى النفيسة مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة، مطبعة هيئة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٨٨، ص٥".

٣- سعاد ماهر (د): القاهرة القديمة وأحياؤهـا، دار القلـم بالقـاهرة ١٩٦٢، ص١١٥.

٤- نللى حنا (د): بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ترجمة حليم طوسون، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٣، ص١٠٢، ص٢٤١.

٥- سيا حتنامة سى، ص ٥٢٤-٥٢٥.

٦- فى إحدى قصائده عن الطوخية "الفتوات" كتب بيرم التونسى:

من كل طوخى وفرقته	ع الأمة رامى جتته
ويخص أهل حتته	فى كل يوم بمدبحه
معلمين ملهاش عدد	مشغلين مليون ولد
أحداث وأيتام البلد	زى الجراد متسرحة
حرامى من غير بينة	سلطان فى ايده مروحة

بيرم التونسى: الأعمال الكاملة "٤" بيرم وحياة كل يوم، الهيئة المصرية العامـة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص٨٥-٨٦".

ويبدو أن اصطلاح "طوخى" الذى ذكره بيرم يرادف اصطلاح "حرامـى" وهو نسبة - كما أعتقد – إلى قرية "طوخ الحراميـة" أو "طـوخ القرامـوص" مركز ههيا شرقية والتى ذكرها على باشا مبارك فى خططه التوفيقية "الطبعـة الثانية، الجزء ١٣، مطبعة دار الكتـب والوثـائق القوميـة، القـاهرة ٢٠٠١،

ص١٧٤".

٧- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ١٣٤.

وحول حى الحسينية والذى ينسب إليه الفيلم المصرى الشهير الذى ظهـر فى الخمسينيات من القرن العشرين "فتوات الحسينية" راجع: سـعاد مـاهر"د": المرجع السابق، ص٥٨-٥٩، عبد الرحمن زكى"د": القاهرة، تاريخها وآثارها، دار الطباعة الحديثة، القاهرة ١٩٦٦، هامش "١"، ص١٦.

٨- على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء الثانى، الهيئة المصـرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص٢٤٣.

٩- راجع حسين البابلى: البابلى، المطبعة الرحمانية بمصـر، ١٩٣٦، ص٥٥، وكذلك قسطندى رزق: الموسيقى الشرقية والغناء العربى، الجـزء الثـانى، المطبعة العصرية بمصر ١٩٣٨، ص١٨٣.

١٠- نجيب محفوظ: المؤلفات الكاملة، المجلد الرابع، ملحمة الحرافيش، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٣، ص٧٣٦.

١١- نفس المرجع، ص٩١٧-٩١٨.

١٢- الشيخ خليل بن أحمد الرجبى: تاريخ الوزير محمد على باشا، ص٧٤.

يمايز تيمور باشا فى معجمه الكبير فى الألفاظ العامية، "الجـزء الرابـع، ص٤١٤" بين العصبجية والفتوات بقوله: "العصبة بالضم هـى العصـابة مـن الأوباش يتضاربون وهم العصبجية والممتاز من العصبجية يسمى بالفتوة وقـد صاروا يطلقونه على كل من كان منهم ولو لم يتميز بـالقوة والجـرأة، ويـرى تيمور أنه إذا كانت الفتوة تمتاز بالخلق الحسن والمروءة فإن ابن إياس والجبرتى استخدما الزعر "الزعارة" بما يفيد العياق وكان استخدام أولى الزعارة والشطارة للفساد والخبث، وأطلق على العيارين العصـبجية "نفـس المرجـع، ص٤١٤-٤١٨".

١٣- فى عمود "بريد الأهرام" بتاريخ ٧ مارس ٢٠٠٢ وتحت عنوان "البلطجى والفتوة" تأسى الدكتور عبد اللطيف عثمان أستاذ بطب الأزهر مـن اختفـاء

نموذج الفتوة من حياتنا فى العصر الحديث الأمر الذى بات نادراً للغاية، لكن الشىء اللافت للنظر أن "البلطجة الدولية" أصبحت سـمة العصـر وتلعـب الولايات المتحدة الأمريكية دور البلطجى المتجبر الذى يدير شـئون العـالم ويتحكم فى مقدراته بلا منازع بفعل غرور القوة واختلال موازينها، ويـرى: "ولأن دوام الحال من المحال، واختلال التوازن يتعارض مع نواميس الكون فإننا نتوقع ألا يستمر هذا الحال إلى ما لانهاية ولا بد أن يعتدل الميزان خلال وقت مقدور.."

١٤- أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمـة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٧٢، ص ٢١.

١٥- محمد بن أبى السرور البكرى: النزهة الزاهيـة فـى ذكـر ولاة مصـر والقاهرة المعزية، تحقيق عبد الرازق عيسى، الطبعة الأولى، العربى للنشـر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨، ص٢٥٨.

١٦- الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء العاشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٩٤، ص١٦٤.

١٧- حول العلاقة بين الحرافيش والمجاذيب، راجع عبد المنعم شميس: حرافيش القاهرة، دار المعارف بمصر ١٩٨٩، ص٩٨-١٠٢.

١٨- عبدالرحمن الجبرتى: مظهر التقديس بزوال دولـة الفرنسـيس، تحقيـق الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨، ص٩٤.

ويرى الجبرتى أن من الملاحظ أن تجد "أحدهم يجتهد فى قوة سعيه ويبيـع متاعه أو يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها فى وقود القناديل وأجرة الطبالـة والزمارة، وأكل، يجمع عليه ما هو من أمثاله من الحرافيش ثـم يقطـع ليلتـه سهران ويصبح دايخ كسلان ويظن أنه بات يتعبد ويذكر ويتهجد".

١٩- حول كلمة "جعد- الجعودة -الجعد" والتى ترتبط أساساً بالشـعر واليـدين فجعد الأنامل هو البخيل وربما أطلق فى البخيل أيضاً ولم تذكر معـه اليـد،

راجع: "مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر الرازى، ص١٢٠"

٢٠- المستطرف فى كل فن مستظرف، الجزء الأول، ص٦٦.

٢١- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص١٣٧-١٣٨.

٢٢- الأعمال الكاملة، "بيرم" "٣" الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة والناس ١٩٧٦، ص١٤٧، ص١١٦.

٢٣- انظر: علماء الحملة الفرنسية "وصف مصر" ترجمة منى زهير الشايب، الجزء١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، صفحات: ١٩٣،٢٨٤،٣٧٣،٣٩٣. وانظر كذلك على وجه التخصيص:

محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القسم الثانى، البلاد الحالية "الجزء الأول"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص٨٧. وكذلك القسم الثانى، الجزء الثالث، ص١٦٨.

هذا عن كفر اللصوص "مركز الزقازيق" ومنشاة خلبوص "مركز بنى سويف" أما قرية "نشيل" فهى من أعمال الغربية ذكرها محمد مرتضى الزبيدى فى مادة "نشل" فى مرجعه السابق، المجلد الثامن، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص١٣٦.

٢٤- على باشا مبارك: المرجع السابق، الجزء السابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧، ص٥٦.

٢٥- نفس المرجع، الجزء الأول،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠، ص١٩٧.

٢٦- لين: المصريون المحدثون، ص٢٣.

٢٧- نفسه، ص٦٧.

٢٨- عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ج٢، ص٢٤٧.

٢٩- محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء الثامن عشر، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٩، ص١٤٦-١٤٩.

٣٠- حول البصاص انظر: أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير فى الألفـاظ العامية، الجزء الثانى، ص١٨٦-١٨٧.

٣١- عبدالرحمن الجبرتى: المرجع السابق، الجزء الرابع، ص١٧.

٣٢- نفسه، ص٣٢٤-٣٢٥.

٣٣- أمين سامى باشا: تقويم النيل وعصر محمد على باشـا، الجـزء الثـانى، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصـرية بالقـاهرة ١٩٢٨، ص٣٢٧. وحول تفاصيل أكثر لدور هؤلاء البصاصين الذين عملوا تحت رئاسـة لاظ أوغلى، انظر هامش "١"، ص٣٢٧ من هذا المرجع. وحول النمـو لهـذه الجماعات راجع رسالة عبد الوهاب بكر محمد: البوليس المصرى ١٨٠٥-١٩٢٢، رسالة ماجستير فى الآداب، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، الجزء الثانى، ١٩٧٧، ص٤٧٨ وما بعدها.

٣٤- عبد الوهاب بكر محمد: المرجع السابق، الجزء الأول، ص١٥٦.

٣٥- أمين سامى باشا: تقويم النيل، المجلد الأول من الجزء الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٦، ص٢٠٤-٢٠٥، ص٣٤١.

٣٦- لين: المرجع السابق، ص٦٧.

- فى ذلك الزمان إذا كان اللص لا يجرؤ على النطق بكلمـات مصـحوبة بترديد "لا إله إلا الله" كما أوضح لين، فقد تزايد إيقاع تغير هذه القاعدة الأخلاقية بعد ذلك وأصبحنا نسمع من يقول فى الأمثال: "قالوا لحرامى الدقيق احلف قـال يامره انخلى" يضرب للأمر ظهره شواهد منه فلا يحتاج إلى عناء فـى كشـفه. و"قالوا للحرامى احلف قال جا الفرج" وذلك أن الحلف أهون الأشياء على اللص الذى "ويكون أكذب ما يكون ويقسم" على حد قول المتنبى. راجع:

أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، ص ص ٣٦٩-٣٧٠.

الباب الثانى

السياق المجتمعى لنمو الجماعات الهامشية

الفصل الرابع: أوضـاع سياسـية لنمـو الجماعـات الهامشـية.. عنف السلطة وتعسفها

الفصل الخامس: أوضاع اقتصادية لنمو الجماعات الهامشية.. الفقر والإفقار والغلاء والوباء

الفصل السادس: أوضاع اجتماعية لنمو الجماعات الهامشية.. تزايد أرباب الملاهى والمغانى

الفصل الرابع

أوضاع سياسية لنمو الجماعات الهامشية

عنف السلطة وتعسفها

تحاول الدراسة، بقدر المستطاع تبيان رصد الجذور التاريخية لنمـو هـذه الجماعات المهمشة وهى وإن سجلت صفحات من تطور هذه الجماعات والـذى يخضع دائماً لعنصر التغير من زمان إلى آخر، فإنها تعـرض للقـارئ، غيـر المتخصص غالباً فى البحث التاريخى، بعض من ملامح الظـروف التاريخيـة العامة والتى نمت فيها هذه الجماعات أو بمعنى آخر فإن نمو هـذه الجماعـات ارتبط بسياق تاريخى سياسى- اجتماعى- اقتصادى واسع حيث لا يمكن الفصل بين هذا التطور وتطور المجتمع المصرى فى العصر الحديث.

وأول ما يلاحظ فى هذا المجال أن نمو هذه الجماعات تواكب مع تصـاعد الانهيار السياسى- الاقتصادى وبصفة خاصة إبان الحروب والصراع الـداخلى بين الجماعات العسكرية. خاصة إبان الانقسامات بين الأمراء المماليك بعضـهم البعض "سعد وحرام- فقاريه وقاسميه" وكانت معظم أيامهم "أيام فتن وحـروب وشرور" على حد تعبير الجبرتى، الذى نقل من الشيخ حسن البدرى الحجـازى قوله فى حق أحد الولاة "خليل عن باشا":

قد جاء مصر باشة		أيامه ليست مـ ـلاح
ضرب مدافعاً بـها		كذا رماح وصفـاح
فقلت فى تاريخـه		خليل باشا فى كـلاح
أى فى زمان كالح		ليس به وقت انشراح

هذا الوالى الذى يقول عنه الجبرتى فى أحداث سنة ثلاثة وعشرين ومائـة وألف "١٧٠٧م" أنه عندما "نزل من باب الميدان وشق من الرميلة على الصليبية

والعامة قد اصطفت يشافهونه بالسب واللعن"[١]" فى هذا "الزمان الكالح" الذى تزخر فيه المؤلفات التاريخية المعاصرة بعرض نماذج متعددة للصراع العسكرى – السياسى والذى أفردت له مؤلفات خاصة ازداد نشاط هذه الجماعات فى ظل حالة الانفصال بين معايير شرعية الدولة والمجتمعات المحلية وانهيار الأبنية الاجتماعية –الاقتصادية بشكل عام. ورغم تحامل المؤرخين على هذه الجماعات فقد استعين بها فى بعض الأوقات خاصة فى الأوقات التى هددت كيان الدولة وكيان المجتمع "على نحو ما حدث بصفة خاصة أيام السلطان الغورى وطومان باى وفى زمان الحملة الفرنسية على بر مصر" وفى بعض الأحيان تمتع بعض أفراد من هذه العصابات بمساعدة أفراد من المجتمعات المحلية "على نحو ما حدث مثلاً لقاطع الطريق زغلول أثناء فترة حكم محمد على باشا"، كان بعض الأمراء المماليك يستعينون بهم لضرب بعضهم البعض أحياناً، وفى معظم الانتفاضات وأعمال التمرد على النظام السياسى والعسكرى والاقتصادى كانت هذه الجماعات جزء لا يتجزأ من التركيبة الاجتماعية للنسق المصرى وكانت أقرب إلى مصالح "العوام" والمعدمين. وكما سنرى بالتفصيل فيما بعد فى الهبات الكبرى إبان العصر العثمانى، خاصة هبات المجاعة والغلاء لعب هؤلاء الدور الأساسى وكانوا فى طليعة الثائرين.

مع الانهيار السياسى، والذى تمثلت بعض مظاهره فى الصراع بين أمراء المماليك وبين الأوجاقات العسكرية وبين الباشا والذى توالى عزله أو إهانته أو اغتياله فى بعض الأحيان، يقول شاهد عيان "إذا بلغ النيل خمسة عشر ذراعاً والعياذ بالله وقع الضرر كذلك، فلا يمكن تحصيل خراج السلطان ولا مال الأمناء والكاشفين وتتعالى الأصوات مطالبة بعزل الباشا بدعوى أنه مشئوم ويحبس فى جوسق يوسف ويعرض جميع الجند مسألة عزله على الأستانة ويظل الباشا حبيساً إلى أن يأتى وزير آخر ويتولى مهامه أحد البكوات بصفة مؤقتة ويلقى بالملتزمين والأمناء والكاشفين فيما يسمى بالأرق خانة أى السجن ويعذبون ويعلقون فى البكرات وتصادر أموالهم وتباع ويحصل المال السلطانى بتمامه غير منقوص ثم يطلق سراحهم،"[٢]".

ومع كثرة عزل الولاة مل السلاطين من مطالب المصرلية "أرسلوا لنا باشا

خلافه" وعبر أحدهم وهو السلطان أحمد الثالـث "١٧٠٣-١٧٣٠" عـن هـذا الضيق بقوله للوفد الذى أرسله محمد بك جركس يطلـب تغييـر محمـد باشـا "١١٣٧هـ-١٧٢٤م": "التمسوا لكم باشا من خشـب لتصـنعوه علـى حسـب أهوائكم"."[٣]

فى أواخر القرن الثامن عشر كان الأوطة باشى يسلم أمر العزل إلى الباشا "فإذا وصل القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو أمامه بـاحترام ووقـار، وعنـدما ينهض يطوى السجادة التى كان جاثياً عليها وينادى بأعلى صوته: "انزل يا باشا" وعند طى السجادة والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق الباشا ولا يبقى له أقـل سلطة على الجنود التى كانت قبل بضع دقائق تحت أمره وتصير تحـت أمـر الأوطة باشى وكانوا يسمونه "أبو طبق" لأنه كان يلبس على رأسه قبعـة مثـل الطبق""[٤].

ألم يحفل قاموس "عوام" مصر آنذاك بعشرات النماذج من السب واللعـن والسخرية والتهكم والتقليس والدعاء على بعض الولاة الظالمين مثل مصـطفى باشا شاهين الذى "جعل الرشوة شعاره والظلم دثاره مع عدم إنصافه للرعايا" أو إسكندر باشا الذى "كان ظالماً جباراً عارض الفقراء فـى أرزاقهـم وأمـوالهم وعندما زادت الشكاوى منه ووصلت إلى مسامع السلطان عزل على الفـور"،"[٥] و"دعوا عليه من فوق مآذن الجامع الأزهر"؟؟

ألم يحفل هذا القاموس بعياط هؤلاء فى وجه بعض الولاة القادمين تظلمـاً من الغلاء والوباء والمظالم والكلاف ورجم بعضهم بالحجارة؟ ألـم يحفـل هـذا القاموس بهتافاتهم المتكررة عليهم؟ على نحو ما حدث لرجب باشا الذى اجتمـع عليه أولاد مصر لكيدهم منه ومن أفعاله واخذوا يصيحون:"[٦]

باشا يـا باشـا	يا عيـن القملة
إيش قلك عقلك	تعمل دى العملة
باشا يـا باشـا	يا عين الصيرة
إيش قلك عقلك	تدبر دى التدبير

تشبث أهل مصر بالصبر والحيلة أحياناً "اصبر على الجار السوء يا يرحل يا تجيله داهية"[٧]. وعندما يرحل أحد هؤلاء الباشوات كنت تسمع رنين الفرح فى قلوب الناس، فعند خروج محمد باشا عام ١٧٢٨ زغردت النساء "لأنه ما خرج من هذه البلد حتى أفقر أهلها وقتل أعيانها وهرب من هرب" ويضيف كاتب السطور السابقة "ثم أنا سألت امرأة من نساء الكفر وقلت لها: ياالله العجب فيكم دون النساء فأنى مع هذا الباشا من بيته الذى بدرب السادات ما سمعت أحد زغرت إلا أنتم ولا أحد قال طريق السلامة له أبداً فما الموجب لكم إنكم تزغرتوا، فقالت لى واحدة منهن: يا سيدى احنا نزغرت لكونه مفارق مصر".[٨]

إذا كان بعض الدارسين يركزون على عنف هذه الجماعات الهامشية وما تقوم به من أعمال سلب ونهب وقطع طريق وسرقة ونشل، أو بمعنى أشمل وأصح كل ما تقوم به من أعمال لصوصية، فإنهم يتجاهلون –ولو دون عمد- أن هذه الأعمال كانت فى بعض الأحيان رد فعل عنيف على عنف الدولة وأجهزتها، وعجز هذه الدولة عن أن تحتوى تعديات الموظفين المحليين على أهل البلاد والعباد وإرهاقهم "غلاء وسوء كيل" والتضييق عليهم وجرهم إلى الخراب وإلى اليأس رغم إيمانهم بأن دوام الحال من المحال، كان لابد أن يكون رد الفعل بعدة مظاهر تتكاثر وتنمو: من التمرد العنيف إلى الهروب والتسحب والانضمام إلى جحافل هذه الجماعات الهامشية أحياناً وبصفة خاصة اللصوص وقطاع الطرق الذين انتشروا بصفة خاصة فى أنحاء مختلفة من السلطنة العثمانية اعتباراً من القرن السابع عشر، وهى عصابات كانت تشن هجمات جسورة على الأغنياء والأقوياء، ومن ثم فهى تجتذب إعجاب وتعاطف الفقراء الذين تتشكل عموماً بين صفوفهم وتقدم لهم –كما يؤكد أحد الباحثين-[٩] نوعاً من الثأر وتشكل مغامراتها المبالغ فيها الموضوع الرئيسى لما لا حصر له من السير والأغانى الشعبية.

هذا الثأر، كما يقال، جزء لا يتجزأ من العنف المضاد لعنف الدولة وجبروتها "باع السلطنة طويل" وإذا كان فمها يسبح فإن يدها تذبح، على حد قول المثل السائر "فم يسبح ويد تذبح"،[١٠] وإذا كان الحاكم "مالوش إلا اللى قدامه" كما يقول مثل آخر، فقد كان الفرار ضرورة "فر من السلطان فرارك من

الأجرب". "[١١]

تعددت وتكاثرت أشكال العنف وقسوة الدولة ورموزها، بل وارتبطت بها، فالاسحاقى المنوفى ينقل ما معناه "ويقال إن القسوة عشرة أجزاء تسعة فى الترك وواحد فى سائر الناس"[١٢] خاصة وأن الأتراك استخدموا الكثير من أنواع التعذيب، والتى كانت سائدة آنذاك فى أماكن أخرى –مثل الخازوق والترسيم والشنق والصلب والخنق والضرب بالكرباج خاصة الكرابيج الزعر وهى القصيرة المقطوعة الطرف، ولجأوا إلى التشهير والتجريس وغيرها.

وإذا كان الخازوق كوسيلة من وسائل تنفيذ العقوبات قد جلبه العثمانيون من ترانسلفانيا فى ظل حاكمها داركون والذى أصبح نموذجاً يخاف منه الصغار والكبار "داركولا" فآل عثمان قد نشروه فى المنطقة واستخدموه على نطاق واسع، ووجد قادة الحملة الفرنسية استناداً على العرف السائد المبرر لخوزقة سليمان الحلبى بعد مقتل كليبر على تل العقارب وشاع فى الأمثال "المخوزق يشتم السلطان"، "يجى زمان يترحموا فيه على فرعون"، "وحلنى من عمود واربطنى فى عمود يأتى الله بالفرج المبين".

وجد كاتب هذه السطور نماذج ضاحكة باكية فى ثنايا المصادر التاريخية التى تكشف لنا عن بعض ملامح العنف وقسوة بعض الولاة والمماليك. يذكر ابن إياس من مساوئ "خاير بك": "كان جباراً عنيداً عسوفاً سفاكاً للدماء، شنق ووسط وخوزق من الناس جماعة كثيرة واقترح لهم أشياء فى عذابهم، فكان يخوزقهم من أضلاعهم ويسميه **شك الباذنجان**"[١٣] وفى فترة لاحقة كتب الجبرتى: "الأمير عبد الرحمن أغا أغات مستحفظان سواس خيل مراد بك قطعوا رقبته حزاً بسكين ويقولون له انظر **قرص البرغوث** يذكرونه قوله لمن كان يقتله لا تخف يا ولدى إنما هى كقرصة البرغوث ليسكن روع المقتول على سبيل الملاطفة فكانوا يقولون له ذلك على سبيل التبكيت"،[١٤] ويضيف الجبرتى عن حسن كتخدا المعروف بالجربان لأنه كان ممتهناً فى المماليك "ومن جملة أفاعيله القبيحة أنه كان يجرد سيفه ويضرب رقاب الحمير ويزعم أنه يقطعها فى ضربة واحدة"،[١٥] ويقول عن الأمير سليمان بك المرادى "كان ظالماً غشوماً، ويعرف بريحة بتشديد الياء وسبب تسميته بذلك أنه كان إذا أراد قتل إنسان ظالماً، يقول

لأحد أعوانه: "خذه وريحه" فيأخذه ويقتله."[16]

يؤكد الجبرتى من "كثرة تعدى العسكر بالأذية للعامة وأرباب الحرف"الأمر الذى أدى إلى "هجاج الفلاحين من الأرياف لما نزل بهم مـن جـور العسـكر وعسفهم فى البلاد حتى امتلأت المدينة من الفلاحين" هو الأمر الذى جعل أكثـر الناس يتمنى أحكام الفرنساوية وخصوصـاً الفلاحـين، ففـى حـوادث عـام ١٢١٧هـ-"١٨٠٢-١٨٠٣" مثلاً يتحدث عن "توالى الفرد والسلف والمظالم على أهل المدينة والأرياف وحق طرق المعينين وكلفهم الخارجة عن الحد المعقـول" وتسلط العسكر على خطف الناس وسلبهم وقتلهم حتى أن أحد الباشـوات قـال عنهم "ليس منهم إلا الرزية والفنطزية" فالأرنؤد "وقع منهم القتل فى كثير مـن الناس حتى فى بعضهم البعض وغالبهم لم يصم رمضان، ولم يعرف لهم ديـن يدينون ولا مذهب ولا طريقة يمشون عليها، إباحية، أسهل ما عليهم قتل الـنفس وأخذ مال الغير" وما فعله الكشاف فى القرى القبليـة والبحريـة مـن المظـالم والمغارم وأنواع الفرد والتساويف "فشىء لا تدركـه الأفهـام ولا تحـيط بـه الأقلام"."[17]

إن عنف وقسوة رموز السلطة جعلت فى أجساد بعض المصريين مناعـة ضد أعمال الخوزقة والضرب بالكرباج وكأنهم يستعذبون الألم.

يصف الرحالة التركى أوليا جلبى هذا "المنظر العجيب" فى "جرأة جبـابرة مصر" كما وصفهم: "ومن عجب أن قبض ذات مرة على أحد اللصـوص مـن فلاحى مصر وعندما حان وقت إعدامه أعطى الكاشف كيسين أو ثلاثة وبسـط إليه الرجاء أن يخرجه فى موكب كالبك ويمضى به إلى ديوان مصر، وفى التو تسلم الكاشف الأكياس وقبل منه رجاءه وساق الجلادون هذا اللص إلـى ميـدان توقيع العقوبة وصلبوه وسلخوا جلده من الظهر إلى الصدر ومن الصـدر إلـى الظهر وهو حى يدخن التبغ ويتغنى بالموال ويمدح من قبض عليه ومن صـلبه ومن قطع يده وقطع الجلادون أرجله ويديه دون أن يتأوه متألماً، و بعـد ذلـك أتموا سلخ جلده وحشوه تبناً واركبوا جثته على حمار مغطاة بملابسه ومضوا بها فى موكب إلى ديوان مصر قائلين إنها جثة لص وهذا منظر عجيب"."[18]

يؤكد ما ذكره الشيخ خليل بن أحمد الرجبى: "وقد رأينا فى الفلاحـين مـن

ضرب ألف سوط ولم يتأثر سوى الضارب بوجع يده ولا نستغرب ذلك فأنى قد شاهدت من ضرب ثلاثة آلاف كرباج ولم يتأوه قط وكان هذا المضروب فـلاح وكان ابن شيخ بلد عندى وكان الضارب له رجل يقال له عثمـان أغـا شـقيق لاجين بك وقصد بذلك غمى وتكديرى ثم بعد ذلك أخذ الحصة منى نهباً". "[19]"

وإذا كان هذا العنف يستحق فى سرده مجلدات، إلا أن ما ذكرتـه فقـرات قليلة للغاية فى بحر أشكال العنف والعنف المضاد الذى حفلت به صفحات تاريخ مصر المملوكية – العثمانية تجاه الأسافل خاصة، الأمر الذى جعل الشيخ أحمـد السندوبى بن سيدى أحمد "المتوفى عام ١١٣٨هـ -١٧٢٦م" يقول فيهم: "[20]"

لقد ضلت أكابرنا	برأس غير مرؤوس
وزالت نعمة بهم	وكانوا جنس إبليس
وقد ملكوا بلاد الله	من خيل وعيـس
وما راعوا وما اعتبروا	بما قد صار فى الكيس
وشيد رأسهم بيتاً	كأنه عرش بلقيس
فصالوا واعتدوا وبغوا	وصار الناس انكيسى
إلى أن زاد بغيهم	برأى كان معكوس
وقطعاً من له مكر	يصبح نحس منحوس
فكم نقضوا عهدهم	ولم يحرضوا بتدليس
وكم حلفوا بإيمان	ولا إيمان للتيس

هوامش وإحالات الفصل الرابع

(١) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الأول، ص ٦٣.

(٢) أوليا جلبى: سيا حتنامة سى، ص٣٢١.

(٣) عبدالرحيم عبدالرحمن(د): الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ١٩٨٦، ص٧٠.

(٤) جرجى زيدان: مصر العثمانية، تحقيق الدكتور محمد حرب، كتاب الهـلال (٥١٧)، مطابع دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤، ص٢٦٢-٢٦٣.

(٥) محمد بن أبى السرور البكرى: النزهة الزاهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، ص١٤٤-١٤٥، ص١٥٣-١٥٤.

(٦) أحمد الدمرداشى كتخداعزبان (الأمير): كتاب الدرة المصانة فـى أخبـار الكنانة، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد العلمـى الفرنسـى للآثار الشرقية بالقاهرة١٩٨٩، ص١٤١.

(٧) نعوم شقير: أمثال العوام فى مصر والسودان والشـام، مطبعـة المعـارف بمصر ١٣١٢هـ، ص٦٢.

(٨) أحمد شلبى بن عبد الغنى: أوضح الإشارات، ص٥٤٢.

(٩) روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانيـة، الجـزء الأول، ترجمـة بشـير السباعى، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيـع، القـاهرة ١٩٩٣، ص٥٠٠-٥٠١.

(١٠) نعوم شقير: المرجع السابق، ص٩٥.

(١١) انظر بصفة خاصة حول العلاقة بين (الشعب المصرى والحكام) دراسـة إبراهيم شعلان: الشعب المصرى فى أمثاله الشعبية، الهيئة المصرية العامـة للكتاب، القاهرة١٩٧٢، ص٥٧-٦٦. ويلاحظ القارئ أن معظم هذه الأمثـال الدالة تنطلق أساساً من ظروف العصر المملوكى-العثمانى مثل (ما تفرحوش فى اللى انعزل أما تشوفوا اللى نزل)، (افرحوا واتهنوا بقدومه جاكم بشومه)،

(اللى تقول عليه موسى تلاقيه فرعون)، (اتوصوا علينا ياللى حكمتوا جديـد احنا عبيدكم وانتم علينا سيد)..الخ.

(١٢) أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، الطبعة الأولـى، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣١١هـ، ص٧.

(١٣) ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس، ص٤٨٤.

(١٤) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى، ص٥٤.

(١٥) نفس المرجع، الجزء الثالث، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(١٦) نفسه، الجزء الرابع، ص١٢٨-١٢٩.

(١٧) تمتلئ صفحات الجبرتى بتعسف ومظالم الجند الأتراك والمماليك، انظـر بصفة خاصة، الجزء الثالث من عجائـب الآثـار، صـفحات: ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٧٥، ٣٧٧، ٤٢٥ كنماذج ذات دلالة ذكرناها فى متن الدراسة.

(١٨) سيا حتنامة سى: ص٣٤٣.

(١٩) تاريخ الوزير محمد على باشا، مرجع سابق، ص٢٥٢.

- وعلى ما يبدو أن هذه الصورة التاريخية عن الضرب بالكربـاج والتـى جعلت الدكتور هيكل يكتب فى مذكراته "فكثيراً ما حـدثنا آباؤنـا وأجـدادنا وحدثتنا أمهاتنا وجداتنا عن حكم أولئك النفر الذين كانوا يزدرون المصريين أشد الازدراء ويحقرونهم أشد التحقير ويضربونهم بالسياط لسبب ولغير سبب وهذا هو ما يعبر عنه المثل العامى (آخر خدمة الغز علقة) والغز هم الغـزاة الأتراك والجراكسة ومن إليهم ". راجع: (محمد حسين هيكل(د): مذكرات فى السياسة المصرية، الجزء الأول مكتبة النهضة المصـرية، القـاهرة ١٩٥١، ص٢٠). وهذه الصورة كذلك هى التى جعلت أحمد أمين عند حديثـه عـن الأتراك يركز على مدى ما لقاه أهل مصر من تعسف وترفع واحتقار منهم لم يلقوا مثله فى أى عصر آخر (راجع أحمد أمين: قاموس العـادات والتقاليـد والتعابير، مادة (الأتراك) ص٢٣-٢٤، و(التعذيب) ص ١٢١-١٢٢) وفـى

عام ١٩٦٨ كتب الشاعر أحمد فؤاد نجم (الشركسى):

ياشركسى يابو بندقية

لا دين لا ذمة

لا إنسانية

كرباج فى إيدك

والناس عبيدك

والفردة حتى ع الجلابية

راجع: (أحمد فؤاد نجم: بلدى وحبيبتى، قصائد من المعتقل، الطبعة الثانيـة، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٩، ص٩٧).

(٢٠) أحمد شلبى بن عبد الغنى: أوضح الإشارات، مرجع سابق، ص٤٨٨.

الفصل الخامس

أوضاع اقتصادية لنمو الجماعات الهامشية.. الفقر والإفقار والغلاء والوباء

يرتبط نمو هذه الفئات الكثيرة بطبيعة الأحوال الاقتصادية التى ساءت آنذاك والتى انفرد بعض المؤرخين بإظهار خصائصها وآليات نموها. وعلى وجه أخص دراسات أندريه ريمون عن تجار وأصحاب الحرف فى مصر العثمانية، وعبد الرحيم عبد الرحمن عن الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، ونيللى حنا عن بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وناصر إبراهيم عن المجاعات والأوبئة فى مصر فى القرن السابع عشر. مثل هذه الدراسات مع غيرها استكملت إلى حد بعيد إعطاء ملامح لطبيعة هذا التطور الاقتصادى-الاجتماعى. وإذا كان المجال لا يسمح بإعادة إنتاج بعض نتائج ووقائع الدراسات التاريخية عن مصر العثمانية فالأمر الذى يرتبط بطبيعة هذه الدراسة ويستحق التركيز عليه هو: كيف كان نمو هذه الجماعات الهامشية المرتبطة بأعمال السلب والنهب "اللصوصية" على وجه خاص مرتبطاً إلى حد بعيد بطبيعة التطورات الاقتصادية آنذاك؟.

فى تلك الأزمنة لما تكن عمليات السلب والنهب قاصرة على مناطق الجذب والثراء مثل الأسواق والدكاكين والخانات وبيوت الأمراء والحواصل المليئة بالغلال وسفن الملاحة البحرية "لصوص البحر" بل امتدت هذه الأعمال فى بعض الأحيان إلى بيوت أولاد الناس "المساتير" وإلى الفقراء فى أحيان أخرى حيث تكاثر اللصوص يسرقون الأحياء والأموات، يذكر أحد الرحالة الأتراك لمصر القرن السابع عشر "فى مصر كثير من لصوص المقابر الذين يسرقون الأكفان حتى أنه فى عهد جان بولاد زاده حسين باشا وضع بعض لصوص المقابر على الخازوق فى ميدان الروملى وخنقوا بالأكفان التى سرقوها".[١]

ارتبط نمو هذه الجماعات الهامشية التى مثلت المرتبة الدنيا "السفلى" فى

البناء الاجتماعى بتزايد جماعات "الفلاكة" الـذين يجمعهـم الفقـر والبطالـة والإحساس الحاد به وعجزهم عن التوصل إلى نصيب عادل من وسائل العيش. أقام بعضهم فى الأطراف لبعدها النسبى عن مركز الإدارة والحكم ولأن "البعـد عن الحاكم غنيمة" الأمر الذى كان يكفل لهم الكر والفر. وقد لجأ بعض هـؤلاء إلى العنف والتمرد والخروج على ما هو سائد من أجل تـأمين الحـد الأدنـى للمعيشة. لجأ بعضهم إلى الاستجداء والتسول وتعددت السبل فى الوصول إلـى غاياتهم وانضم بعضهم إلى جيش الحرافيش الذى كان يتخذ من السؤال صـنعة وحرفة.

هذه الجماعة من "الفلاكة- المفلكون- المفاليك" "[٢]" هم الذين وصفهم الفقيه الشافعى أحمد بن على الدلجى "والذى توفى عام ١٧٩٥" بأنهم الذين أصـابهم الإهمال والحرمان، وهم الذين زوى الله عنهم الدنيا "ولغوياً المفلوك مشتق مـن الفلك ومعناه على سبيل التجاوز – أنه ذلك الذى يعارض الفلـك فـى مـراده" والرجل المفلوك هو "الغير محظوظ المهمل فى الدنيا لاملاقه وفقـره" أو ذلـك الذى لا يحصل على مقصوده إلا "بقدرة غيره". ومعنى ذلك بكـل بسـاطة أن المفلوك هو المهمل الهامشى بسبب فقره وافتقاره، أو قـل هـو الصـعلوك أى الرجل الفقير، وتصعلك بمعنى افتقر وهو الذى تقول فيه زعلوك ويضرب بـه المثل "تروح فين يا زعلوك بين الملوك". "[٣]"

ولأن "فقر المرء فى وطنه غربة" فقد أصبح بعض هؤلاء الفقراء يطلـق عليهم بنو غبراء أى على حد قول الزبيدى "المحاويج وهم الصعاليك"، "[٤]" وكما يؤكد الزبيدى أن "المغبرة" هم قوم يغبرون أى يذكرون الله عز وجـل بـدعاء وتضرع يهللون ويرددون الصوت بالقراءة وغيرها:

عبـادك المغبـرة

رش علينا المغفرة

ويرى أحمد أمين فى قاموسه الشهير "سمت العرب "اللاص" ابن الطريق أو ابن الغبراء لاتصاله بالطريق اتصال الابن بأبيه" "[٥]".

انتشر هؤلاء فى كل مكان بحثاً عن الرزق من أى عمـل لأن أغلـبهم لا

عمل له، أصبحوا "سريحة" يسرحون لالتقاط رزقهم الذى يحب الخفية يجـرون جرى الوحوش عملاً بالمأثور المتداول "أجرى يا بن آدم جرى الوحوش غيـر رزقك ما تحوش". أصبح البعض منهم "فواعلية" و"أجرية"، حمـالين، باعـة، عمال نظافة بما فيهم الزبالين الذين يحملون القمامة إلى المستوقد، مجاذيب مـن نساء ورجال يعيشون على أبواب المساجد الكبيرة يجدون طعامهم اليومى فيمـا يقدم من نذور توزع على هؤلاء وغيرهم من الفقـراء المتصـوفة والشـحاتين والمجاذيب. وإذا كان الشيخ عبدالوهاب الشعرانى قد نسب هؤلاء المجاذيب إلى التصوف فالمؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى وغيره حمل عليهم بشـدة، وقـد ذكر على مبارك فى إحدى أجزاء خططه أن بعض الناس كانوا يرسـلون إلـى مسجد الحسين ومسجد السيدة زينب سحارات كبيرة مملوءة بالخبز وفول النابت الذى يوضع داخل كل رغيف ويوزع على هؤلاء الفقراء والذين كان منهم طائفة العميان حيث كان لهم شيخ "شيخ العميان"، بل فى جانب الأزهر زاوية تسـمى "زاوية العميان" ينتسب إليها عميان الأزهر.

ومن المتعارف عليه تاريخياً أن أعداداً كبيرة من الشحاتين انتشـرت فـى العصر المملوكى – العثمانى انتشاراً كبيراً على أشكال وألوان خاصـة هـؤلاء الذين تواجدوا بجوار أبواب الأولياء والمساجد"[٦]".

فى العصر العثمانى كانت "طايفة الشحاتين"[٧]" إحدى الطوائف التى كـان لها وزنها الكمى والكيفى "الاعتبارى". كان عدد أفرادها فـى تزايـد مسـتمر ولتبيان هذا الوزن نستعرض فى عجالة هذه اللقطات ذات الدلالة التاريخية :

- فى أحداث عام ١٦٩٣، وعندما طلب السلطان أحمد خان "١٦٩٣-١٦٩٥" ألفين عسكرى من مصر يتوجهون إلى كريت كان سر عسكرهم إبراهيم بك أبو شنب وعندما بدأ السفر ومعه ألف نفر وتجهزت الحملـة كـان "شـيخ الشحاتين فى ركابه مع طايفته وهم يصرخوا ويقولوا "الله يردك علينا يا بيك سالم لأنك أبو الفقراء" لأنه كان يعرفهم بالواحد، ولما عاد فـى أغسـطس ١٦٩٣ "أخذت الشحاتين خبر، جمعوا من بعضهم أربع وعشرين ألف نصف فضة، اشتروا بها حصان بعبأ مزركش وسرج مغـرق ورشـمة ورخـت وغدارة ودبوس وركاب مطلى، لما طلع الحلى ونزل على السماط قدموا له

تلك الحصان المرخت فقبله منهم وقطع لهم وصول بثلاثين ألف فضـة"،"[٨] وكانوا ينادون "يا أبا الفقراء ما أحد افتكرنا وأنت غايب أبداً "ثم إن إبـراهيم بك أعطى لشيخ الشحاتين جوخه، ولنقيبهم جوخة ولكل فقير جبـة وطاقيـة وشداً، ولكل امرأة قميصاً وملاية فيومية تتزر بها وأغدق علـيهم إغـداقات زائدة وعمل لهم سماطاً ولم يركب إلا الجواد الذى أهداه لـه الفقـراء"،"[٩] وعند الصباح ركب حصان الشحاتين وطلع عند الباشا "على باشا ١٦٩٢-١٦٩٥" خلع عليه قفطان السلامة.

- فى أغسطس ١٦٩٥ "منتصف المحرم سنة ١١٠٧هـ" "اجتمعـت الفقـراء والشحاتين من النساء والرجال والصبيان وطلعـوا إلـى حـوش الـديوان وصاحوا ونادوا متنا من الجوع وشدة الغلا فلم يرد عليهم أحد جواباً فأخذوا الحجارة ورجموا جميع من كان فى الديوان، نزلوا الرميلة ونهبوا الغلال من قمح وفول وشعير ونهبوا حاصل كتخدا الوزير". ويضيف أحمد شلبى بـن عبد الغنى عند قدوم إسماعيل باشا الوزير "١٦٩٥-١٦٩٧" "عنـدما سـأل عن أحوال مصر وعن سبب قيام الرعايا فى وجهـه وعيـاطهم وغوشـهم فأخبروه بما هم فيه من الغلاء والكرب الشديد وكثرة الشحاتين التى امتلأت مصر منهم لأن جميع الأرض التى لم تكن رويت جاء فقراؤها إلى مصـر" وعندما "أتت خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله تعالى" "جمعهم ووزعهم على الصناجق والملتزمين بمصر، كل إنسان على قدر حاله وأخذ لنفسه ولأعيان دولته ألف نفس"."[١٠]

هذا هو الفصل الذى أطلقت عليه ثلاثة أسماء "فصل الشـحاتين"، "فصـل الهبا"، "فصل الشراقى الكبير"، هو الفصل الذى أطلق فيه إسماعيل باشا "النـدا بمصر إلى ساير الشحاتين بأن يتجمعوا فى قراميدان فأتى منهم خلق كثيرة، فلما نظر إليهم أمر بتفريقهم على صناجيق مصر"."[١١]

وقد تكررت هذه الصورة قبل ذلك فى عصر دولة المماليك، ففى فتـرات المجاعة والغلاء كان الحاكم والأمراء يجمعون هؤلاء علـى كثـرتهم ويتولـوا الإنفاق إلى أن تزول الشدة ثم تعود "ريما لعادتها القديمة".

- فى أحداث سنة ١٦٩٦ "١١٠٨هـ" وعندما زال "الوبـا والغـلا" وبقيـت

الناس فى "رخا وخير" صار إسماعيل باشا يصطبح بالزغاريـت والنـوب التركى عاد وشرع فى عمل طهور أولاده، أتى "الحواة والقريداتية والخيال والأدبا والمحنبزين فى حوش الديوان" واستمرت الاحتفالات خمس عشـرة ليلة "لا أكابر ولا أصاغر"[١٢] كما يقول أحمد الدمرداشى، كـان أول يـوم قاضى عسكر وثانى يوم العلماء كمالاً والمدرسين والطلبة وثالث يوم نقيـب الأشراف ورابع يوم أرباب السجاجيد والحرف وفى اليوم الرابع عشر كـان يوم **العمى** بالجامع الأزهر **والشـحاتين** واليوم الخامس عشر سماط **للعمـى** وسماط **للفقراء** فى حوش الديوان.

- فى أحداث نوفمبر ١٨٠٠ "جمادى الثانية ١٢١٥هـ" وفى عهـد الحملـة الفرنسية يذكر الجبرتى أنهم "أمروا بجمع الشحاتين أى السؤال بمكان وينفق عليهم نظار الأوقاف".[١٣]

ويذكر الطهطاوى "أنه لما تغلبت الفرنساوية على الديار المصرية لمحوا أن بها كثيراً من الكسالى القادرين على الاشتغال الذين يؤثرون السؤال عن الأعمال ويلحون فى الطلب فنشر حاكمهم قانوناً جاء فيه:[١٤]

البند الأول: جميع الناس الذين يسألون الناس فى الطريق ويطلبون الحسنة منهم يصير القبض عليهم وحضورهم أمام ضابط مصر ثم يتوجهون إلى سجن القلعة ما لم يكونوا من أصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن الاشتغال.

البند الثانى: كل ملة من الإسلام والنصارى من أروام وقبط وشوام ومن اليهود أيضاً تعمل من الآن فصاعداً حانوتاً لقبول كافة العميان والعرجان والشـحاذين العاجزين عن الشغل يكون معداً لهم".

- فى عهد محمد على عانى العامة والفقراء على وجه الخصوص بؤساً شديداً من جراء نظام الاحتكار "وكثر الشحاذون الذين شكا منهم أمثـال جسـكيه Guisquet وغيره ممن زاروا مصر من الأجانب فى هذا الوقت"[١٤٤] لذلك فقد أصدر محمد على باشا أمراً منه إلى مختار بك فـى ٢٩ محـرم سـنة ١٢٥٢هـ بعدم "تحصيل فردة من طايفة الشـحاتين والحانوتيـة والنسـاء الجارى استكراهن بالنقدية للبكاء خلف الجنازات تصنعاً بواسطة وضع ماء

البصل فى العينين". "[١٦]

وكان الباشا قد أصدر أمره "بما أنه تحرر إلى مأمور ديوان خديوى بعمـل وترتيب الكساوى واللوازمات المقتضـية لطايفـة الشـحاتين وإرسـالهم إلـى المارستان وإقعادهم بالمحل المشهور من المارستان لعدم مـرورهم بالأسـواق والأزقة ولهذا يلزم إخطاره بعد العلم بما ذكر يرسل من يوجد مـنهم بالأزقـة والأسواق إلى المحل المذكور كسابقة صدور النطق الشفاهى إليه". "[١٧]

وقد تضمن "قانون المنتخبات" عدة مواد خاصة بالشحاتين الفقراء: "[١٨]

"**م١٩١**": أن البلاد التى يكون فيها محلات معدة للفقراء لأجل تعيشـهم وعـدم تحملهم الضرورة إذا وجد بهم أحد يسأل فيضبط ويرسل إلى محـل الفقـر ولا يؤذن فى الخروج منه بأى وجه من الوجوه مدة ثلاثة أشهر ويعامل حينئذ مثـل المحبوس.

"**م١٩٢**": إذا وجد أحد من الأشخاص الذين يسألون فى البلاد التى لـيس بهـا محلات للفقراء ويكونوا قد اتخذوا السؤال عادة مـع كـونهم أصـحاء الجسـم وقادرين على أن يشتغلوا ويتعيشوا من شغلهم فإن مثل هؤلاء يجازون بتشغيلهم فى الأبنية الميرية التى بالمديرية أو بالمحروسة بمدة من شهر واحد إلى ثلاثـة أشهر وهكذا الذين يضبطون وهم يسألون فى محلات خارجة عن القريـة التـى يكون محل إقامتهم فيها فيجرى تشغيلهم فى الأبنية المذكورة ستة أشهر جـزاء لهم".

وكان مجلس المشورة قد قرر قبل ذلـك فـى ٢ جمـادى الأولـى سـنة ١٤٢٥هـ "ألا يترك أولاد الشحاذون عالة على الناس فيؤخـذ الصـالح مـنهم وهؤلاء يرتب لهم أقوات فيعطى الكبير منهم ٢٥ فضـة وللصـغير ٢٠فضـة وللأصغر ١٥ وبعد اكتسابهم الصنعة يرتب لهم الأجر اليومية". "[١٩]

أن تزايد ونمو الجماعات الهامشية التى تعتمد على التسـول والاسـتجداء أحياناً وفى أحيان أخرى أعمال اللصوصية والسرقة والنهب وبصفة خاصة فـى العصر المملوكى العثمانى يعود فى أحد أسبابه إلى عوامل القهر والإذلال التـى أدت إلى بؤس أحوال الفلاحين وإلى التدهور التدريجى لقطاعـات مـن أهـل

الحرف والصنائع وفى لحظات "الغلاء والبلاء" أو بمعنى أصح فى أوقات الأزمات الاقتصادية الناشئة لأسباب عديدة وتوالى سنوات الأوبئة والمجاعات، تزايدت تحركات الفلاحين أساساً بحثاً وراء الرزق، طفشوا وهجوا مع توالى الفرد والمظالم والكلف والأعباء المالية والعينية التى تزايدت عليهم خاصة وقد اشتهر بينهم المثل الذى عم "مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم" كل منهم "من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليله فلا يعود إلى بلده قط ويترك أهله ووطنه من هم المال وضيق المعيشة كما قال بعضهم:"[20]

قالت تسافر يا فتى	وتفارق الوجه الحسن
فأجبتها بتذلل	والقلب يعلوه الشجن
هم المعيشة فرقت	بين الأحبة والوطن

هذا التسحب هو الصورة القديمة الممتدة طوال سنوات التاريخ المصرى تزايدت فى العصر العثمانى، يقول مؤرخ مجهول "يذكر أن غالب أهل القرى والبلاد تركوا بلادهم وأتوا إلى مصر المحروسة، لكن إقليم البهنسا والفيوم امتلأت منهم مصر المحروسة أكثر من سائر الأقاليم حتى جميع أزقة مصر المحروسة وحاراتها وأسواقها صارت ملانة من الشحاتين".[21]

هى صورة متكررة وردت فى كتابات المؤرخين للأحداث، ذكرها الجبرتى مثلاً فى أكثر من موضع، فعند حديثه عن أحداث عام ١٧٩٢: "استهل المحرم ١٢٠٧هـ بيوم الخميس، والأمر فى شدة من الغلاء وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملئوا الأسواق والأزقة رجالاً ونساء وأطفالاً يبكون ويصيحون ليلاً ونهاراً من الجوع، ويموت من الناس فى كل يوم جملة كثيرة من الجوع".[22]

وإذا كنا قد رأينا أنهم أطلقوا على بعض الفصول مسميات مثل "فصل الشحاتين"، "فصل الشراقى"، "فصل الهبا" فى عام واحد وهو لم يحدث من قبل فقد هربوا من السخرة وسموا سنة من السنين كثر فيها الظلم بعد ذلك "بسنة الطفشة" [23] وكانوا يؤرخون بها.

كثرة الشحاتين ككثرة اللصوص ارتبطت بالغلاء والكرب الشديد وكثرة

المظالم والتعدى من قبل بعض أجهزة الإدارة ومن كان يواليها، كما حدث فـى عام ١٢٠٥هـ عندما ثار العامة وأصحاب الطوائـف والعلمـاء لأن صـاحب الشرطة أحمد أغا أكثر من المظالم والتعدى ونهب البيوت. وكما حدث فى عـام ١٢٠٩هـ عندما تكاثرت مظالم المماليك وخرج هؤلاء يطالبون بالعدل ورفـع الظلم والجور وإقامة الشرع.

هذا هو العصر الذى تزايدت فيه تحركات الجياع حتى أن بعض المؤرخين ربط بين هذه التحركات وعدم وجود الخبز، على نحو ما ذكر أحمد شلبى فـى كتابه عن عهد مصطفى باشا البستنجى "١٦٤٠-١٦٤٢": "وفى أيامـه كثـرت المناسر لكونهم لم يجدوا الخبز ودخلت اللصوص إلى الأسواق وصاروا يأخذون فى كل ليلة محلات، دخلوا إلى سوق ابن طولون وأخذوا ثمانية وأربعين دكانـاً فى ليلة واحدة من سوق المغاربة"،"[٢٤]" وقد استمر اللصوص فى الهجوم علـى الأسواق وأخذهم الدكاكين خاصة وأن الوالى كان يأخذ بلصـته مـنهم ويطلـق سراح اللصوص بعد أن أخذ من الباشا أوامر باستتابة هؤلاء.

والراصد لتحركات هؤلاء الجياع يجد أنها تزايدت وبالتـالى فقـد تزايـد التسول واللصوصية. ويرصد بعض علماء الحملة الفرنسية هذه الظاهرة، فيكتب أحدهم: "وقد لا يدرك الغريب الذى لا يعرف عادات الـبلاد أن هـؤلاء الـذين يتسولون بهذا الإلحاح، يدفعون إيجار أراضى عديدة يفلحونها وأنهـم يمتلكـون ماشية وحميراً وخيولاً وأنهم يعولون عائلة كبيرة العدد" ويضيف أن الفـلاح "لا يلجأ إلى التسول المظهرى إلا ليخدم مضطهديه، فمن المهم بالنسبة له أن يظنـه الناس بلا مورد رزق وبلا وسيلة للعيش"."[٢٥]"

ورغم ما حل بهؤلاء من مظالم، فقد مالوا إلى التهكم والسخرية والهجـاء ودعوا على الحكام الظالمين من فوق المنابر. وأثناء زيارة إدوارد ولـيم لـين الأولى لمصر سمع أغنية ألفت لزيادة ضريبة الفردة وكانت تبدأ هكذا:

"ياللى عندك لبده، بعها وادفع الفردة"."[٢٦]"

هوامش وإحالات الفصل الخامس

(١) أوليا جلبى: سيا حتنامة سى، ص٥٢٤.

(٢) يعود الفضل إلى الأستاذة الدكتورة زينب الخضيرى فى تبيان أهمية دراسة هؤلاء اعتماداً على (أحمد بن على الدلجى: الفلاكـة والمفلكـون: مطبعـة الشعب، مصر سنة ١٣٢٢هـ) راجع دراستها: (الفقر فـى كتـاب الفلاكـة والمفلكون للدلجى)، أعمال الندوة السنوية السادسة، قسـم الاجتمـاع، كليـة الآداب، جامعة القاهرة (الفقر فى مصر) مطبعـة جامعـة القـاهرة ١٩٩٩، ص٦٥-٧٤).

(٣) محمد بن أبى السرور البكرى: القول المقتضب، مرجع سـابق، ص١٣١. وانظر كذلك أحمد تيمور باشا: الكنايات العامية، الشـركة الشـرقية للنشـر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠، ص١٥٣.

(٤) محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس، الجـزء الثالـث عشـر، ص١٩١، ص١٩٤-١٩٥. ويرى الزبيدى أن البعض أطلق علـيهم (المغبـرة) لأنهـم يرغبون الناس فى (الغابرة) أى الباقية الآخرة ويزهدونهم فى الفانيـة وهـى الدنيا.

(٥) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص٤.

ويرى أحمد أمين أن (حرام) كانت قبيلة مشهورة بالشدة والبأس ويظهر أن قبيلة (سعد) انتصرت عليها، فتدنى (حرام) حتى كان من نسبه لصوص وسـمى اللص حرامياً أو قيل لكل لص (حرامـى). "انظـر نفـس المرجـع، ص٨٧، ص١٦١".

(٦) أصبحت الشحاذة مضرب الأمثال فى مصر (أبوه فلان وأمه فلانة ودايـر يشحت وطيظه عريانه)، (إذا ابتليت بالشحاته، عليك بالباب العالى- إذا بليت بالشحاتة دق الأبواب الكبار). "راجع: فايقة حسين راغب: حـدائق الأمثـال العامية، السفر الأول، الطبعة الأولى، مطبعة أمين عبد الـرحمن، القـاهرة ١٩٣٩، ص٦٢، ص١٤٧" أو (علمناه الشحاتة سبقنا على الأبواب)، (شحات على شحات امتلأت مخلاته). "راجع: جون لـويس بوركهـارت: العـادات

والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على، الهيئة المصـرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩، ص٤٠،١٢٨،١٥٤).

واشتهر شحاذو السيدة زينب والسيد البدوى بالإلحاح فـى الطلـب حتـى ضرب بهم المثل فيقولون إذا رأوا ملحاً "زى شحاتين السيدة أو شحاتين السـيد" ويتحدث يحى حقى فى رائعته (قنديل أم هاشم) الطبعة الثالثـة، دار المعـارف بمصر، سلسلة اقرأ(١٨)، ص١٢، عن شحاتين السيدة خليط من رجال ونسـاء وأطفال "ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى كنفها هنا (مدرسة الشحاتين) حامل كيس اللقم، يثقل الحمل ظهره ينادى: لقمة واحدة لله يا فـاعلين الثـواب، جاعان، والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عاريـة: "يـا للـى تكسى الولية يا مسلم ربنا ما يفضح لك ولية".

(٧) عن هذه الطائفة راجع:عبد الرحيم عبد الرحمن(د): فصول من تاريخ مصر الاقتصادى و الاجتماعى فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠،ص ٢٩٧.

(٨) أحمد الدمرداشى: كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، ص١٦.

(٩) أحمد شلبى بن عبد الغنى: أوضح الإشارات، ص ١٨٨.

(١٠) نفس المرجع، ص١٩٣، ص١٩٧.

(١١) مجهول "زبدة اختصار تاريخ مصـر المحروسـة، مخطـوط بـالمتحف البريطانى رقم M.I.N.٩٩٧٢ (مسودة المذنب العبد الحقير على بن رضوان، شعر الحاج مصطفى الحلبى)، ص٣٠.

(١٢) أحمد الدمرداشى: المرجع السابق، ص٣١-٣٢.

(١٣) عبد الرحمن الجبرتى: المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٢٢٦.

(١٤) رفاعة بك رافع: مناهج الألباب المصرية فى مبـاهج الآداب العصـرية، الطبعة الثانية، شركة الرغائب بمصر ١٩١٢، ص٤٨.

(١٥) محمد فؤاد شكرى(د): بناء دولة مصر محمد على، الطبعة الأولـى، دار الفكر العربى، مطبعة لجنة التأليف والترجمـة والنشـر، القـاهرة ١٩٤٨،

ص٥٠.

- انظر على سبيل المثال وصف إدوارد وليم لين لجماعات التسول فى القاهرة، (المصريون المحدثون، مرجع سابق، ص ٢٤٢-٢٤٣).

(١٦) انظر: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علـى باشـا، الجزء الثانى، ص١١٢.

-لعبت المعددة (النائحة-النادبة) دوراً هاماً فى الحياة الاجتماعية فى مصر منـذ القدم كانت تستدعى فى المآتم وهى تستفسر أولاً عن الميت، ومن هو، وعلى أى حال كان، وما فضائله ومزاياه وتصوغ من كل ذلك كلاماً فى تعديـدها يثيـر كوامن النفوس ولها لسان فصيح وقدرة تامة على البكاء ولها طرائق فى التعديد تستخدم اللطم والضرب بالدف والنيلة والتى يصبغن بها المعـددات وجـوههن (انظر: أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعـابير المصـرية، ص٣٧٣) وأثناء المواكب الجنائزية كانت تخرج مع غيرها من الندابات وبقية النساء فـى مواكب جنائزية، وحين أصدر مصطفى باشا (١٦٢٣-١٦٢٦) أمراً بمنعهن من الخروج وارتداء ملابس الحداد السوداء أطلق المصريون على هـذا الطـاعون "الفصل الساكت" (انظر: ناصر إبراهيم: المجاعات والأوبئة فى مصر فى القرن السابع عشر، رسالة ماجستير فى التاريخ الحديث، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٧، ص٣٦ (نقلاً عن محمد بن أبى السرور البكرى).

وإذا كان التعديد خاص بالنساء فى مصر فقد عد من الغرائب "أنهـم أحضـروا مرة بين النساء فى مصر رجلاً من المخنثين المسمين بالغياش والخولات فنـاح مرة فى مأتم عند الأسافل (راجع أحمد تيمور باشا: معجم تيمـور الكبيـر فـى الألفاظ العامية، الجزء الثانى، ص٣٨٨).

(١٧) أمر منه إلى ضابط مصر فى ٢٨ رمضان سنة ١٢٥٠هـ، مجموعـة الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علـى باشـا، الجـزء الأول، ص٥١٣.

(١٨) انظر: المادة المنشورة من الجمعية الحقانية فى تاسع شهر شـعبان سـنة ١٢٦٠هـ فى كتاب أحمد فتحى زغلول بك: المحاماة، مطبعـة المعـارف

بمصر ١٩٠٠، ص١٤٩.

(١٩) أمين سامى باشا: تقويم النيل وعصر محمد على باشا، الجـزء الثـانى، ص٣٥٦.

(٢٠) يوسف بن محمد الشربينى: هز القحوف فى شرح قصيد أبـى شـادوف، الطبعة الثانية، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية سـنة ١٣٠٨هـ ـ، ص١٢٠.

(٢١) زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة (مخطوط)، ص٣٠.

وحول عوامل هجر الفلاحين لقراهم نتيجة المظالم التى يتعرضون لها من رجال الإدارة، راجع: عبد الرحيم عبد الرحمن(د): الريف المصرى فى القـرن الثامن عشر، الطبعة الثانية، مكتبة مـدبولى ١٩٨٦، ص١٦٥-١٦٨، وحـول ارتباط اختلال الأمن وشيوع الجريمة وكثرة المناسر لكونهم لم يجدوا الخبز وأن عمليات النهب والسطو كانت موجهه أساساً إلى التجـار وأصـحاب الحوانيـت وبعض العسكر والأثرياء والعلماء، راجع: ناصر إبراهيم: المجاعات والأوبئـة فى مصر فى القرن السابع عشر، ص١٦٠-١٦٢.

(٢٢) عبد الرحمن الجبرتى: المرجع السابق، الجزء الثانى، ص٣٦١.

يتحدث الجبرتى كذلك فى أحداث مايو ١٨٠٤ وبسبب العمليات العسـكرية بين العسكر والمماليك والعربان الأمر الذى أدى إلى إخلاء القرى وخروج أهلها إلى مصر، لم يجدوا مأوى ونزل الكثير منهم بالرميلة بعد أن أصبح عدداً كبيراً من القرى خاوياً بسبب (الشراقى والظلم) وبسبب ما فرض عليهم مـن مغـارم وكلف وفرد.

(٢٣) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص٢٣٠.

(٢٤) أوضح الإشارات، ص١٤٨-١٤٩.

(٢٥) علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر (١)، دراسة شابرويل عن "عـادات وتقاليد سكان مصر المحدثين" ترجمة زهير الشايب، الطبعة الثانيـة، مكتبـة مدبولى، القاهرة ١٩٨٩، ص٢٦٠.

(٢٦) المصريون المحدثون، مرجع سابق، ص٢٢٧.

الفصل السادس

أوضاع اجتماعية لنمو الجماعات الهامشية

تزايد أرباب الملاهى والمغانى

ثمة علاقة جدلية بين نمو هذه الجماعات الهامشية خاصة تلك التى تعتمد على اللصوصية والتلصص وبين بعض طوائف أرباب الحرف. وهذه العلاقة متداخلة متفاعلة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان. نجدها تسير فى أكثر من اتجاه. بعض هذه الجماعات كونت أساساً طائفة لها ولكل طائفة رئيسها مثل طائفة النشالين، وطائفة المناسر، حيث أصبح هناك شيخ للنشالين وشيخ منسر. وارتبطت كل طائفة بحرفة وصنعة حتى أطلق على اللص "ابن كار" أى ابن صنعة والذى لا شك فيه أن كل طائفة كانت تتفنن وتتحايل فى عملها وأصبحت "الحرفنة" تعبر عن المهارات التى اكتسبتها من عملها.

ويلاحظ كذلك أن ثمة تأثيرات من الفتوة والفروسية بل ومن الصوفية فى بعض الأحيان قد علقت بجماعات منهم، فقد يكون أصلهم من الحرافيش والفقراء أو من طائفة الشحاتين التى أصابها ما يشبه التقنين والاعتراف بها من جانب الدولة حتى عصر محمد على. إن تكاثر أعداد الزوايا والطرق الصوفية فى العصر المملوكى العثمانى يعود فى إحدى جوانبه إلى ذلك الرزق شبه الثابت والثابت فى أحيان أخرى والذى أكثر منه المماليك والعثمانيين تشجيعاً لحياة التصوف.

والمتصفح لرسالة الدكتور محمد علاء الدين منصور عن "جماعات الفتوة فى الأناضول فى العصرين السلجوقى والعثمانى فى مصادرها الفارسية"[١] يدرك أن الدولة العثمانية قامت بمساعدة جماعات "الفتوة" وبعد أن أخذت الدولة فى الضعف العسكرى منذ أواخر القرن السادس عشر تركزت على طوائف أرباب الحرف ونقاباتهم فانتشرت تقاليدهم أكثر من ذى قبل فى البلاد التى خضعت للعثمانيين "مقدمة: صفحة ج".

والذين كتبوا فى آداب الفتوة ربطوها بأرباب الحرف من المداحين والسقائين والفراشين والمصارعين والحمالين واللاعبين على الحبال والحواة وغيرهم على نحو ما خصص الحسين الواعظ "ت٩١٠هـ" الحديث فى بابه السادس من كتابه "فتوتنامة سلطانى" "المقدمة: صفحة ن-س" والذى كتبه بالفارسية. وعلى نحو ما فعل الغيبى فى كتابه فتوتنامة والذى كتبه بالتركية "صفحة س-ع" حوالى عام ٨٧٦هـ. أو ما فعله سيد محمد بن سيد علاء الدين الرضوى "مؤلف ٩٣١هـ" فى مفتاح الدقائق فى بيان الفتوة والحقائق بالتركية.

أرباب الحرف العوام فى مصر تناولوا ترجمة الرضوى الأصلية أو الترجمات بالتحريف فغيروا من المضمون وأحالوا الفصحى عامية خاصة فى "كتاب الفتوة" "صفحة ع".

الدارس لقيام الدولة العثمانية يرى مدى الارتباط بين الصوفية التركية وطوائف الحرف من جهة وبحركة الأخيان والفتوة من جهة أخرى. بل ويرى كذلك مدى ارتباطها بحركة شعبية كانت سندها الأكبر فى الفتوحات الأولى. عكست فى بعض الأحيان التناقض الاقتصادى بين الطوائف الحرفية وبين التجار. عبرت عن العداء لطبقة المتعاملين بالمال وللعقلية المرتبطة بالثروة، عكست الطوائف الأخوية الدينية "الملامتية-البيرقية" هذه المصالح والمشاعر الشعبية. وهذه الحركات كانت ذات جذور قديمة فى المجتمع الإسلامى "الفتوة" تبنت فلسفة اجتماعية أقرب إلى التمرد والثورة. دعت إلى المساواة. نظمت أفرادها فى تنظيمات سرية لها طقوس خاصة. وبمعنى أصح فإن هذه الحركات الصوفية السنية "الفتوة" كانت ذات أصول طائفية حرفية. ويلاحظ أحد الباحثين أن "المبادئ الأخلاقية لهذه الطوائف قامت على بعض الأسس الدينية – الصوفية وعلى تقاليد البطولة "الفروسية-الفتوة". كانت لها تنظيمات وتشكيلات قوية "على نحو ما حدث فى الأناضول من نشأة جماعات الإخوان أو الأجواد "أخيلى" التى ضمت طبقات اجتماعية مختلفة من رجالات الدولة والمشايخ والعلماء وأرباب الحرف ومنهم الحرافيش ومن لا عمل لهم"."[٢]

يقف المؤرخ متسائلاً حول دلالة السطر الأخير من الفقرة السابقة والتى تتضمن "ومنهم الحرافيش ومن لا عمل لهم":

هل كان من لا عمل لهم يضم الشحاتين والشطار والزعار والعصب والعيارين وغيرهم ممن وصفوا فى بعض الأدبيات التاريخية بأنهم من أسافل وأراذل الناس وأنهم من الأوباش والأوغاش إلى غير ذلك من الصفات التى علقت بهم؟

وهل هذا يفسر دلالة الفقرة العلمية التى ذكرها الباحث الفرنسى الشهير أندريه ريمون عندما تحدث عن أحياء القاهرة الشعبية فى القرن الثامن عشر والحركات الجماهيرية التى قامت فيها عن الأحياء والروح الجماعية. عن ترابط العوام بالزعار والشطار بالحرافيش واعتبر أن هذه الجماعات من الغوغاء "آخر تناسخ للفتوة التى بقيت على خريطة الحى عن طريق الاستعراض ومن تلاحم الروابط الحرفية بالتطلعات الدينية"؟"[٣]"

يبقى الأمر الذى أوضحنا بعض معالمه فى حديثنا السابق عن جماعات الفتوة "المشاديد – الجدعان" وهو ارتباط هؤلاء ببعض فضائل الشهامة والمروءة التى تمثل أهم قواعد السلوك عندهم، فهم يرعون الجار "الحرامى الشاطر ما يسرق من حارته"("[٣]") وقد يكون ذلك خوفاً من افتضاح أمره وسط جماعته فيجد نفسه مضطراً إلى الانفلات منهم بعد أن يشهر به ويجرس، ويعينون الضعيف ويغيثون الملهوف ويصدرون فيما بينهم عن تكافل اجتماعى أصيل فى رعايتهم لمن يتوفاه الله منهم وتعهدهم المستمر لعائلته وأولاده. وقد رأينا على سبيل المثال فى سيرة على الزيبق والذى غدا "مقدم درك مصر وقائد وجاق الزعر" كيف كان الناس يهابونه بعد أن "صار ينصف المظلوم ويأخذ لصاحب الحق حقه حتى أحبه الجميع"."[٥]"

يلاحظ كذلك أن نمو الجماعات قد ارتبط كذلك بالانهيار التدريجى لنظام الطوائف الحرفية الشهيرة والتى كانت إحدى دعائم النظام الاقتصادى- الاجتماعى الموجود، وارتبط كذلك بتعاظم دور طوائف أخرى مهمشة أسفل السلم الاجتماعى وهى جماعات مرت بتغيرات مختلفة واكتسبت ملامح مميزة ومارست أنشطة تعتمد على التسول أساساً والاستجداء وليد الحاجة وتراوح عملها فى أغلب الأحيان بين الشكل المشتت المتناثر وبين الشكل المنظم.

وقد تكاثرت مثل هذه الجماعات الهامشية وكان من بينها على سبيل المثال: المحبظين، المفذلكين، الجنبازية، الأدباتية، الغجر، الغوازى، الخلابيص، البهلونات، القرداتية، الحواة، المصارعون، لاعبو خيال الظل وعرائس القراجوز، الآلاتية، العاهرات، المبخراتية، المسحراتية، المسلكاتية، السقاءون، الشبكشية، مبيضى النحاس، الندابات، ضاربات الودع وقارئات الكف، الحوذية "الحمارة" الفعلة، الكيالة، الدلالون، الباعة الجائلون. إلى أن نجد منهم فى فترة متأخرة ماسحى الأحذية وأولاد السبارس وسنانى السكاكين.

ارتبطت معظم أنشطة هؤلاء بأشكال هامشية وليدة الحاجة. وارتبطت بعض هذه الأنشطة، ولا أقول كلها، بعمليات التحايل والسرقة والنشل فبعض الحواة والقرداتية ارتبط عملهم بالنشل ساعدهم فى ذلك وجود بيئة ملائمة مع ازدحام الناس، فقد يقوم بعملية النشل الحاوى أو القرداتى أو حتى القرد المدرب على ذلك وقد يقوم به شخص آخر.

ما أريد التركيز عليه هو:

الانحلال التدريجى لنظام الطوائف أدى فى نهاية المطاف إلى تكوين فئات من المعدمين خارجه. وحتى على الرغم من ظهور المحاولات الأولى لتنظيم الدولة الحديثة فى عهد محمد على وبعض ما جاء بعده من محاولات احتواء واستيعاب وتنظيم عمل بعض هذه الطوائف، فإنها كانت أشبه بعقد وقد انفرط حباته. ففى أواخر القرن السابع عشر قدر البعض أعداد هذه الطوائف بحوالى ٣٠٠ طائفة فى العاصمة وصلت إلى ما بين ١٠٦، ٧٢ طائفة أواخر القرن الثامن عشر، خاصة وأن الحكم العثمانى ألغى أوقافاً كان يصرف إيرادها على الطوائف من قبل وازداد عدد المعدمين وخاصة الفعلة "العمال الأجراء" إذ بلغوا حوالى ١٥ ألف فى القاهرة وفئة الخدم ومن إليهم البالغون عددهم ٣٠ألف فى نفس الفترة حسب تقدير علماء الحملة الفرنسية، وبقى كثيرون من هؤلاء خارج الطوائف لعجزهم عن دفع المبلغ المطلوب لمشايخهم أولاً وثانياً لأن الأسطوات والأساتذة جاهدوا لكى يحصروا مراتب المبتدئين بين أبنائهم وثالثاً لتحول الشياخة فى الطوائف إلى امتياز وراثى. "[٦]

مع هذا الانهيار التدريجى انضم بعض هـؤلاء إلـى جـيش الحـرافيش، الشحاتين، الزعر والشطار إلى فقراء الصوفية. ثمة علاقة أساسية بين الطـرق الصوفية التى قال عنها الشعرانى "كان التصوف حالاً فصـار كـاراً، وكـان احتساباً فصار اكتساباً" وبين الحرافيش من المعدمين والشحاتين وكـذلك بيـنهم وبين الطوائف الحرفية الأخرى فى العصر المملـوكى-العثمـانى خاصـة وأن مصر حفلت إبان ذلك العصر بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء الذين تغلغلوا فى المدن وانتشروا فى الأقاليم والقرى وكونوا ما يمكن أن يسمى بدولـة الفقـراء الذين كانوا فوق العرف وفوق القانون. "[٧]"

كانت هذه الدولة ذات نفوذ كبير عند المصريين، فمع كثرة الطرق وتعددها كثرت ألوف المريدين والأتباع من أهل العلم والأدب وأولى الحكـم والسياسـة وأصحاب الحرف وغيرهم. كان اللصوص وقطاع الطرق "ينقادون للشيوخ، بل يبادرون إلى الاتصال بهم وطلب المغفرة، على يدهم ويحتملون منهم كثيراً مـن ضروب العذاب وألوان العقاب ويسيرون فى مواكبهم فى الشوارع مقيدين فـى السلاسل والأغلال غير شاكين ولا متبرمين كان الشيخ إذا نظر فى طريقه إلـى أحد المجرمين تبعه المجرم من تلقاء نفسه مستسلماً مستغفراً". "[٨]"

بل تحول بعض اللصوص وقطاع الطرق إلى وعاظ وأصـحاب كرامـات ولدينا نموذج "ابن عروس" الذى يقال إنه عاش حـوالى سـنة ١٧٨٠ والـذى اشتهرت أزجاله وذاعت فى أنحاء البلاد. ويغلب على الظن أن هذا الاسم غلبـه عليه فى أيامه الأولى حين كان لصاً يقطع الطريق ويسطو على الآمنـين. أمـا اسمه الأصلى فلم يرد له ذكر فيما حفظه الرواة من أخباره وغاية مـا ذكـروه عنه، أنه ولد فى قرية من قرى الصعيد لأبوين فقيرين ونشـأ مـتعطلاً مهمـلاً وصار زعيماً لأخطر عصابة من اللصوص وقطاع الطرق وبلغت جرأته حـداً أخاف الأهالى والحكام وبلغت ثروته فى ذلك الوقت مبلغاً كبيراً وبلغت حياته فى الإجرام ثلاثين سنة وفى الحلقة السادسة من عمره أقلع عن الغواية وأناب فبـدأ بحطام العاجلة فوزعه على الفقراء ولم يبق لنفسه شيئاً منه وهام على وجهه فى البلاد متصوفاً ناسكاً يدعو إلى الفضيلة ويحض على التقوى ومكارم الأخـلاق. ومن أزجاله: "[٩]"

حرامى وعاصى وكداب | عاجز هزيل المطايـا
وتبت ورجعت للبـ ـاب | هيا جزيل العطـايـا

* * *

الندل لـه طعم مالـ ـح | وله خصايل ذميمـة
القرب منـه فضايـ ـح | والبعد عنه غنيمـ ـة

* * *

كسرة من الزاد تكفـيك | وتبقى نفسك عفيفـ ـة
والعمر بكره يطويـ ـك | وتنام فى جنب الخليفة

* * *

لابد من يـ ـوم معـ ـلوم | ترتد فيه المظالـ ـم
أبيض على كل مظلوم | وأسود على كل ظالم

وقد أدرك عوام مصر تحول اللص إلى واعظ، وقالوا على سبيل السخرية من الادعاء الكاذب أو المشكوك فيه "صار نقاب الغرايـر واعـظ" أى تحـول الحرامى إلى واعظ، والنقاب هو الذى يثقب فجوة فى جدار بقصد السرقة، وعلى هذه الصورة "نقاب الحيط" وهو الشخص الذى يقتحم الحائط ليسرق ويقوم بهـا لصوص من مصر العليا-كما يقول بوركهارت فى كتابه حول العادات والتقاليد المصرية، "ص١٠٧"- ببراعة تثير الدهشة و"غراير" جمع "غرارة" وهى قفـة للقمح تحملها الجمال وهى أقصر وأوسع من التليس "الزكيبة".

وهناك نموذج آخر وهو "الشيخ صالح أبى حديد"[١٠] الذى أنشأ له الخـديو إسماعيل مسجداً بداخله قبره "عام ١٢٨٠هـ" يعمل له حضرة كل أسبوع ومولد كل عام وشعائره مقامة من ريع أوقافه بمعرفة ديوان الأوقاف، والمعروف مـ ـن أمره أنه كان فى مبدأ أمره قاطع طريق وكان له صاحبان ملازمان له أحـدهما الشيخ يوسف المدفون بالقرب من القصر العينى والآخر غير معروف اسمه كان

يتزيان بزى الدراويش زعم الناس أنه من الأولياء فتبركوا به وقبلوا يديه وكـان يستمر جالساً إلى الليل وكلما مر عليه رجل بمفرده قال: يا واحد فيخـرج فـى الحال من البيت جملة رجال يحتاطون به ويدخلونه البيت قهراً عنـه فيقتلونـه ويسلبون ما معه واستمروا على ذلك زمناً طويلاً وعندما قبض عليه بعد عمـل كمين له، أقر الشيخ على صاحبيه الشيخ يوسف والشيخ صالح، وكـان الشـيخ يوسف ياوذ بلاظوغلى فوقع عليه فعفا عنه وأما الشيخ الذى كان يتزيان بـزى الدراويش فقتل بعد تعذيبه وأما الشيخ صالح فاحتمى بـامرأة مغنيـة مشـهورة فادعت أنه مجنون ووضعت فى رجليه قيداً من الحديد واعتقل لسانه عن الكلام لشدة خوفه وبقى على ذلك مدة ثم شاع عنه بين الناس أن له كرامات وأخبـاراً بالمغيبات فقصده كثير من الناس أكابر وأصاغر واعتقدوا فيـه وازدحـم بيتـه بالزوار وهجمت عليه النذور والهدايا وثارت ثروته تتضخم واسـتمرت حالتـه هكذا إلى أن مات وبنى له الخديو إسماعيل هذا الجامع ودفن به.

ونشير كذلك إلى انتماء الكثير من هذه الجماعات المهمشـة إلـى الطـرق الصوفية وتكاثرهم فى الموالد والمواكب الاحتفالية والتى يستخدم فيها السـيوف وأكل النار والثعابين والزجاج وضرب الإنسان نفسه بسلاح حاد وحمل الأعلام والرايات والدق على الطبول، والدوسة، وتزايد أعداد المجاذيب الذين يطلقـون شعورهم ويدعون أنهم أولياء وقد "منح محمد على باشا محمـد أفنـدى ياسـين شهبندر التجار جمع الفردة من الأكروبات والمشعوذين والمشـتغلين بالسـحر، حيث كان العديد منهم أعضاء فى الطريقة الرفاعية "والتى كان شيخها وقائـدها كذلك محمد أفندى ياسين" وكان قد تعذر جمع "الفردة" من هؤلاء بسـبب عـدم انتظامهم فى نقابات مهنية""[11]".

كثرة الموالد معناها كثرة الفقراء وكثافة وازدياد حركة العوام والخـواص الأمر الذى يؤدى فى بعض الأحيان إلى اللجوء إلى أساليب التحايل والنصب بل والنشل "ولك أن تتصور أن الموالد التى تعمل فى السنة فـى مدينـة القـاهرة وضواحيها ثمانون مولداً - كما حددها على باشا مبارك-"[12]" موزعة على أشهر السنة، كل مولد تستمر احتفالاته حوالى أسبوع".

ولم يقتصر وجود هذه الفئات على الموالد، بل وجدت فى أوقـات عديـدة عادية كشكل من أشكال التسلية والترفيه، رغم سـنوات المجاعـة والحـروب المتصلة والتى تواصلت بعد الفتح العثمانى لمصر عام ١٥١٧.

ولعلنا نتذكر ما كتبه ابن إياس عن سماع السلطان سليم لأحـد الأشـخاص جعل الغراب يتفوه بكلمات بها دعاء للسلطان الذى أجزل له العطاء، وكيف أخذ السلطان معه أثناء رجوعه مجموعة ضخمة من أصحاب الحرف والصنائع بمـا فيهم المخايلين، وفى حوادث ربيع الآخر ٩٢٤هـ يذكر "حضر شخص من حلب "فهلوان" وصعد على الحبال، أظهر أشياء غريبة فى صنعه الفهلوانيـة وهـو واقف على الحبال منه أنه نصب له أوماج وبنية وأرمى بالنشاب فى البنية وهو واقف على الحبال، ومنها أنه مشى على الحبل وهو مقيـد وعينيـه مربوطـة بخرقة، ومنها أنه مشى على الحبل وفى رجله قبقاب وتحتـه ألـواح صـابون وأرمى فى الأوماج وهو واقف على حمل فيه سيوف مسلولة، ومنها أنه مشـى على الحبل مقلوباً وهو مغمى العينين وأظهـر مـن هـذه الأنـداب العجائـب والغرائب". ويضيف فى أحداث ذى القعدة ٩٢٤هـ "نودى فى القاهرة بأن أحداً من الناس لا يصنع على الطرقات خيال ظـل ولا مغـانى عـرب ولا غيـر ذلك". "[١٣]"

أنشأ العثمانيون عام ١٥٢٨"٩٣٥هـ" مقاطعة لجباية المـال فـى مصـر تسمى مقاطعة الخردة وصاحبها أمين الخردة تناوب أمر تعيينـه بـين وجـاق المتفرقة أو الجاويشية ثم العزب، مهمتهم جمع المال السلطانى مـن محترفـى البطالة والارتزاق كالراقصات والقرداتية والحواة والرفاعية وخلاطى الحشـيش وضاربات الودع والبهلونات ومحترفى التسلية. وكانت هذه المقاطعة من أعلـى مصادر الإيراد بما يشير إلى المدى الذى كانت فيه أهمية رقابـة أعمـال هـذه الجماعات وبما يشير كذلك –كما يؤكد شو- "[١٤]" إلى كبر حجـم هـذه الفئـات الهامشية.

وتكشف لنا كتابات معظم من زار مصر عن أهمية هذا الدور الاجتمـاعى فالحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف باسم "ليـون الإفريقـى" "١٤٩٤-١٥٥٢" عندما زار القاهرة شاهد "فى الأزبكية الكثير مـن اللاعبـين والحـواة

ومدربى الحيوان والذين يقرأون الطالع بواسطة الطير، وكان على مـن يقـرأ أحدهم له طالعه أن يعطى الطير مبلغاً قليلاً يلتقطه الطائر بمنقاره وبعد أن يودع المبلغ فى صندوق صغير يلتقط ورقة كتب فيها الطالع". "[١٥]"

وعندما زار مصر عبد الله العياشى "١٠٧٢هـ ـ - ١٦٦١-١٦٦٢" شـاهد المشعوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب وذكر "فقليل من أصناف الحيوانـات مـا لا يوجد عندهم مسخراً". "[١٦]"

عندما زار مصر الرحالة التركى أوليا جلبى فى القرن السابع عشر ودون رحلته فى كتابه الشهير الضخم "سيا حتنامة سى" لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وذكرها ومن ضمن ما ذكره: "[١٧]"

"ذكر الإدارات المضحكة لأمين البحرين وعدد خزائن مصر نادرة العصر"

"ومما سلف ذكره عن الكتاب إدارات تعرف بخورة أقلام وهى إدارات غريبـة وعجيبة قد ذكرها قبل غيرها:

أولاً: كل ما فى مصر من الحواة وصراخى باز والمصارعين واللاعبـين بالكؤوس ومربى الطيور وشب باز واللاعبين على الحبال واللاعبـين بالنـار واللاعبين بالكيزان واللاعبين بالأطباق واللاعبين بالصوانى واللاعبين بـالكرة الحديدية ومحركى العرائس واللاعبين بالصاجات ولاعبى القمار وتـيش بـاز واللاعبين بالقصعة واللاعبين بالورق واللاعبين بالمرايا والرياضيين واللاعبين بالطيور واللاعبين بالخرز والحمارة ومروضى الثعابين واللاعبـين بالقضـبان واللاعبين بالمطارق والقرداتية وعارضى خيال الظل وخروش باز وأصـحاب السيما واللاعبين بالفئران ومروضى الدببة والقاصين وقشمران ومربى النحـل والحاصل كل هؤلاء من أصحاب الحرف المضحكة والنحالين وبائعى الأشـياء العتيقة هؤلاء جميعاً تحت حكم أمين الخوردة ولهؤلاء كثير من الأمثال"

إن نظرة واحدة إلى ما ذكره أوليا جلبى تدهشنا وتبهرنا بهذا الكـم الـذى ذكره وربما الذى لم يذكره كان أكثر خاصة هؤلاء الذين لجـأوا إلـى طـرق الاحتيال لخداع العوام"بأمور تعجز العقول عن ضبطها" كما ذكر صاحب كتـاب

"كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون" مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة عند حديثه فى باب "علم الحيل الساسانية".

ولعلنا لا نندهش حقاً إذا رأينا أن فن خيال الظل رغم كل ما فرض عليـه من حصار فى بعض الأوقات جمع بين القول والسماع والرؤية والتمثيل. "وهو واحد من فروع ثلاثة من فن الدمى أما الفرعان الآخران فهما فن العرائس "وفيه تتحرك الدمى بخيوط خارجية، وفن القره قوز"وفيه يلبس اللاعب فى يده قفازاً، نصفه الأعلى دمية ويحركها من الداخل""[18]". قد كان رائجاً فى القاهرة طـوال العصر العثمانى. فقد ذكر بعض الرحالة الأوروبيين أنهم شاهدوا فرقاً للخيـال تتكلم التركية وكذلك العربية فى القاهرة.

ويكفى أن نتذكر أن إحدى بابات "طيف الخيال" لشمس الدين محمـد بـن دانيال الموصلى الكحال والتى راجت فى مصر منذ العصر المملـوكى، وهـى "بابة عجيب وغريب" قد حوت من بـين شخوصـها،"[19]" الساسـانى الكـداء، الواعظ، لاعب بالحيات والثعابين، بائع المعاجين الطبية، بائع الأعشاب الطبية، حلاق صحة، لاعب أكروبات، حاوى خفيف اليد، قارئ الطالع، بائع الأحجبـة والحروز، مروض الأسود والنمور، مروض الفيلة، صاحب الجـدى اللاعـب، مروض الفئران والقطط، مدرب الكلاب، صاحب الدبة، منلوجست سودانى، بالع السيوف، مرقص القردة، بهلوان، مشعوذ، صاحب المشاعل.

ضم خيال الظل هذه الألعاب والتى وصفها بالتفصيل معظم الرحالة الـذين زاروا مصر خاصة أواخر القرن الثامن عشر ومطالع القرن التاسع عشر:

- يخصص كارستن نيبور فصلاً فى كتابه عن "ألعاب وتسالى الشرقيين فـى ساعات الفراغ""[20]" ويذكر من أهمها: المصارعون، الغـوازى، النـدابات، خيال الظل وعرائس القراجوز، الحواة، القرادتية.
- يتحدث علماء الحملة الفرنسية فى كتابهم "وصف مصر""[21]" عـن الـرواة والمنشدين فى المقاهى، عن الممثلين المهـرجين الـذين يعرفـون باسـم البهلوانات وما يقومون به من عروض هزليـة ومرتجلـة،الحواة، مسـرح

العرائس، القرداتية، مروضى الثعابين، العوالم، وغيرهم ممن يقومون بإمتاع الجماهير ويرفهون عنهم.

- ويخصص لين بعض فصول كتابه للألعاب التى تسلى المشاهدين: الراقصون العموميون، "الغوازى"، الراقصون والحواة، البهلوانات، القرداتية المحبظون، القراجوز وغيرهم."[٢٢]

ولفترة طويلة ظل يطلق على هؤلاء "أرباب الملاهى والمغانى" استمتع بفنهم "العوام" و"الخواص" ويكفى أن نشير إلى نماذج من تواجدهم.

- فى أواخر القرن السابع عشر أتى إسماعيل باشا بجمع من "الحواة والقرداتية والخيال والأدبا والمحنبزين فى حوش الديوان". ويضيف كاتب السطور السابقة "كان الحاوى والغزواتى والقريداتية نهاراً عند باب الجاويشية والخيال والمحنبزين ليلاً عند النوبة" فى احتفالات استمرت خمس عشرة ليلة "لا أكابر ولا أصاغر"."[٢٣]

- فى أواخر القرن الثامن عشر، وعندما وصل كبير الفرنسيس إلى داره بالأزبكية تجمع هناك كما يذكر الجبرتى "أرباب الملاهى والبطالات وطوائف الرميلاتية ورعاع العالم من الحرافيش وأكلة الحشيش وملاعبين القرود والحواة والنساء والرقاصات والخلابيص والمراجيح وأمثال ذلك"."[٢٤]

وعندما شرع الفرنسيس فى تفريد الغرامات وتوزيعها وتقسيمها على عموم الناس وخاصتهم كان فيهم كما يذكر الجبرتى "جميع الصنائع والحرف حتى الحواة والمفزلكين والمساخرين والقرداتية والأمور السافلة"."[٢٥]

- فى أوائل القرن التاسع عشر وفى احتفالات زواج إسماعيل باشا ابن محمد على باشا، ومحمد بك الدفتردار على ابنه الباشا حضرها كما يذكر الجبرتى "بهلوان الحبل وأرباب الملاعيب والمفزلكين والجنباذية والحبيظية والحواة والقرداتية والرقاصين والبرامكة وغير ذلك أصناف وأشكال"."[٢٦]

وفى ظل نظام الاحتكار لم تترك حرفة إلا وفرض على أهلها ضريبة ففى صورة "اللائحة المحررة للبك محافظ الإسكندرية بتاريخ ٨ ذى الحجة

١٢٢٦هـ/ ١٨٣٠م"[٢٧] لكشف العوائد المحصلة من الحلوانية، القطايفجية، الفرانون، الطرشجية، صانعو معجون الحشيش، الخلالون، الدقاقون، بائعو الخوص ومستخرجو الخل من التمر ومقلمو الأشجار، صانعو الأوانى والقدور والقلل والفخار، المنجدون، مبيضو النحاس، صانعو القباقيب، السمكرية، الحدادون، الحانوتية، الرجال الذين يفتحون الكتاب وينظرون البخت يطلق على هؤلاء "طورقية" صناديق العجايب "صناديق الدنيا"، النساء الغوازى "الراقصات" اللاتى يرقصن فى الولائم والأفراح بالساجات، الشعراء والمحدثون، والحواة والقرادون، طائفة البهلونيين والغجر، الطبالون والزمارون الذين خارج مصر، الغياشون والخولات، الهازلية، وطائفة الغرباء ذكوراً وإناثاً والسلامية بالغاب والثعابين، الطراحون وخراز والقصاع والنساء الدقاقات والنساء وبائعات الكحل بالجراب دلالو الجمال بالرميلى، سيدى صاحب المكرمات.

إن أهمية صورة اللائحة المذكورة أنها تبين إلى أى مدى كان تدخل الدول الدقيق من خلال معرفة تعداد النفوس وحصر أعمالها خاصة المتعلقة بالعوائد الملحقة بالتزام خردة مصر. فبالإضافة إلى أصحاب الحرف البسيطة المذكورة تبين لنا دور بعض الفئات المهمشة من أصحاب الحرف التى انتشرت آنذاك مثل الطورقية وصندوق الدنيا والغوازى والغجر والحواة والقرادون والبهلونيون والهازلية الذين يلبسون طراطير حمر اللون ويقصون أحاديث لغو على المستمعين ورقاصى القرى "الغياشون" كذلك رقاصو البنادر والمحروسة "الخولات" وطائفة الغرباء الذين يضربون على الساجات النحاسية ذكوراً وإناثاً والسلامية أصحاب المزامير المصنوعة من الغاب وملعبو الثعابين وطوائف من يبيع الطرح والنساء يبعن الكحل ويدقن الدقة من يطلق عليهن: الحلبية والشهايمة والنباتية.

بعض هذه الجماعات كان لها مشايخها أو مشايختهن كالغوازى. كان للموسيقيين شيخ تسرى شياخته على الآلاتية وكان يطلق عليهم "المزاهرية" وهم جماعة المغنين والمنشدين والعازفين فى التخت وطوائف المزمار البلدى وموسيقى النحاس والشموتية "المداحين والسفرتية" وطوائف أخرى رؤى أنها

تمت إلى الموسيقى بسبب وأقرب إليها من غيرها من الحرف من ضمنها الحواة ومبيضى النحاس وملاعبى القردة "القرداتية" وكان للشيخ وظائف متعددة منها: تحصيل الضريبة من جميع محترفى المهن المتقدمة "الفردة" والترخيص لمن يرغب احتراف الغناء بعد أن يحزم وكان له وكيل "المختار" ولكل عاصمة شيخ ... الحكومة تختاره."[٢٨]

هذه بعض الجماعات الهامشية والتى تعاظم دورها فى الحياة الاجتماعية المصرية والتى كان لها علاقة بنظام الطوائف والحرف، وبعض هذه الجماعات كما اتضح لنا تكون طائفة لها شيخها أو شيختها كما فى حالة الغوازى "الراقصات"، ويتساءل المرء عن العلاقة بين تعاظم دور هذه الجماعات والجماعات الأخرى التى وسمت باللصوصية مثل المنسر والنشالين وغيرها.

وللإجابة على هذا التساؤل نوضح الآتى:

أولاً: لا يمكن فهم تحركات جماعات الزعر والمناسر والشطار... إلخ إلا فى إطار سياق اجتماعى يضم إليهم الفئات الأخرى المهمشة حتى ولو لم تلجأ بعض هذه الجماعات إلى التحايل والسرقة واللصوصية، ومارست عملها وسط ظروف صعبة للغاية مثل المخايلين الذين كانوا يتعرضون فى بعض الأحيان للمنع والمحاصرة وفى أحيان أخرى يصرح لهم بالعمل ويبدو أن المنع مرتبط أشد الارتباط باعتبارات سياسية وبعضها اجتماعية أخلاقية، هكذا حدث بالنسبة لعرائس القراجوز وصندوق الدنيا، ففى بعض الأحيان كان "القراجوز المصرى يؤدى عمله خيراً، تأخذ النكات ثوب الخلاعة والمجون"[٢٩]. رغم أن أفراد الطبقات الدنيا يأخذهم المرح حتى لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك على حركاته. أما صندوق الدنيا فقد خضعت عروضه لرقابة القضاء وأحكامه، وفى فترة متقدمة أصدرت إحدى المحاكم "محكمة جنح الأزبكية فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠١" حكماً ضد حامل هذا الصندوق نظراً لأن فيه صوراً ورسوماً قبيحة مخلة بالحياء خاصة وأنه دار به فى الشوارع العمومية يقدمه لكل من أراد مشاهدته فى مقابل أجر معين لأن هذه الحالة هى حالة عرض تامة ويعد هذا من الأمور المنتهكة لحرمة الآداب وحسن الأخلاق.

ثانياً: ارتبط عمل بعض هذه الجماعات خاصة فى أثناء الموالـد والاحتفـالات العامة ونظراً للازدحام بحدوث حالات كثيرة من التحايل والسرقة والنشل.

ثالثاً: ربط البعض بين تحركات جماعات منهم مثل بعض الغجـر والقرداتيـة والحواة والقيام بأعمال سرقة ونشل، ورغم وجود خصائص عامة تمايز بين كل جماعة وأخرى، فقد كانت الأنشطة تتداخل فى ظل عدم الاستقرار والتنقل مـن مكان إلى آخر، وكان التسول والاستجداء بطريق مباشر أو غير مباشر وظهور حالات من السلب والسرقة أحياناً ما جعل الحدود بين هذه الجماعات غير فاصلة بينهم. فبعض الأغجار "الغجر" كانوا يدربون القرود "القرداتية" وبعضهم كانوا يدربون الثعابين "الحواة"، وفى فترة متأخرة وبعد ظهور قانون عقوبـات منـذ أواخر القرن التاسع عشر أصبح هناك فى ميدان الجنح "جرائم النشل أو السرقة أو النصب أو الاحتيال التى يرتكبها طوائف النساء المحترفات ومعظمهـن مـن النساء المتشردات أو الأغجار الجائلات بالبلاد والأسواق والموالـد مسـتترات غالباً تحت ستار حرف متنوعة مشروعة أو غير مشروعة ومن هذه الطوائـف كوديات الزار والدلالات وقارئـات الكـف لاستكشـاف الطـالع والغـوازى والراقصات المتجولات وتاجرات الطيور ومحترفات دق الوشم والختـان"."[30]" ويؤكد هذا مأمور بالسجون المصرية "من الغجر الذين يجوبون القرى من بـين رجالهم من قد تخصص فى سرقة الطيور ودواب الركاب وإن من بين نسـائهم من لا يسرق غير الأوانى النحاسية من داخل المنازل"."[31]"

وقد ربط أحمد تيمور باشا بين "الغجر" و"النور" وأحدهم نورى واعتبرهم "طائفة رحالة من الأوشاب يعيشون بالكدية والرقص وضرب الـدف والطبـل والغناء ويطوفون القرى والبلاد جماعات مستجدين فإذا أمسوا باتوا خارج القرية وبعضهم يسرق الدجاج ونحوه، ولم يسمع عنهم سطو ولا قتـل، وفـى مصـر يقولون عنهم غجر وحلب لأن فيهم من هم -أهل حلب"."[32]"

أكد أحد الدارسين أنه من أشد الأمور المحرمة بين "الغجر" سرقة إخوانهم أو الخروج على هذه القاعدة أو تلك من قواعد العرف والتقاليد السـائدة بيـنهم، لكن بعضهم "النور" يقوم بعمليات السرقة والنشل خارج نطاق منطقته حتـى لا يشتبه فيهم أحد وحتى يأمنوا أحياناً من جانب السلطات بتعرضهم للطرد خاصة

وأن "النور" ينظر إليهم على أنهم من أدنى الفئات المجتمعية وعندما يصف إنسان آخر بأنه نورى فإن ذلك يتضمن وصفه بأحقر الصفات خاصة وقد اكتسبت كلمة "نور" معنى اللصوصية. وقد قرن المثل الشعبى بين نزعتهم للسرقة وبين أهل دمنهور "ألف نورى ولا دمنهورى". "[٣٣]"

وإذا كان بعض الغجر يتواجدون فى الموالد من أجل "الرقص" فإن تواجد الحلبية ارتبط "بالاستجداء" وارتبط النور غالباً "بالنشل". "[٣٤]"

وحتى بعض أفراد من القرداتية امتزج فنهم بالاحتيال على الناس والنشل باسم ترويض الحيوان: "[٣٥]"

قرد يكاد من التفهم ينطق — وتراه من حسن الرشاقة يعشق

ما جاز داراً فى ذراها طائراً — إلا وكد بسقفها يتعلق

يسطو سطو العبد الخصى منافقاً — ويظل يرقص تارة ويصفق

وحتى وقت قريب كان بعض الحواة يطوفون بالشوارع حيث يتجمع الأطفال، يستدرج الحاوى عدداً منهم إلى حى خلاف الحى الذى يسكنون فيه، ويختار طفلاً نظيفاً ويعطيه الطبلة أو بعض محتويات الحاوى حتى يصل بهم إلى وكر عصابات خطف الأطفال، هذا ما كشف عنه "مغامرات صحفى فى قاع المجتمع المصرى". "[٣٦]"

هوامش وإحالات الفصل السادس

(١) رسالة دكتوراه، مقدمة إلى قسم اللغات الشرقية، فرع لغات الأمم الإسلامية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٢.

(٢) محمد فؤاد كوبر يلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٠٨-١٠٩.

(٣) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانيـة، ترجمـة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٧٤، ص٢٨٣.

(٤) نعوم شقير: أمثال العوام فى مصر والسودان والشام، ص٧٨.

(٥) محمد رجب النجار(د): حكايات الشطار والعيارين، ص ١٢٠.

لاحظ كاتب هذه السطور أثناء مشاهدته لأحد الأفـلام المصـرية (آخـر الرجال المحترمين) بطولة نور الشريف وبوسى، كيف جسد المعلم (برغـوت) على الشريف شيخ النشالين هذه القيم فى عبارة دالة موحية عندما قال ما معنـاه (اليومين دول بطلنا ننشل الموظفين لضآلة مرتباتهم).

(٦) انظر: أحمد صادق سعد: تاريخ العـرب الاجتمـاعى.. تحـول التكـوين المصرى من النمط الآسيوى إلى النمط الرأسـمالى، الطبعـة الأولـى، دار الحداثة، بيروت ١٩٨١، ص١٣٢-١٣٦. اعتماداً على :

- Baer G.: Egyptian Guilds in Modern Times, Jerusalem, the Israel Oriental Society, ١٩٦٤, p.p. ٥٧-٥٨.
- Raymond, A.: Artis ans et Commercants au Caire au XV١١١ ieme Siecle, ٢vol, Damas, I.F.D. ١٩٧٣, p.p. ٣٨١-٣٨٢, p.٥٥٤.

أكد بير أن الطوائف الحرفية بمصر المحروسة كانـت فـى عـام ١٨٠١ (٢٧٢) طائفة منها ١٠٤ طائفة للحرف الصناعية و٩٩ طائفة للتجار و٦٩ طائفة للنقل والخدمات (المرجع السابق، ص ٤١٠).

(٧) توفيق الطويل(د): التصوف فى مصر إبـان العصـر العثمـانى، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، الجزء الأول، ص١٠٨-١٠٩.

(٨) نفس المرجع، ص٢٠٥.

(٩) حسين مظلوم رياض، مصطفى محمد الصباحى: تاريخ أدب الشعب، نشأته-تطوره-أعلامه، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٦، ص٨٥-٩١.

(١٠) حول تفاصيل كاملة لترجمة حياته انظر: على باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٨٣، ص٣٣٨-٣٤٠.

(١١) فريد دى يونج: تاريخ الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر، ترجمة عبد الحميد فهمى جمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ص٣٣.

(١٢) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، الجزء الأول، ص ٢٢٦-٢٣١.

(١٣) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس، ص ٢٥١-٢٥٢، ص٢٨٣. ويذكر فى أحداث جمادى الآخرة ٩٢٦هـ - (ص٣٤١): "توفى الريس محمد فتات العنبر ريس المحبظين وكان أستاذاً فى صنعة الخيال، وكان فاق على بريوه فى هذا الفن".

- Shaw, S.J.: The Financial and adminstrative Organization and development of Ottoman Egypt, ١٥١٧-١٧٩٨, Princeton New Jersy, ١٩٦٢, p. ١٢٠-١٢١.

(١٤) عبد الرحمن زكى(د): القاهرة.. تاريخها وآثارها ٩٦٩-١٨٢٥ من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ، دار الطباعة الحديثة، القاهرة ١٩٦٦، ص١٩٦.

(١٥) نفس المرجع، ص ١٩٧.

(١٦) سيا حتنامة سى، ص ١٣٨.

(١٧) انظر: أحمد رشدى صالح: الفنون الشعبية، مطابع دار القلم بالقاهرة ١٩٦١، ص٦١-٦٢.

(١٨) إبراهيم حمادة(د): خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٢٠-٢٢١.

(١٩) رحلة إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢، ص٣٠٧-٣٣٤.

(٢٠) انظر بصفة خاصة: علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر (١)المصريون المحدثون "دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثون" تأليف شابرول، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، القـاهرة ١٩٨٩، ص ١٤٦-١٤٨.

(٢١) انظر التفاصيل الكاملة للراقصين العموميين فى كتابه سالف الإشارة إليـه (ص٢٨٠-٢٨٤) والراقون والحواة وغيرهم (ص٢٨٥-٢٩٢) وقد خصص بعد ذلك فصول متكاملة لرواة القصص العامـة (الشـعراء رواة السـيرة خاصة).

(٢٢) أحمد الدمرداشى: كتاب الدرة المصانة، ص٣١-٣٢.

(٢٣) عبد الرحمن الجبرتى: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، ص١٣٥-١٣٦

(٢٤) نفس المرجع، ص١٩٠.

(٢٥) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثـار فـى التـراجم والأخبـار، ج٤، ص٣١١.

- يذكر أحمد تيمور باشا فى (معجم تيمور الكبير فـى الألفـاظ العاميـة، الجزء الثالث، ص٤٤-٤٥) أن الجنبازية: من يتولى تعلـيم وتـرويض الخيـل ولعله يريد البهلوان ويظهر أنه يريد الذين يلعبون على الخيل. ويذكر أنـه فـى الريف يقولون للغازية أى الراقصة: البرمكية (نفس المرجع، الجـزء الثـانى، ص١٥٧). ويذكر بوركهارت (العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على، ص ١٤٧-١٥١) أنه وجدت فى كل قرية كبيرة فـى مصـر طائفة من الراقصات يعرفن (بالغوازى) ينتحلن اسم (برمك) أو (برامكة) وهـذا الاسم أقل شهرة من كلمة غوازى ويقدرهم ذكوراً وإناثاً من ستة إلـى ثمانيـة

آلاف نسمة، وهناك الحلبيات، الغوازى يتجولن كثيراً فى القطـر مثـل الغجـر ويسمون بالغجر وفى سوريا يسمون كوديات. ويرى أحمد أمين (قاموس العادات والتقاليد والتعابير، ص٨٧) أنه فى لسان المصـريين تطلـق كلمـة "برمكـى وبرامكة" على الذين فقدوا الغيرة وأتوا بأعمال جنسية مشينة ويرجع هذه التسمية إلى أن البرامكة كان لهم مغنون ومغنيات أيام عزهم فلما نكبوا تسـكع رجـالهم ونساؤهم على البيوت فسقطوا من أعين الناس ورموا بهـذه الشـنائع، ويـرى (ص٢١١-٢١٢) أنه فى عهد محمد على كانت الغوازى يرقصن فى الشـوارع فصدر أمر بمنعهن من الرقص فحبأ فى الرقص كان يرقص بـدلهن الخـولات وهم طائفة من الرجال فقدوا رجولتهم وتأنثوا فى كلامهم وحركـاتهم. ويصـف فلوبير أحدهم ويدعى حسن البلبيسى الذى ارتدى ثياباً نسائية مطـرزة وأسـدل شعره المضفور على منكبيه وزجج حاجبيه بالكحل وإلصق فى ظهـر سـترته دنانير مذهبة وشد حول وسطه حزاماً من تمـائم مربعـة ذهبيـة وراح يـدق الصاجات ويرقص" راجع ثروت عكاشة (د): مصر فى عيـون الغربـاء مـن الرحالة والفنانين والأدباء (القرن التاسع عشر) الهيئة المصرية العامة للكتـاب، القاهرة ١٩٨٤، ص٢٣٦.

وقد ذكر الجبرتى أن (الخلبوص) (الخلابيص) هو الـذى كـان يصـحب المغنيات (العوالم) فى الأفراح وأن (الخول) هو المخنث الرقاص ويسمى كـذلك (الغايش) وقد استمر يلعب دوره حتى وقت ليس ببعيد جنباً إلى جنب جماعـات أخرى بدأت تظهر فى الأفراح العامة مثل (النقرازن) الذى يحمل طبلة صـغيرة يدق عليها دقات لها نغمة خاصة تحدثها قطعة من الجلد السـميك ومعـه آخـر يحمل عصا طويلة فى نهايتها كرة من الفضة وكان يتراقص فى عرض الطريق بعصاه فى حركات منتظمة تتناسب مع نغمات الطبلة التى يدق عليهـا صـاحبه (انظر: عبد المنعم شميس: حرافيش القاهرة، ص ٢٢-٢٣).

(٢٦) راجع الملحق رقم (٧) من كتاب أحمد الدماصى(د): الاقتصاد المصـرى فى القرن التاسع عشر، الجزء الأول (١٨٠٠-١٨٤٠) الهيئـة المصـرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص ٤٣٧-٤٤٠.

(٢٧) راجع مقال (شيخ الطائفة) للدكتور محمود أحمد الحفنى: مجلة الموسيقى، العدد الخامس، السنة الأولى ١٦ يولية ١٩٣٥، ص ١-٣.

(٢٨) ستانلى لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧، ص٤١.

(٢٩) محمد البابلى بك: الإجرام فى مصر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤١، ص٩١.

(٣٠) محمد شاهين: كفاح الجريمـة، المطبعـة المتوسـطة بمصـر ١٩٣٦، ص١٥٨.

(٣١) معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الخامس، ص٧-٨.

(٣٢) نبيل صبحى حنا(د): جماعات الغجر، مع إشارة خاصة للغجر فى مصـر والبلاد العربية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠، ص٢٩٢.

(٣٣) نفس المرجع، ص٥٦.

(٣٤) عبد الحميد يونس(د): خيال الظل، دار مصر للطباعة، القـاهرة ١٩٦٥، ص٧٤-٧٥.

(٣٥) عبد العاطى حامد: مغامرات صحفى فى قاع المجتمع المصرى، الطبعـة الثانية، كتاب اليوم (٨٢) مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة ص ٤٢.

الباب الثالث

الحركة التاريخية لبعض الجماعات الهامشية

الفصل السابع: النشالون فى مصر. سرقة الكحل من العين

الفصل الثامن: اللصوص فى مصر. السلب والنهب وقطع الطريق

الفصل التاسع: نحو دور سياسى عام لجماعات هامشية التقاء العوام بأولاد القرافة والأطراف

الفصل السابع

النشالون فى مصر.. سرقة الكحل من العين

إلى فترة قريبة كنت أتصور أن النشـل وجماعـات النشـالين يرتبطـون بظروف التطور الاجتماعى والتى حدثت أواخر القرن التاسع عشـر وبـدايات القرن العشرين. كنت أربط دائماً بين ظهـور التـرام فـى شـوارع القـاهرة والإسكندرية، بل وكذلك بين إصدار أوراق البنكنوت ورواجها – كما يؤكد على ذلك ميخائيل بك شاروبيم-[192] وبين ازدياد ونمو "النشالين والشرطية". سـاعد على ترسخ هذا التصور الخاطئ أن محاولاتى لقراءة وإعادة قراءة صفحات من تاريخ مصر الاجتماعى لم تساعدنى على تغيير منحنى هذا التصور. فحـوادث اللصوصية والسرقة وقطع الطريق ونمو الجماعات المرتبطة بصورة أو بأخرى بها موجودة فى الأدبيات التاريخية. بل وكذلك فى بعـض الوثـائق الموجـودة بالمحاكم الشرعية مثلاً أو مجالس الأحكام كذلك وغيرها.

لقد أعدت قراءة مؤلف شيخنا الكبير عبد الرحمن الجبرتى "عجائب الآثـار فى التراجم والأخبار" بحثاً وتلهفاً عن ظاهرة النشل، غير أننى لم أجد غير هذه الكلمات فى هذا المجلد الضخم:

- "وفيه "٤ يولية ١٧٦٨" أرسل على بيك "الكبير" وقبض علـى أولاد سـعد الخادم بضريح سيدى أحمد البدوى وصادرهم.. وشرع فـى بنـاء الجـامع والقبة والسبيل والقيسارية وأبطل منها مظالم أولاد الخادم والحمل و**النشالين** والحرمية والعيارين وضمان البغايا والخواطىء وغير ذلك".[2]
- وينقل لنا من أقوال الشيخ محمد شبانة -والذى كانت سليقته فى الهجو أجود من المدح على حد قول الجبرتى- يداعب الشيخ قاسم الأديب: [3]

سبحان من قسم النحـو   س لقاسـم وأذل هامـه

يحتال فى نشل الحريـ   ـر ولو تحصن فى دمامه

ويسل كحل العيـن مـن خـوفه ينفـى منـامـه

فالجبرتى ينقل لنا عبارات الاحتيال فى النشل"، "يسل كحل العين" بما يفيـد أن النشل كان موجوداً آنذاك، وإذا كان الحديث عنه وعن جماعاته لماماً يأتى بـين السطور مباشرة أو ذكر بعض حالاته الدالة عليه على نحو ما فعل قبل ذلك ابن إياس، عندما ذكر فى بدائعه فى أحداث رمضان ٩٢٤هـ: "[٤]"

"شخصاً من العثمانية كان فى خان الخليلى فقبض على شخص من العوام وزعم أنه سرق من جيبه أربعة أنصاف وأنه **قبض على يده فى جيبه،** طلع بـه إلـى ملك الأمراء "خاير بك" أمر بقطع يده وعلقها على رقبته وأشهره فى القـاهرة، فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف وقد راح ظلماً"

والمتأمل لهذه الفقرة السابقة يكتشف للوهلة الأولى هذه النقاط:

١- نشال من العوام يحاول السرقة.

٢- قسوة خاير بك أمير الأمراء "الذى أطلقت عليه العوام لفظ خاين بك".

٣- تأسف الناس وزعلهم من هذا الحكم الظالم.

ولم يسعف كاتب هذه السطور ما كتبه فقهاء ومشايخ فى ذلك الحين عند الحديث عن الفعل "نشل" على ما يذكر الشيخ يوسف المغربى: "ويمكن أن يؤخذ النشال بالمعنى المستعمل الآن من نشل الشىء أسرع نزعه ولا أسـرع حركـة مـن **النشالين** ولهم **حكايات غريبة فى النشل"،** "[٥]" ذكر ذلك أثناء تواجده فـى مصـر القرن السابع عشر، أو ما ذكره محمد مرتضى الزبيدى صاحب "تاج العـروس من جواهر القاموس" "[٦]" عند حديثه عن الفعل "نشل" وارتباطه بسـرعة العـدو والإسراع فى النزع و"النشال" الذى يطلق على المختلس من اللصوص بعـد أن كان يطلق على من يأخذ حرف الجردقة فيغمسه فى القدر فيأكله دون أصـحابه، ذكر ذلك فى مصر القرن الثامن عشر. أو ما ذكره أوليا جلبى فى بيـان لهجـة المصريين الخاصة حيث ذكر أنه من بين مفرداتهم "نشال يان" "[٧]"بمعنـى مـن يقطع الجيوب للنشل و"نصاب" بمعنى محتال.

ولم يشف غليل كاتب هذه السطور فى الحصول على الأجزاء من حـديث أوليا جلبى عن النشالين فى مصر والتى ترجمها الأستاذ مجيب المصرى ولـم تنشر حتى كتابة هذه السطور من "سياحتنامة سى"، ولعل من عنده هذه الأجزاء أن يستيقظ ضميره العلمى ويسهل لمن يهمه أمر الحديث عن هذه الجماعات فى مصر العثمانية مهمة الكتابة خاصة وأن الجزء العاشر المتعلق برحلة أوليا جلبى عن مصر موجود بدار الكتب المصرية وبحروف لاتينية. دخل أولياجلبى مصر فى السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف ووصف مصر وصفاً دقيقاً يكـاد يتفوق عما قام به علماء الحملة الفرنسية بعد ذلك فى "وصف مصر"، ذكر كـل كبيرة وصغيرة ومما ذكره –ما هو متاح لى-:"[٨]

- "والآن فى مصر ثلاثمائة من الحراس يحملون الهروات فى يـدهم ومعهـم اثنى عشر جلاداً يفتحون بيت الصوباشى كل صباح ويحضر جميع خدامـه ويدعون للإمام الشافعى على أنه برهم وسبب رفعتهم ثم يتجول ليـل نهـار لتعرف الأحوال ولاشك أنهم يجدون اللصوص و**النشالين** وكل لقطاء مصر مقيدين فى دفتر الصوباشى وإذا كان الصوباشى يحكم حكماً مطلقاً عـرف بالوالى وكل المجرمين يخشونه".
- الفصل الثلاثون: موكب جند مصر

النشالون: إنهم تحت سيطرة الصوباشى وهم يسرقون أكياس النقود، الخنـاجر، السكاكين... إلخ إلخ. أنهم ٣٠٠ نشال ولا بد من الاحتراس منهم فـى الأمـاكن المزدحمة أنهم مهرة إلى حد بعيد فهم يسرقون العين من الكحل ويبقى الكحل فى موضعه ولهم كذلك مشيخة مستقلة وإذا سرق شيئاً وطلبه الصوباشى بحث عنه شيخهم ووجده له فى التو، فجميع النشالين مسجلون فى دفتره".

معنى ذلك بكل بساطة، ما تؤكده باحثة متخصصة فى التـاريخ العثمـانى "وحتى الحرف الإجرامية والسيئة انتظمت فى طوائف فوجدت طائفة للنشـالين وطائفة للصوص مقرها القاهرة، ولها رئيس هو شيخها وكثيراً مـا كـان هـذا الشيخ يطالب بالبحث عن المسروقات وتقديم السارقين للمحاكمة"."[٩]

ظاهرة النشل ليست إذن وليدة ظروف أواخر القرن التاسع عشـر ولكنهـا قديمة، تعود إلى أزمان بعيدة ولكنها نمـت وتطـورت وتسـارعت وتائرهـا ومعدلاتها بصفة خاصة فى النصف الأول من القرن العشرين لدرجة أصبح فيها "قسم مكافحة النشل" أحد الأقسام الهامة بوزارة الداخلية فى مصر.

وجد أحد الدارسين للبرديات أن لفظ "نشال" الذى ينزع الشـىء ويخطفـه مسرعاً ورد ضمن بعض الأوراق إحداها محفوظة فى دار الكتـب المصـرية بالقاهرة تنسب للقرنين ٣-٤هـ "٩-١٠م" موضوعها عبارة عن "حساب حب" عثر عليها فى مدينة الأشمونين بمصر وارتبط فيها اللفظ باسم "سـون النشـال" وورد أيضاً ضمن نصوص إحدى الأوراق المحفوظة فى مجموعة كارل فسـلى بمكتبة المعهد الشرقى فى مدينة براغ بجمهورية التشيك مرتبطاً باسم أحد أهـل الذمة ويدعى "هليه بن النشـال" وهـى ورقـة مؤرخـة بعـام ٤٤١هـ ـ/٥ يوليو١٠٤٩م- ٢٦مايو ١٠٥٠ عثر عليها أيضاً فى مدينة الأشمونين.

ويرى هذا الدارس "أن ظهور لفظ النشال فى النصوص البردية والوثائقيـة لا يعد حرفة شريفة معينة ولكنه يلفت النظر إلى وجود فئة من الخارجين عـن النظام والقانون احترفت النشل والسرقة ووجود بعض أسماء أهل الذمة ضـمن بعض نصوص الأوراق والبرديات التى تنسب لمدينة الأشمونين بمصر يعتبـر حالة استثنائية ولا يعد ظاهرة على نشاط هؤلاء النشالين فى هذه المدينة خـلال تلك الفترة الزمنية وذلك لأن غالبية أهل الذمة كانوا أصحاب حرف ووظـائف شريفة"."١٠"

ومما يؤكد ما ذكره أن كتب الفتوة استبعدت "النشالون" من الفتوة رغم مـا ذكره فى اصطلاح الفتيان من ارتباط "النشال" بالذى يتناول الطعام من القـدور يأكله قبل النضج وقبل اجتماع الآكلين، وهذا ما أكدته دراسة محمد علاء الـدين منصور عن "جماعات الفتوة... فى الأناضول فى العصرين السلجوقى والعثمانى فى مصادرها الفارسية، ص٢٦-٢٧".

فى مصر العثمانية وكما ذكر أوليا جلبى فى كتابه "سيا حتنامه سى" ورغم قلة عددهم، فقد بلغت الجماعات التى تعتمد على النشل شأواً، ويتساءل الباحـث عن تواجدهم فى القاهرة وعددهم ٣٠٠ تحت إشراف الصوباشى هل كان هؤلاء

يمثلون إحدى الجماعات العسكرية المرتبطة بشكل أو بآخر بالمنسر أو الزعـر؟ أم أن تواجدهم كجماعة بمثل ما تواجدت به جماعات أخرى، رغم عدم شرعيتها أحياناً، مثل أرباب المغانى والخواطىء "البغايا" فى هذا العصر؟

رغم عدم وجود تفاصيل عنهم فى الكتابات التاريخيـة التقليديـة، فـالأمر المؤكد بلسان الجبرتى أن جماعتهم كانت موجودة فـى القـرن الثـامن عشـر واستمروا بعد ذلك فى القرن التاسع عشر، هذا مـا لاحظـه بعـض الرحالـة الأجانب، فكما يؤكد أحدهم "مصر الآن مليئة بالنشالين" "[11]" ولهذا فقد نبه الزائـر إليها بالطريقة المفضلة لحمل النقود "يجب ألا تعول على الصندوق أو الحقيبـة فالكيس القطنى الشائع والذى يحفظ فى جيب الصدر كان يحوى عملات فضـية وأخرى صغيرة" ويضيف "أما ذهبى الذى كنت حملت منه خمساً وعشرين جنيهاً والأوراق فقد أودعتهما فى حزام جلدى جيد مصنوع فى المغرب، وقد صمم هذا الحزام ليلف حول الخصر تحت الملابس لحفظ الأشياء الثمينة وإخفائها".

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ازداد النشل فى مصر، مع تزايد حركة السياحة، بل إن مصر اشتهرت بذلك عند السائحين، وحتى منتصف القرن العشرين كنت تجد على شاطئ النيل بالقاهرة إعلاناً كتب فيـه مـا مضـمونه "احترس من النشالين" وبصفة خاصة أمام المراكب التى تؤجر للسياحة.

وحقيقة الأمر لم تكن مصر أسوأ حالاً من بلاد أوروبية أخـرى احتـرف بعض أفرادها طرائق للنصب والاحتيال والنشل ومارسوا أعمال ما أطلق عليـه بالمافيا، ولكن الشىء الذى يميز النشالين -كما يؤكد أحمد أمين- "[12]" فى مصر: خفة الدم والمهارة الممتازة حتى ليستطيع مهرة النشالين أن ينشلوا من غيـر أن يحس المنشول، بل قد ينشلون ضباط المباحث، فإذا لم يستطيعوا أخـذ الشـىء شقوا الجيوب أو فتحوا شنط النساء وأخذوا ما فيها، ثم لهـم حيـل وألاعيـب، خصوصاً على من تفرسوا فيه أنه فلاح مغفل أو غريب الدار، وبعضهم يسـرح الأطفال بعد أن يعلمهم طرق النشل، وكثيراً ما يكون لهم شـيخ يسـلمونه مـا ينشلونه وهو يعطيهم القليل منه ويستلب منهم الكثير.

فى مطلع القرن العشرين صدر فى مصر القـانون رقـم ٢ لسـنة ١٩٠٨ الخاص بتشرد الأحداث واعتبر أن من جرائم الأحداث "التشرد" أولاً والسـرقة

ثانياً واعتبر جرائم النشل والسرقات هما فى الواقع إحدى نتائج حالـة التشـرد والتى تكاد تكون محصورة فى العواصم والمـدن الكبـرى دون الريـف "فقـد استغلت فئة من كبار اللصوص المحترفين أولئك الصغار الضالين فكونت مـنهم عصابات منظمة للنشل والسرقة تحت ستار التظاهر بالاستجداء أو البيع "أوراق اليانصيب مثلاً" بل بلغ الأمر بالبعض منهم أن أنشأ لهذا الغرض مـدارس فـى الخفاء حيث يجمعون الصغار بطريق خطفهم وإرهابهم وإغـرائهم بـالنقود أو أنواع الحلوى ويدربونهم على استعمال المشارط لشق الجيوب وتسلق مركبـات الترام وغيرها والاندساس بين الجماهير فى الزحام وخطف الحقائـب وسـرقة الدراجات وغير ذلك. وقد بلغ بهم الأمر من المهارة فى هذه الأساليب حداً يثير الدهشة والعجب". "١٣"

تكاثر فى مصر ما أطلق عليهم "السبارسجية" أو "أولاد سبارس" "١٤" وهـم الأطفال الذكور والإناث الذين يلمون أعقاب السجائر، لهم تقاليد متعارف عليهـا فى الاختصاص بالشوارع وفى ترابطهم. وكثيراً ما يكون لهم كبير يرجعون إليه فى منازعاتهم ومنهم من يجمع إلى هذه الحرفة النشل خاصة فى أماكن التدخين كالقهاوى وفى مركبات الترام وذلك أن النشل لا يتعلمه النشال بمفرده، بل هـو سلوك يتعلمه من الآخرين والملاحظ أن أسلوب ارتكاب هذا السلوك يحتاج إلـى قدر من التنظيم، أى يحتاج إلى قدر معين مما هو متاح فى ظل الإطار الثقـافى الخاص الذى يتمايز عن غيره، ويحتاج إلى قدر معين من التدريب والاحتـراف كما يحترف الغير المهن الأخرى.

ولما كان "الحرامى أيده تاكله" "١٥" أى تحثه على السرقة لتعوده إياها، فـإن هذا ينطبق على "النشال" كذلك، ذلك أن فريق النشالين "أسبق اللصـوص إلـى التعود على السرقة وأكثرهم تفنناً وهذا يرجع إلى أنهـم اعتـادوا النشـل منـذ الصغر". "١٦"

وكما ألمحت فى أسطر سابقة إلى ارتباط مفردات اللصوصية بالسرقة فثمة إقرار ما بين النصب "نصاب" والنشل "نشال" من اتصال. فكلاهما من الحرف "المهن" التى تعتمد على التعليم "**علمته** السرقة حط أيده فى الخرقـة، **أعلمـك** السرقة تحط أيدك فى جيبى" يضرب لمن يساجل أسـتاذه فـى فنـه وحرفتـه.

وكلاهما يعتمد على المهارة والذكاء والسرعة "النشال ياخد من الحافى نعلـه - النشال يسرق الكحل من العين" وكلاهما يعتمد على السيم "الملاحن" والتى هـى ليست لغة خاصة غايتها الإخفاء وإنما هى لغة فنية غايتها التفاهم السريع، أقرب إلى اللغة السرية، فالسيم معناه إشارة أو علامة وجدت بالقصـد ومنشـأها روح العداء بين الطبقات وروح الخوف الذى يوحيها وغايتها حماية فريق ضد فريـق آخر أو جماعة غيرها تستخدمها الطوائف لإخفاء سرها من غير أعضائها.

وقد وضع محمد لطفى جمعة قاموساً لملاحن السوقة أو السيم بين الطوائف فى مصر عام ١٩١٦ ضمنه "لحن النشالين والحرامية" "[١٧]" ونظراً لأهمية هـذا اللحن فقد ضمناه إحدى ملاحق هذه الدراسة "ملحق رقم ٧" والقراءة الأولية له تكشف عن دلالات هامة:

أولاً: دقة تنظيم عملية النشل والتى تبدأ من الألف وتنتهى بالياء أى حتـى الانتهاء من عملية النشل حيث يتم استخدام لحن "آه" مع مد الألف طويلاً وتعنى الفراغ من العملية بنجاح. من بداية اختيار الزبون وتضيق الخناق عليـه وبـدء عملية النشل: رفع ذراع الزبون اليمنى إلى تحسس جيبه الصغير، إلى السـرعة فى نشله إلى عمل الاحتياطات اللازمة لسلامة وتأمين العملية هرباً من البوليس أو على الأقل الابتعاد عن الزبون الواعى. وأثناء ذلك كان يتم معرفة الزبـون أهو معدم فقير أم غنى ثرى من المال الذى يمتلكه حتى القلم الذى فى سـترته. معرفة أن الزبون مثلاً معدم عندهم "كحيتى" وأن العملية سيئة وبـدون عائـد "اللهسة جويس" أو أن العملية مربحة "مخورجة"، أو بمعنى آخر التمييز بـين "الأروة بهو" أى من ملك فلوس كثيرة ومعرفـة الزبـون "الفخـم" أى الجيـد والزبون المعدم "السلك ضربه" الفقير.

ثانياً: مراعاة توقيت عملية النشل التى تعتمد أساساً فى أغلب الأحوال على الزحام "العملية مخورجة" أى الأتوبيس مزدحم والعملية مربحة و"مفيش دكنـة ولا لهسة" بمعنى لا يوجد زحام والجو غير مناسب للنشل ويرتبط ذلك كما قلت بمعرفة أحوال الزبون خاصة "العم برنسيم سهنى" أى الزبون السـاذج السـهل نشله وسرقته وتضييق الخناق عليه "ياللود امسك الماس اللى فى خذتى" حتـى التمكن من نشله بعد أن يكون قد وقع فى المصيدة.

ثالثاً: يخضع النشالون لتنظيم خاص على رأسه رئيس أو شـيخ يـأتمرون بأمره يعطونه ما نشلوه خاصة الذهب ويدفع لهم ثمن بخس، ذلك أن النشـال لا يستطيع عرض الذهب للبيع فى السوق خوفاً من افتضاح أمره، ومن هنا كـان الاتصال بهذا الشيخ هو وسيلة لرد ما انتشل أحياناً، ولكل نشال منطقته "حتتـه" ولا يجوز لغيره أن يتعدى عليها وينشل ما فيها، هناك من يقوم بتخطيط عمليـة النشل "دكتور" وهناك من يقوم بمراقبة الجو "ناضورجى" للتنبيه عن البوليس، وهناك من يغطى عملية الانسحاب "الروبان" ويشاغل الشـرطة والنـاس بعـد النشل.

رابعاً: هناك درجة من التخصص فى السرقة ونشل أشياء معينة لاعتيـاده -أى النشال- على طرق الوصول إليها"[١٨]، ثمة فارق فى الأداء بين "سـهنى" أى النشال الماهر وبين "شنكوتى- جويس- مهباش" أى النشال غير المـاهر أو المبتدئ، وأكثرهم تفنناً واحترافاً من تدرب على النشل واعتاده منـذ الصـغر. هناك من تدرب على النشل من "السيه" أى الجيب الخلفى أو "الصـندوق" أى جيب السترة أو "الطويل" الجيب الجانبى أو "الصلبة" أى الجيـوب السـرية أو "الحساس" أى الجيب الصغير، وهناك من يقوم بنشل بعض الأشـياء المحـددة القابلة للنشل مثل "الحداية- مقرقرة" أى المحفظة أو"ترمسة" بمعنى سـاعة أو "خنداتم" بمعنى خاتم أو "وشاح" بمعنى الدبلة أو "الطباشيرة" بمهنى القلم الثمين أو حتى "السيلة" أى النقود السائلة، وكان ازدحام وتكدس وسـائل المواصـلات خاصة الترام أو القطار "الطويل" أو الحافلة أو الأتوبيس "البنـديرة" يسـاعدهم على ذلك، وأغلب الأدوات التى تستخدم فى النشل هى "وعشرة" أى المشرط أو آلة لقطع الجيوب والتى أصبحت تسمى فيما بعد البشلة أى "الموس" ومن هنـا كان أحدهم يقول للآخر: "يا زنجر هات البشلة.. أحسن فيه مسـمار "محفظـة للسيدة" كبير فى الأرو "الحقيبة"".[١٩]

خامساً: السيم إشارة أو علامة أو رمز للحقيقة المقصـودة، فالنعـل عنـد اللصوص هو "الثور" فانتقلوا من "النعل" إلى مصدره الجلد ومن الجلـد إلـى مصدره الثور، ويسمون الثياب "نعجة" منتقلين من الثوب إلى الصـوف ومـن الصوف إلى النعجة وبعضهم يضع فى الكلمات عدة مقاطع أو حروفاً لا معنـى

لها ولكنها إذا أضيفت إلى الكلام البسيط العادى حجبته عـن ذهـن السـامعين كقولهم "عندربية" لحناً عن "العربية" فإذا جردناها من النـون والـدال صـارت "عربية" وقولهم "البنداب معندصلج سنديبه" فإذا جردناها من بعـض الحـروف قرئت "الباب معصلج سيبه"."[20]

يرتبط أحياناً النشل بالنصب، الأول يعتمد أساساً على خفـة اليـد "يسـرق الكحل من العين" والثانى على التحايل، ويجمعهما المهارة الفائقة والذكاء الخارق والتحايل. وإذا كانت مراجع ومصادر العصر العثمانى عاجزة حتى لحظة كتابة هذه السطور فى أن تزودنا ببعض الأساليب والحيل التى يلجأ إليها مـن يقـوم بالنشل، رغم اعتراف المعاصرين واندهاشهم من الطرق والوسائل التـى يلجـأ إليها هؤلاء "انظر على سبيل المثال ما ذكره أوليا جلبى والشيخ يوسف المغربى عنهم". فإن بعض الكتابات المنشورة عنهم بصفة خاصة فى القـرن العشـرين تعطينا بعض - ولا أقول كل - الحيل التى يلجأ إليها اللصـوص النصـابون، النشالون عند السرقة لدرجة جعلت محمد شاهين يكتب "وأكثر اللصوص تحايلاً فى بلادنا هم النشالون"،"[21] وهو فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٣٦ يوضح لنـا بعض هذه الحيل التى يلجأ إليها اللصوص فى مصر وجـاء لنـا بأمثلـة حيـة معاصرة أدرجناها فى إحدى ملاحق هذه الدراسة "ملحق رقم ١٤".

زخرت الأعمال الأدبية-الفنية بالحديث عن نمـط وسـلوك بعـض الجماعات التى ارتبطت فى تصور الناس باللصوصية وأعمال السلب والنهـب خاصة الطوائف المرتبطة بالسرقة والنشل. لدينا عشرات النماذج المعطاة نـذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر. ففى إحـدى مسـرحيات الشـيخ سـلامة حجازى، رواية سارقة الأطفال "لحن النشالين": "[22]

نحن نشالوا الجيـوب قد نهضنا فى الغروب

لا تدانينا الخطـ ـوب ننشل الكيـس الثمـين

رك رك ثم كرك رك أصبح الكيس ولا شك

بعد صبـر وتهالـك قسمـة للسـارقيـ ـن

ومما قاله محمود عماد الشاعر وقد سرق نشال راتبه: "[23]

في غرة الشهر والأيدى مسدودة   نحوى تطالبنى بالدين فى الحيـن

والوقت حرب وللأزمات سيطرة   على الجيوب وحظ الطين كالطين

يتحسر على الجنيهات الأربعة التى كانت مرتبه فيقول:

حتى إذا فاح منها ريحها عبقا   وللدنانيـ ـ ـر ريح كالرياحيـن

هوى إليها أخو علم بنكهتهـا   سهل الإغارة شيطان كالشياطين

ومن المضحك فى ثورة ١٩١٩ أنه فى الوقت الذى أضرب فيه جماعـات كثيرة من الشحاتين والنشالين عن التسول والاستجداء وممارسة أعمـال النشـل تقديراً للثورة العظيمة التى شارك فيها كل المصريين، وعندما أخذ الإنجليز سعد إلى المنفى راج فى أذهان العامة أن الإنجليز سرقوه فراحوا يهتفـون ضـدهم: "يسقط النشالون" "[٢٤]"

فى لحن "السياس" كلمات بديع خيرى وألحان سيد درويش: "[٢٥]"

أوعى يمينك أوعى شمالك   أوعى الأزمة توقف حالك

أوعى وشك أوعى ظهرك   أوعى فوقك أوعى تحتـك

أوعى لجيبك م الحراميـة   أوعى لروحك م الحانوتية

وفكرى أباظة الذى تخصص فى كتابة بعـض مـذكرات عـن الطوائـف الهامشية فى عشرينيات القرن العشرين بأسلوبه الساخر، كتب فـى "المـذكرة العاشرة" من "مذكرات عربجى": "[٢٦]"

"تضع المحافظة صورهم بجانب قسم الموسكى، فتشرط الجيوب وسط الزحـام ويظن الناظر أنه يستفيد بحفظ ملامح الصورة مع أنهم أبرع من أى ممثل فـى تغيير الخلقة، تراه بجانبك فى قطار الترام صباحاً "ابن بلـد" مقلـوظ باللاسـة الحرير والجلابية السكروته والبلغة الفاسى حتى إذا أتم مهمته وسلت المحفظـة بخفة البرق تراه بعد الظهر أفندى لطيف ظريف يناقشـك فـى أى موضـوع ليتحكك بك ويقضى عليك بطريقته الأمريكية ويمضى خير فى سلامة وسـلامة فى خير".

هذه الطريقة الأمريكانية كانت إحدى أهم طرق النشل آنذاك وهـى التـى ذكرها بيرم التونسى فى إحدى كتاباته وسببت له المتاعب، فعندما أصدر صحيفة "الخازوق" صدرها بالمقال التالى "لعنة الله على المحافظ": "[٢٧]"

"بينما كنت سائراً فى طريقى لا ليه ولا عليه إذ حدثتنى النفس الأمارة بالسـوء وقادتنى رجلاى اللعينتان إلى العتبة الخضراء حيث يكثر النشالون على الطريقة الأمريكانية فتقدم منى **نشال** فى خفة ورشاقة وسرعة وانتشل محفظتى فصـحت بأعلى صوتى "**لعنة الله على المحافظ**"" ولا يخفى ما فى هذا العنوان من تورية خاصة وأن محافظ القاهرة آنذاك هو صهر السلطان.

ومن الروائع الأدبية التى صدرت "مذكرات نشال" عام ١٩٣٠ للمعلم عبد العزيز النص وهى قصة فكاهية تصور أخـلاق وعـادات النشـالين وحـيلهم وأساليبهم فى النشل أملاها المعلم عبد العزيز النص النشـال المشـهور علـى صاحب جريدة لسان الشعب وطلب منه نشرها فى كتاب باللغة العامية "راجـع الملحق رقم ١٢"، وعلى ما يبدو فعبد العزيز النص هذا كان أحد كبار النشالين فى مصر، وقد أصدرت مجلة "الدنيا الجديدة ١٩٢٩-١٩٣١" عن دار الهـلال تحقيقاً آنذاك عن "أكبر نشال فى مصر". "[٢٨]"

فى إحدى مسرحيات الريحانى عام ١٩٣١ "أموت فى كده" صورة فنية فى تشبيه صوابع النشال بأنها مثل الكماشة، فقد ضاعت من العمدة محفظتـه بعـد سكره واتهم بائع اليانصيب عنانى بأنه نشلها: "[٢٩]"

العمدة: "داخلاً" تعالى هنا يا مخسوف لما أقـرض زورك أنـا تخطـف منـى محفظتى ولا اخطفشى عمرك.

عنانى: اختشى باقول لك يا عجل السيد أنت راخر محفظة إيه يا جلنف؟

العمدة: وبتشتمنى يا حرامى يا نشال ياأبو صوابع زى الكماشة؟.

أما شاعرنا العامى بيرم التونسى فمع الناس وفى حياة كل يوم صور كثيرة لهذه الجماعات والتى تعتمد على اللصوصية والسرقة والنشل، فعـن "قهـاوى الحرامية" "[٣٠]" : قهاوى فيها لصـوص   قاعدين بشكل عجيـب

م الصبـح للضهـ ـر   للمغرب وللتشطيـ ـب
يدبروا فـى الخطـط   ويرتبوا الأساليـ ـ ـب
فى ساعـة أو نـص   ياما تنكسر دواليـ ـب
وخزنـ ـة تنـ ـشال   وبالة من مكانها تغيـب
غير النحاس والهدوم   والعفش والكراكيـ ـب

وعن "بخمسين قرش": "٣١"

وخمسين قرش محفظتك تعودلك   من **النشال** بالواسطة القوية

وعن "موسم الحج والنشالين": "٣٢"

رأيت بعينى النشالين فى الحرم   عند الحجر لسـود وعنـد المقام
زحمة وفيها من جميع الأمـ ـم   من تركمان غشيم ومن هندى خام
والنشالين شىء من بتوع الحزم   وشىء عارفهم من بتوع التـ ـرام
الركن يستلموه مع اللى استلـم   ويرجعوا بالمحفظة والحـ ـ ـزام
ونشالات نسوان قرايب لـ ـزم   ييجوا مع القافلة كدا بانتـ ـظام

وعن "الفاتحة لمحمد على..!!": "٣٣"

لم اللصوص والنشالين والشحاتين وحطهم
فى أرض بور تصبح إذا ما أصلحوها ملكهم
هنا اللصوص مئات ألوف وأرضنا بور كلها
شيل من هنا أحدف هنا وكل أرض وأهلها
حسبة بسيطة وهينه مش عايزة لجنة تحلها
ما انساش فى يوم رحت اشترى لأعز أحبابى كفن
مات الفقير فى يوم عسير وجارى سلفنى الثمن

شال اللى هوه المحفظة زود على حزنى شجن

وبات على وقية حشيش مع الحبايب مختلى

خصص بيرم فى أعماله مكانة ملحوظة لجماعات "النشالين والمناصـرة" طرائفهم، أساليبهم، مدى ما يسببونه للبعض خاصة الفقراء من متاعب، أمـاكن تواجدهم، دمج ذلك فى أكثر من قصيدة أهمها "النشالين والمناصـرة" "راجـع الملحق رقم ١٦" والتى بدأ مطلعها:"٣٤"

النشالين والمناصرة والحراميـ ـة

أكثر من البياعين ومن الصنايعية

مقسمين البلاد أقسام نفوذ وخطوط

وكل فرقة لها دايرة وداوريـ ـة!

وعن "ضريح السيدة":"٣٥"

وفى المقام الكريم	محتـال ومحتالـ ـة
ع الزائرين يلعبوا	نسـ ـوان ورجالـة
يعرفهم المخبرين	فيكى يا بغالـ ـ ـ ـة
ويدور عليهم نقيب	يبحث عن الحلـوان
فى كل يوم تتنشل	كام محفظة فـ ـلاح
وكل يوم تضـ ـم	الشباحة والشبـ ـاح
واحدة الحلق من	ودانها باللطافة راح
والثانية ضاع من سكات	من صدرها الكـ ـردان

أما عن صورة "النشال":"٣٦"

راكب على بيسكليت بقرش اجـ ـ ـ ـرها

والقرش سارقه من أمه وكان لفطارها!!

يروح ويشرط هدوم الناس يممارهـا

وبنت شايلة طبق نابت يكعورهـا

وشنطة الست من أيدها يطيرهـا

واللبة من صدرها يخطفها بزرارهـا

ولم ينس بيرم فى مقاماته أن يصور لنا فى "المقامة الرغيفية"[٣٧] صورة سرقة الأحذية داخل الجامع على وجه الخصوص، وختم وصفه قائلاً:

كأنى باللصوص لصوص مصر / إذا انبثوا جنوباً أو شمـالاً

وقاموا ينشلون الناس جهـراً / وقد أمنوا سجوناً واعتقـالاً

فما تركوا بيوتاً أو جيوبـاً / ولا عافوا حذاء أو شـوالاً

ولا اختبأوا بليل أو نهـار / ولا خافوا عقاباً أو نكـالاً

سينتخبون عضواً عن قريـب / يروح عن اللصوص البرلمانا

ظلت صورة النشال عالقة بالنكتة المصرية التى تروى عن تحمس أحد السودانيين للوحدة بين مصر والسودان، وقاد مظاهره فى القاهرة فى خمسينيات القرن العشرين، فحملوه وأخذ يهتف "مصر والسودان هته واحد" ولما أنزلوه اكتشف أن أحد المتظاهرين قد نشله فأخذ يصرخ "مصر والسودان ستين هتة"[٣٨]. وكذلك ببعض رسوم الكاريكاتير حتى يومنا هذا "الملحق رقم ٢٠".

وحتى الأفلام المصرية لم تخل عناوينها من الحديث عن "نشالة هانم" أو "النشال" والأخير بطولة شويكار ومحمود المليجى وفريد شوقى، ويدور حول كمال الذى يحترف النشل، وذات يوم ينشل حافظة الموظفة عفاف، لكنه يقع فى حبها ويرد لها المحفظة ويعمل فى إحدى البارات الذى يديره إدوارد ويسلمه كمال إيراد اليوم وبه ساعة قديمة والتى بها معلومات عن الجاسوسية.

ويلتقى عبد العاطى حامد فى "مغامرات صحفى فى قاع المجتمع المصرى"[٣٩] بجماعات من النشالين، يحدثه أحدهم عن أسماء الأدوات المستخدمة فى النشل، عن لغة النشالين، كيف يستخدم الجريدة فى النشل "كنت

امسك "الجرنال" واخفى عين الشخص الذى أريد أن أسرقه لكى اشغله بينما يدى تمتد لكى تأخذ المحفظة ولا استعمل يدى كلها، بل يكفى إصبعين فقط الإصـبع الكبير فوق الإصبع الصغير فتصبح كالمقص وبهذا أستطيع أخذ المحفظة بخفة.. وابتدأ زنجر يجرى معه تدريبات عنيفة أحياناً كان يمثل الزبون وأنا الحرامـى وعندما أخطئ يصحح لى الخطأ"

ويضيف الكاتب على لسان نشال: "كان يوجد بعض الكمسـارية بياخـدوا عمولة منى.. فالكمسارية يعرفون النشالين ولا يكلمـونهم لأنهـم يخـافوا مـن الحرامية حتى لا يسرقوا منهم الإيراد.. والحرامية عندهم نظـر فهـم يعطـون عمولة للكمسارية".

هوامش وإحالات الفصل السابع

(١) انظر: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، الجـزء الخـامس، المجلـد الأول، القسم الثانى، مطبعة دار الكتـب المصـرية بالقـاهرة ١٩٩٨، ص ١٠١٢. و"الشرطية" أى النشالين الذين يستخدمون المشرط فى شق الجيـوب وسرقة ما بها، المشرط هو المبضع (شرطى أى نشال) كما جاء فى مختـار الصحاح.

(٢) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجـزء الأول، ص٤٨٦.

(٣) نفس المرجع، الجزء الثانى، ص١٩٢.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس، ص ٢٧٣.

(٥) يوسف المغربى: دفع الإصر عن كلام أهل مصر، مصدر سـبق ذكـره، ص٩٢ب.

(٦) المجلد الثامن، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية المنشـأة بجماليـة مصـر المحمية سنة ١٣٠٦هـ، ص ١٣٦، (فصل النون من باب اللام).

(٧) سيا حتنامة سى، ص١٦٠.

(٨) نفس المرجع، ص ٦٣، ص٤٨٠-٤٨٣.

(٩) ليلى عبد اللطيف(د): المجتمع المصرى فى العصـر العثمـانى، الطبعـة الأولى، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٩٨٧، ص ٣٧.

وفى دراستها عن (الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، جامعـة عـين شمس ١٩٧٨، ص ٢٣٣-٢٣٥) وجدت هذه الباحثة أن (الصوباشى) والذى كان يطلق عليه (الوالى)، (الزعيم) كان يشارك أغا الانكشارية فى حفظ الأمن فـى القاهرة وهو أقل رتبة من أغا الانكشارية ويعينه الباشا وكان يعاقب المخـالفين بعقوبات مختلفة وينفذ حكم الإعدام الذى تصدره السلطات. وفى دراسة أخـرى لها (دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمـانى، مكتبـة الخانجى بمصر ١٩٨٠، ص٩٨) أبانت أنه مع تدهور سلطة المحتسب فى القرن

الثامن عشر أصبحت الحكومة تعتمد على أغا الانكشـارية فـى القيـام بمهـام المحتسب، وكان الانكشارية يتقاضون رسم (حماية) من بعض الطوائف نظيـر حمايتها من سلطة الإدارة أطلق عليها (حاميات).

ويرى كاتب هذه السطور أن المثل الدارج (حاميها حراميها) يكاد أن يكون له علاقة ما بالحديث السابق.

(١٠) سعيد مغاورى محمد(د): الألقاب وأسماء الحرف والوظائف فـى ضـوء البرديات العربية، المجلد الثانى (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)، مطبعـة دار الكتـب المصرية بالقاهرة، ص ٨٣٥.

(١١) بيرتون (ريتشارد ف.): رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، الجزء الأول، ترجمة الدكتور عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامـة للكتـاب، القـاهرة ١٩٩٤، ص٣٥.

(١٢) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ٣٩٧.

(١٣) محمد البابلى بك: الإجرام فى مصر، ص١٠٤.

(١٤) أحمد أمين: المرجع السابق، ص٢٢٧.

(١٥) أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، ص١٧٩.

(١٦)محمد شاهين: كفاح الجريمة، ص١٦٠.

(١٧) محمد لطفى جمعة: مباحث فى الفولكلور، شركة الأمل للطباعة والنشـر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩، ص١٣٣-١٤٠.

(١٨) صرح محمد شاهين (مأمور بالسجون المصرية) فى كتابه (كفاح الجريمة ص١٠٢) أن أحد رجال الحفظ حدثه قائلاً "لما كنت فـى خدمـة البـوليس بالعاصمة جاءنى رجل قد نشلت حافظته بعد شق ملابسه ولا يعرف الجانى، فاستعنت على كشف الخبر بكبير النشالين الذى صرح بأن هذا الشق من يـد فلان النشال بمجرد أن وقع نظره عليه وكم كنت دهشاً عندما أثبت التحقيـق فى النهاية صدق فراسته".

(١٩) عبد العاطى حامد: مغامرات صحفى فى قاع المجتمع المصرى، ص٨١-٨٢.

فى الفترة الأخيرة وضع الأستاذ على عيسى كتاباً عن اللصوص والنشالين، وقد جاء فى الكتاب أن اصطلاح (الهناجرة) يطلق على الذين يمزقون جيب الزبون بالموسى، أما (البهالنة) فهم الذين يصرفون انتباه الزبون عن جيبه بوقوف فتاة جميلة بجواره فى ازدحام الأتوبيس: أما (الهزازون) فهم الذين يتشاجرون فى الطريق العام فيتدخل أحد المارة لفض الاشتباك فيفقد محفظته.

(٢٠) محمد لطفى جمعة: المرجع السابق، ص١٢٣.

(٢١) كفاح الجريمة، ص١٠٠.

(٢٢) محمد فاضل (الدكتور): الشيخ سلامة حجازى، مطبعة الأمة بدمنهور ١٩٣٢، ص١١٣.

(٢٣) صبرى أبو المجد: مذكراتى فى السجن.. (صفحات مطوية من تاريخنا الوطنى)، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٨٩، ص١٦٥.

(٢٤) روز اليوسف، العدد ١١١٨(١٩٤٩)، ص٢٥.

(٢٥) حسن درويش: بديع خيرى.. الأزجال البديعية والألحان الريحانية دراسة فنية سياسية اجتماعية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ٢٠٠١، ص٩٤.

(٢٦) بقلم الأسطى حنفى (أبو محمود) بها مقدمة شائقة للأستاذ فكرى أباظة، المكتبة التجارية بمصر ١٣٤١هـ (١٩٢٢)، ص٤٧-٤٨.

(٢٧) محمد كامل البنا: بيرم التونسى كما عرفته، مطابع جريدة الصباح بالقاهرة ١٩٦١، ص٢٩-٣٠.

(٢٨) وحول إحدى حوادث النشل والتى قام بها (النص) راجع ما ذكره عبد المنصف محمود (اللواء): من ذكريات ٣٠ عاماً فى كفاح الجريمة، مطابع جريدة المصرى، القاهرة ١٩٥٣، ص٢٥-٣٣. حيث يؤكد (ص٥١) أن أكثر

حوادث المدن تكون فى النشل بطرق مختلفة وأهمها الطريقة الأمريكانية والنشل عن طريق القردة.

(٢٩) على الراعى(د): فنون الكوميديا من خيال الظل.. إلى نجيب الريحانى، كتاب الهلال (٢٤٨) مؤسسة دار الهلال، القاهرة ١٩٧١، ص٢٧٢.

(٣٠) بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٤) بيرم وحياة كل يوم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص٩٤-٩٥.

(٣١) نفس المرجع، ص٥٠.

(٣٢) نفس المرجع، ص١٠٧-١١٠.

(٣٣) نفسه، ص١١٤-١١٦.

(٣٤) بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٣)، بيرم والناس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص ٥٣-٥٦.

(٣٥) نفسه، ص٨٠-٨٢.

(٣٦) بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (١١)، ستات، نقد، سياسة، نقد وسياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦، ص٣٨.

(٣٧) بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٨)، المقامات (١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ص ١١٤-١١٥. وحول الطريقة الأمريكانية راجع (المقامة الأمريكانية) من نفس المرجع، ص١٢٩-١٣٢.

(٣٨) صلاح فضل(د): "إدريس على يستعيد تهجير النوبى" مقال فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٩ يوليو ٢٠٠٢.

(٣٩) عبد العاطى حامد: المرجع السابق، ص٨٢-٨٣.

الفصل الثامن

اللصوص فى مصر.. السلب والنهب وقطع الطريق

لعل السلب والنهب وقطع الطريق والسرقة من الأمـور التـى ارتبطـت بتحركات جماعات اللصوص والسراق والحرامية وقطاع الطرق وهـى التـى وضحت بصورة أكثر فى الأدبيات التاريخية. وهى عمليات مستمرة على الدوام تتكاثر فى بعض الأحيان وتتناقص فى أحيان أخرى طبقاً للظروف الموضوعية التى يمر بها المجتمع، وهى من الأمور القديمة المتطورة كمـاً وكيفـاً حسـب ظروف الزمان والمكان. والمتواجدة فى كل المجتمعات البشرية- والتى يمكـن معرفة معالمها وآثارها الجانبية على سائر البلاد والعباد.

يمكننا رصد بعض تحركات الجماعات الهامشية المرتبطـة باللصوصـية والنهب منذ أواخر العصر المملوكى وحتى بدايات عصر محمد على باشا فـى هذه اللقطات والمسارات التاريخية.

يتحدث ابن إياس عن تحركات المناسر والزعر والسراق تخللهـا حـوادث سلب ونهب. الأمر الذى أدى إلى اختلال الأمن، عبر عنها فى أحداث جمـادى الأولى عام ٩٠٩هـ بقوله: "[١]"

من دولة الغورى ومن جوره	لقد حملنا فوق ما لا نطيـق
وقد كفى من فعله ما جرى	من قلة الأمن وقطع الطريق

يتحدث ابن إياس عن انتفاضات قام بها العوام وتحركات للمناسر والزعر والحرامية والسراق تخللها حوادث نهب ومن نماذج ما ذكره: "[٢]"

- فى أحداث محرم ٩٠٧هـ شكى جماعة كثيرة للاتابكى قيت الرجبـى "أن أصحاب الأملاك ضيقوا عليهم وطالبوهم بعشرة أشهر معجلاً بسبب هـذه الغرامة وما لهم قدرة على ذلك" وعندما لم يلتفت إلى كلامهم كبروا عليـه ورجموه هو ومن معه وعندما استمر الاقتتال "**الزعر والعبيد** نهبـوا عـدة

دكاكين من البسطيين إلى داخل باب زويلة" وقد قبض على جماعـة مـن الزعر والعبيد ووسط منهم نحو من أربعة عشر إنساناً.

- فى صفر ٩٠٧هـ "هجم **المنسر** تحت الليل على سوق الجملـين وسـوق الخشيبة والوراقين ونهبوا منها نحو من عشرين دكاناً ولم تنتطح فـى ذاك شاتان".

- فى حوادث ٩٠٨هـ "هجم **المنسر** على سكان المساطحى التى بجوار باب الحاجب ونهبوا عدة بيوت وخطفوا عدة عمائم وشدود وكونوا نحـواً مـن ستين رجلاً ومعهم قسى ونشاب" والى القاهرة قبض على بعضهم وسـطهم وشنقهم.

- يتحدث فى أحداث صفر ٩١٢هـ عن فتنة كبيرة بين **الزعر** فـى الرملـة تحت القلعة، وأن الوالى قتل بعضهم.

- فى أحداث رمضان ٩١٣هـ "جماعة من **السراق** نقبوا قاعة الذهب وبعض الدكاكين وهجم **المنسر** على شخص أعجمى تاجر وذبحوه ونهبوه".

- فى أحداث جمادى الآخرة ٩١٨هـ "هجم المنسر على سكان الزربية مـن المتفرجين ونهبوا عمائمهم وقماش الناس".

مع تفاقم الأزمة الاقتصادية بكل أبعادها، يتحدث ابن إياس فى أحداث ربيع الآخر٩١٩هـ أن الغورى أطلق سراح ٨١ إنساناً "حتى **الحراميـة** اسـتتوبهم وأطلقهم حتى أصحاب الجرائم والزغلية والعمال ممن عليه مال منكسر".

وكان العوام بسبب تشحيطة الخبز والدقيق تسببت عليـه بـالكلام المنكـى وقالوا له جهاراً "الله يهلك من يقصد الغلاء إلى المسلمين فسمع ذلك بأذنه فتنكـد فى ذلك اليوم" وفى أحداث ذى القعدة ٩٢٠هـ "كثر هجم **المناسر** فى الحـارات والأماكن من القاهرة وغيرها حتى ضج الناس من ذلك" وفى رجب ٩٢١هـ ـ "صعد السلطان إلى القلعة وهو فى غاية السودنة من العوام".

ومن أبرز الأحداث التاريخية والتى ذكرها ابن اياس فى فترة الاضـطراب التى صاحبت تهيؤ السلطان الغورى لمقاتلة ابن عثمان وما حدث أثناء خروجـه

وفى غيبته وتولى طومانباى الحكم والسنوات الأولى للفتح العثمانى لمصر:"[٣]"

- قبل خروج الغورى لملاقاة سليم وفى أحداث محرم ٩٢٢هـ "رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره فى القـاهرة وكـان مـن ضمنهم كبيرهم الذى يسمى "أبو عزراييل".
- فى ربيع الآخر ٩٢٢هـ سافر صحبته "الغورى" شيخ المشـايخ المسـمى **بسلطان الحرافيش** وجنده وصنجقه وطبله فكان قدام طلب السلطان.
- وفى غيبته "صار على رءوس الناس طيرة بسبب **المناسر** والحريـق" بـل وصل الأمر الذى عد من العجائب، دخول **الحرامية** القلعة ونهبهم لبيت من بيوت المماليك، الأمر الذى جعل الدوادار طومانباى "استتاب جماعة مـن **الحرامية**".

من خلال الاستقراء التـاريخى لتحركـات هـذه الجماعـات المرتبطـة باللصوصية والنهب نود أن نضع هذه النقاط فى الاعتبار:

أولاً: رغم ما اتسمت به سنوات بعض الولاة من أمن واستقرار. فإن ذلك كـان نسبياً للغاية. فقد تبدو صورة البلاد فى بعض الأوقات آمنة مطمئنـة. أو كمـا يقول المثل الدارج "من بره هلا هلا.. ومن جوه يعلم الله" لكن هـذا الأمـان والاستقرار كان مرتبطاً بظروف وأوضاع معينة، وحتى وإن تقلصت تحركات هذه الجماعات الهامشية لوقت من الأوقات وكانت أشبه ما تكون فى حالة مـن "البيات الشتوى" سرعان "ما تعود ريمة لعادتها القديمة" إذ تبدأ فـى التمـرد والخروج على سلطة الدولة وتهدد الأمن العام والخاص وتتزايـد العصـابات المنظمة التى توجد روابط وثيقة بين أعضائها حيث يشعر كل عضو بالانتمـاء إليها. يتوفر شعور بالولاء لها لدى جميع أفرادها، تنتشر وتتحرك من مكان إلى آخر، تسطو على المنازل والمتاجر والسفن النيلية وتمتد أيـديها فـى بعـض الأحيان إلى قافلة الحج بما تحمله من مال ومتاع. كل ذلك رغم ما يقال مثلاً :

- فى عهد خسرو باشا "١٥٣٥-١٥٣٦": "كانت مصر فى أيامه فـى غايـة الأمن من اللصوص والقطاع""[٤]"
- "ثم تولى مسيح باشا الخادم فى أوائل سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وكان ذا

مهابة متصفاً بالعدل والعفة يكره أهل الفساد واللصوص وقطـاع الطريـق ويتجسس عن أخبارهم ومواطنهم ويرسل لحكام الأقاليم فـى إحضـارهم ويقتل منهم من يظفر به ويشنع فى قتله"[٥]

- فى ولاية حسين باشا "١٠٤٥هـ" "وفى زمنه كانت الناس آمنة على مالها وأنفسها وقتل من **السراق** خلقاً كثيراً".[٦]
- فى عهد على بك الكبير "أمنت فى وقته الطرق من اللصـوص والعربـان وقطاع الطرق حتى أن الناس كانوا يسافرون فى البلاد ليلاً حاملين الأموال وغيرها فلا يجدون أحداً يتعرض لهم من عربـان وغيـرهم مـن قطـاع الطريق".[٧]
- أو حتى ما ذكره الشيخ خليل بن أحمد الرجبى فى كتابه "تـاريخ الـوزير محمد على باشا" من أن أهم ملامح عصره كان "قمع شوكة المفسدين مـن طوائف أجلاف الفلاحين والعربان بقطر مصر وأذلاهم".[٨]

فسنوات الأمن والاستقرار لا يمكن أن تقاس بأى حال من الأحوال بسنوات المجاعة والحروب والانتفاضات والتمردات وتحركـات العـوام والجماعـات الأخرى الهامشية مثل اللصوص وقطاع الطرق والزعر والعياق وغيرهم خاصة وأن بعض الولاة وبعض الأفراد كانوا على صلة ما بهذه الجماعات يسـتعينون بهم أحياناً فى صراعهم أو يتركون لهم أحياناً "الحبل على الغـارب" دون رادع يذكر ولدينا على سبيل المثال:

- عندما تمرد أحمد باشا "الذى لقب بالخائن" على الدولة العثمانية وأعلن نفسه سلطان على مصر "١٥٢٤" عاونه **الزعر** فى قتل عدد من جنود الانكشارية ومصادرة أموال الأعيان والتجار.
- فى عام ١٦١٣ أرسل والى مصر فتوات وزعر حارة الفوالة وذلك من أجل إخماد تمرد بعض العسكر عليه.
- ونقلاً عن أبى السرور البكرى أطلق خليل باشا سراح بعض اللصوص الذين قبض عليهم متلبسين بالجناية وعندما أصر أحد رجال الديوان على إصـدار الحكم بالإعدام لأن هذه الحادثة لا تحتاج إلى محاكمة لثبوت الجناية "فلم يكن

جواب الباشا إلا الأمر بهدم بيت ذلك الناصح فاستغرب الرجل ذلك، وسـأل عن السبب الموجب له فأجابه الباشا قائلاً: كيف يحق لك الاعتراض على إذا أمرت بهدم بيتك المبنى من حطام الدنيا ولا يحـق لـ ذلك البـانى العظـيم معارضتنا إذا هدمنا بناية بغير وجه شرعى "ثم أبطل الهدم وأطلق اللصوص الذين "قلوا بعد الحادثة احتراماً للباشا""[٩].

- فى عام ١٧٧٧ قام إسماعيل بك "الصوباشـى" بتجنيـد "**فتـوات وزعـر الحارات**" لمناصرته فى صراعاته ضد خصومه ويذكر الجبرتى فى أحـداث هذا العام "١١٩١هـ" "خرج القاضى والمشايخ والتجار وأرباب الصـنائع والمغاربة وأهل الحارات و**العصب**، وغلقت الأسواق، وخرج الناس فى يوم الاثنين حتى ملؤوا الفضاء، فلما عاين ذلك إسماعيل بك وعلم أنهم يحتاجون إلى مصروف ومآكل وأكثرهم فقراء وذلك غاية لا تدرك فأشار على تجـار المغاربة والالضاشات بالمكث ورجع بقية العامة وأرباب الحرف ومشـايخ الأشاير والفقراء من أهل الزوايا والبيوت""[١٠]
- ويذكر أندريه ريمون أن "بعض هؤلاء المناسر عاشوا فى مختلف الأحيـاء دون رادع يذكر وعندما أمسكهم الناس تركهم الوالى "الزعيم – الصوباشى" يهربون مقابل رشوة، لقد كان الأمر بشعاً لحد شاذ فقد نهب ٤٨ دكاناً فـى طولون مما تسبب فى خسائر كبيرة وعندئذ ذهب التجار المغاربة يشـكون للباشا مهددين برفع شكواهم إلى السلطان إذا لم يعزل الوالى، فعين الباشـا والياً جديداً قام بتعقب اللصوص".[١١]
- برز دور هذه الجماعات زمن الحملة الفرنسية والتى فى أثناء ثورة القـاهرة الأولى "اتهم إبراهيم أفندى كاتب البهار بأنه جمع له جمعـاً مـن **الشـطار** وأعطاهم الأسلحة والمساوق".[١٢]

ثانيـاً: يتكاثر دور هذه الجماعات إبان فترات الأزمات الاقتصـادية-السياسـية وعلى وجه الخصوص فى فترات الغلاء والوباء والمجاعة، ويلاحظ كذلك مدى الارتباط بين إغارات العربان وقطع الطريق. بل إن بعض البدو أعطى الحماية لبعض اللصوص وقطاع الطريق وهؤلاء كان بعضهم من البدو والبعض الآخر من الفلاحين، فعند هبوط مياه النيل "يتكاثر الفلاحون أو العرب وينزلون بالخيل

فى البحر فى جهات معلومة ويأخذون المركب بما فيه مـن أمـوال ومتـاجر ويقتلون من فيها ولا يسأل أحد من الأمراء عن ذلك بل للأمير قسم فيه ونصيب مقدر يأخذه وكذلك كان البر فى كل جهة منه طوائف من الفلاحين يسمى الرجل نفسه شيخ العرب الفلانى وله رجال ينهبون فى الطرق". "[١٣]"

على أى حال الإشارة إلى تزايد هؤلاء من قطاع الطرق والمناسر والزعر والجعيدية والحرامية متناثرة فى المؤلفات التاريخيـة علـى سـبيل المثـال لا الحصر:

-فى عهد حسين باشا "٩٨١هـ" "كثر فى زمنه المناسر الليلية" وعندما ولـى مسيح باشا الخادم قيل أنه قتل نحو عشرة آلاف نفس وغالبهم من أهل الفسـاد "لأن المناسر فى زمن حسين باشا كثيرة قطعها مسيح ومن عهـدها إلـى الآن انقطع أثر **المناسر والسراق**". "[١٤]"

-فى ولاية مصطفى باشا البستنجى "١٠٥١هـ" "اشتد البلاء على الناس فكانوا بين قرمين عنيدين **الغلاء واللصوص** ولما اشتد الحال بالناس اجتمعـوا زمـراً تحت قلعة الجبل وصاحوا على الباشا وشكوا من أفعال والى القاهرة وكشـاف الأقاليم وضجوا ونادوا: ما يحل من الله يا باشا اتق الله فى خلقـه. فاضـطرب الباشا وخشى العاقبة وخلع فى الحال والى القاهرة" "[١٥]". وفى ذلك الوقت وقـع "الغلاء والقحط" "وكثرت المناسر بمصر وعم البلا منهم فصارت المناسر فـى كل ليلة تأخذ محلاً واستمر الأمر **متزايداً من المناسر** ورحلـت النـاس مـن أوطانهم وصاروا إذا مسك أحد من المناسر لم يأمر بقتله ويقول للوالى استتويه، فينزل الوالى يأخذ رشوته ويطلقه فـى الحـال إلـى أن جـاءوا إلـى بركـة الرطلى". "[١٦]"

-فى فترة الحملة الفرنسية وفى "٨ صـفر ١٢١٣هـ - ٢٢ يوليـه ١٧٩٨م" "اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بيك ومراد بيك بقيسـون واحرقوه ونهبوا أيضاً عدة بيوت من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فـرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك" "[١٧]".

ويضيف الجبرتى فى أحداث "١٢ صفر ١٢١٣هـ -٢٦ يوليـه ١٧٩٨م"

"اجتمع أرباب الديوان عند رئيسه فذكر لهم ما وقع من نهب البيوت فقالوا لـه: هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس"[١٨].

وفى أحداث "٢٩ جمادى الأولى ١٢١٣هـ - ٨ نوفمبر ١٧٩٨م" "هجم المنسر على بوابة طيلون وكسروها وعبروا منها إلى السوق فكسروا القناديل وفتحوا ثلاث حوانيت وأخذوا ما بها من متاع المغاربة التجار وقتلوا القلق الذى هناك"[١٩].

وعلى الرغم من أن الفرنساويين فى "١٥ صفر ١٢١٣هـ - ٢٩ يوليه ١٧٩٨م" قد "قبضوا على شيخ الجعيدية ومعه آخر وبندقوا عليهما ببركة الأزبكية ثم على آخرين أيضاً بالرميلة وأحضروا شيئاً كثيراً من المنهوبات"[٢٠] إلا أن هذا لم يمنع تحركات الحرافيش ولغطهم على حد تعبير الجبرتى ومعهم الجعيدية، ففى "شوال ١٢١٣ - ٨ مارس ١٧٩٩م" وفى العيد "رمحت الجعيدية والحرافيش وخطفوا ثياب النساء وأزرهن وما صادفوه من عمائم الرجال وغير ذلك"[٢١].

- فى فترة الفوضى السياسية-الاجتماعية التى صاحبت خروج الفرنسيس من مصر استمرت أعمال السلب والنهب من قبل هذه الجماعات، ففى أحداث عام "١٢١٨هـ - ١٨٠٣م" "اجتمع الكثير من **الأوباش والجعيدية** والعسكر خارج الدار يريدون النهب"[٢٢].

وأثناء خروج مراد بالعساكر "انقطعت الطرق وأخذت **الحرامية** فى كل ليلة تطرق أطراف البلد"[٢٣]. الأمر الذى دعاه بعد ذلك إلى الذهاب إلى طملوها "قرية من قرى منوف" وطالب أهلها "برسلان" و"باشا النجار" وكان كل منهما شيخ عصبة من المفسدين وقطاع الطريق وعندما لم يجدهما نهب القرية وحرقها، وبحثاً عنهما هدم فى طريقه عدة بلدان، ويذكر على مبارك فى خططه أن رسلان شيخ نصف سعد وباشا النجار عمدة نصف حرام، لكل منهما عصبة ومنصر يقطعون الطريق ويحارب بعضهم بعضاً وقد اختفى كلاهما عند شيخ العرب الحفناوى جبير عمدة نصف سعد بناحية البتانون."[٢٤]

هذه الفترة التى كانت فيها مصر فى "منتصف الطرق" على حد قول

المؤرخ المصرى الشهير محمد شفيق غربال فترة شهدت ازدياد وسطوة قطاع الطرق والمناسر، ويصف خليل بن أحمد الرجبى "المنسر"[٢٥] بأنهم ناس من الفلاحين والعرب وبأيديهم تارة شعل مضيئة بالنار فيصعدون إلى الحارات وينهبون البيوت ويجرحون وكانت أهل المحلات على الدوام مستحضرين ومستعدين بالبارود والسلاح، ويروى أنه قد ظهر بالطرق بالليل رجال يقال لهم "البطحجية" ومعهم أشياء يضربون بها كل من كان ماراً منفرداً، أما عن عصابات قطاع الطرق فيؤكد أنه كان "بقطر مصر رجال موصوفون بالقوة مذكورون بالكرم والفتوة اسماً بلا مسمى وخيالاً ما ألما"[٢٦] ويذكر من بينهم رسلان، ابن زغلول، الأشقم، سلامة شديد، إسماعيل الزعلوك.

واعتماداً على الجبرتى فقد شهدت السنوات الأولى من حكم محمد على:[٢٧]

-"عندما شاع فى الناس حصول زلزلة خرجوا خارج البلد "وتسلق العياريون والحرامية تلك الليلة على كثير من الدور والأماكن وفتشوها". "أحداث ٢٣ فبراير ١٨١٠".

-"بعض العيارين من السراق تعدوا على قهوة الباشا بشبرا وسرقوا جميع ما بالنصبة من الأوانى والبكارج والفناجين والظروف أكثر من خمسين قبض عليهم وشنق الجميع وخوزقوهم. "أحداث ٢٧ يونيه ١٨١٦".

-وفى أحداث عام ١٨١٧ "شنقوا عدة أشخاص فى أماكن متفرقة قيل أنهم سراق وزغلية وحرامية".

المتصفح لصفحات كتاب خليل بن أحمد الرجبى "تاريخ الوزير محمد على باشا" يدرك تمام الإدراك مدى حرص الباشا على وضع حد لما يقوم به اللصوص من إخلال بالأمن، أكدت أوامره ومكاتباته صرامة موقفه هذا، فبتاريخ ٨ محرم ١٢٥٢هـ أصدر أمره إلى مدير الجيزة وبخه قائلاً له: "يابك قد وسخت البيكوية، إما أن تزيل هؤلاء اللصوص من الوجود أو أن أزيلك وأبقيهم فأى الأمرين تختار، فيدنى حالاً".[٢٨]

وفى ١٨ربيع الآخر ١٢٥٢هـ صدر أمر منه إلى عباس باشا الأول مضمونه "اللصوص الذين سرقوا معمل النيلة بميت بره فروا هروباً قبض على

ستة أنفار سجنوا تسعة عشر شهراً أو اتهموا بذلك، ولما تبين عدم ثبوت شـىء عليهم طلب تخلية سبيلهم لمباشرة مزروعاتهم بعد التضمين عليهم "إذ لا يهمـل فى البحث والتفتيش على أولئك اللصوص الهاربين". "٢٩"

هوامش وإحالات الفصل الثامن

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الرابع، الهيئـة المصـرية العامـة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص٥٩.

(٢) نفس المرجع، صـفحات ١٦-١٧،٢٠،٣٩-٤٠، ٦٩، ١٢٦، ٢٧٩-٢٨٠، ٣١٧-٣١٨، ٤١٦، ٤٦٦.

(٣) نفس المرجع السابق، الجزء الخامس، صفحات ٨-٩، ٤٣-٤٤، ٤٩.

(٤) أحمد شلبى بن عبد الغنى: أوضح الإشارات، ص١٠٨.

(٥) محمد عبدالمعطى الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣١١هـ ـ، ص ١٥٩.

(٦) محمد بن أبى السرور البكرى: الروضـة المأنوسـة فـى أخبـار مصـر المحروسة، ميكروفيلم بدار الكتب المصرية رقم (٣٤٣٢١) ١٨٥١١تـاريخ ٢٢٦١ تاريخ تيمور ٢٥٢٤، ص٣٩.

(٧) إسماعيل بن سعد الخشاب: أخبار أهل القرن الثانى عشـر، تحقيـق عبـد العزيز جمال الدين، عماد أبو غـازى، الطبعـة الأولـى، العربـى للنشـر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٠، ص٤٦.

(٨) مرجع سبق ذكره، ص١٦٦.

(٩) جرجى زيدان: مصر العثمانية، ص ١٥٨.

(١٠) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ج٢، ص٢٠.

(١١) فصول من التاريخ الاجتماعى فى مصر العثمانية، ص٤٢.

(١٢) عبد الرحمن الجبرتى: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، ص٧٤.

(١٣) خليل بن أحمد الرجبى: المرجع السابق، ص٧٢.

(١٤) محمد بن أبى السرور البكرى: النزهة الزاهية، ص١٥٦-١٥٧.

(١٥) ميخائيل شاروبيم بك: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٧٩٨، ص ٩٠-٩١.

(١٦) محمد بن أبى السرور البكرى: الروضة المأنوسة، ص ٤١.

(١٧) عبد الرحمن الجبرتى: مظهر التقديس، ص ٣٨.

(١٨) نفسه،ص ٣٩.

(١٩) نفسه، ص ٧٨.

(٢٠) نفسه، ص ٤٢.

(٢١) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثالث، ص٨٢.

(٢٢)نفس المرجع، ص٣٩٣.

(٢٣) عبد الرحمن الجبرتى: مظهر التقديس، ص٢١.

(٢٤) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء الثالث عشر، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠١، ص١١٧.

(٢٥) تاريخ الوزير محمد على باشا، ص ٧٣-٧٤.

(٢٦) نفس المرجع، ص١١٦.

يذكر الجبرتى (عجائب الآثار، الجزء الثانى، ص١٠٢-١٥٩) أن ابن رسلان كان قاطع طريق بالمنوفية وهو معروف بشيخ العرب رسلان عندما توجهوا للقبض على ابن زغلول صالح على نفسه بثلثمائة كيس ورجع الحال إلى حاله، وقد تمكن محمد على من القبض عليه وأعدمه خاصة وأنه كان من أشهر

قطاع الطرق على المسافرين فى البحر ويذكر الجبرتى (عجائب الآثار، الجـزء الرابع، ص٩٤) "وكلما مرت بناحيته مركب حاربها ونهب ما فيها من بضـائع التجار وأموالهم أو أنهم يفتدوا أنفسهم منه بما يرضيه من المال فكثـر تشـكى الناس منه".

(٢٧) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الرابع، ص١٧٦، ص٣٩٠، ص٤٣٦، ص٤٤٧.

(٢٨) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشـا، الجـزء الثانى، ص ٩٤.

(٢٩) نفس المصدر، ص ١٤٧-١٤٨.

الفصل التاسع

نحو دور سياسى عام لجماعات هامشية

التقاء العوام بأولاد القرافة والأطراف

يتحدث بعض الدارسين عن محددات الدور السياسى للجماعات الهامشية فى تاريخ مصر الحديث، وهى ظاهرة متواجدة على الساحة المصرية قبل العصـر المملوكى-العثمانى، فقد تزايدت فى هذا العصر وبانت معالمها بعـد أن كونـت هذه الجماعات الكثير من الأشكال الهلامية الساخطة على الدوام والتى تنفجر فى صراعات مرتبطة أساساً بحركات العـوام. انخرطـت هـذه الجماعـات فـى الانتفاضات التى ضمت قطاعاً كبيراً مـن العامـة "الحـرافيش" والشـحاتين وأصحاب الحرف وقادها فى بعض الأحيان علماء ومشايخ من الأزهـر، أحـد الدارسين يقسم هذه المشاركة إلى:"[1]

* انتفاضات يقوم بها الجعيدية والزعر والحرافيش لحسابهم طلباً للرزق.

* أعمال عنف يقوم بها أعضاء هذه الجماعات لحساب بعض الحكام.

* انتفاضات يقوم بها أعضاء هذه الجماعات منخـرطين فـى لحمـة ونسـيج انتفاضات العامة والطلاب والعلماء للمطالبة بتغيرات محددة.

لوحظ منذ أواخر العصر المملوكى على وجه التخصيص، وفى ظـل مـا يمكن أن يسمى باختلال التوازن أو عدم تناسب مقـدرات القـوة العسـكرية أن البعض كان يلجأ دائماً إلى استنفار هذه الجماعات الهامشية للدخول فى الصراع العسكرى داخل البلاد إن لم يكن فى بعض الأحيان خارج البلاد.

والأسطر التالية توضح لنا إلى حد كبير ومن خلال الوقائع التاريخية بعض مؤشرات هذا الدور والذى اختلطت وتمازجت فيه فى بعض الأحيان تحركـات العوام "الحرافيش" بتحركات هذه الجماعات الهامشية وبصفة خاصة تلك التـى ارتبطت فى التصور الرسمى بأعمال اللصوصية والسلب والنهب وذلك طـوال

ثلاثة قرون، أى منذ بدايات أفول دولة المماليك وصولاً إلى ظهور دولة مصـر محمد على.

ومصدرنا الأساسى خلال تلك الفترة الأولى "انهيار دولة المماليك وبدايات الفتح العثمانى لمصر" هو المؤرخ المصرى الشهير ابن إياس الذى أوضح لنـا فى "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" بعض طبيعة هذا الدور والذى تراوحت فيه علاقة هذه الجماعات بالسلطة الحاكمة ما بين النبذ والإقصاء من جانب السـلطة فى لحظات كثيرة، ومحاولة كسب تأييد هذه الجماعات فـى بعـض اللحظـات والمواقف. وفى لحظات أكثر يتعـرض لمحـاولات هـذه الجماعـات إثـارة الاضطراب والتمرد من جانبهم.

فالسلطان الغورى، استتاب بعض السراق والزعار وقتل بعضهم لتأمين ما يمكن أن يسمى بلغة عصرنا "الجبهة الداخلية" وتقدم معه شيخ الحرافيش وجنده وصنجقه وطبله أثناء زحفه لملاقاة ابن عثمان، كانوا فى مقدمة صفوف القتـال، خاصة وأن الحرفشة مرتبطة بمصارعة الرجال والتهيؤ للقتـال. وقـد اسـتمر دورهم القتالى فى فترة تالية إذ يحدثنا الجبرتى أنه فى إحدى ثورات القاهرة ضد الوجود الفرنسى خرج "جمع عظيم من الأوباش **والحرافيش** والأطفـال ولهـم صياح ونباح وتحارب بكلمات".

وعلى ما يذكر ابن إياس، وقبل معركة الريدانية:"[٢]"

-فى أحداث ذى القعدة ٩٢٢هـ، نادى طومان باى بـأن "**الزعـر** والصـبيان **الشطار** والمغاربة وكل من كان مختفياً على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليـه أمان الله".

-وأهم ما حدث آنذاك فى ذى الحجة ٩٢٢هـ "عرض السلطان الزعر بالوطاق فاجتمع منهم الجم الغفير فأوعدهم السلطان أنه إذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب وانتصروا عليهم ينفق على كل واحد منهم عشر أشرفية وينعم على كل واحـد منهم بسيف وترس ورسم للأمير انصباى أمير آخور كبير بأن يصلح بين **زعر الصلبية وزعر المدينة.**

-وفى حوادث محرم ٩٢٣هـ نادى طومانباى فى الناصرية وقنـاطر السـباع

للزعر والعياق بأن كل من قبض على عثمانى يقطع رأسه ويحضرها بين يـدى السلطان.

ويبدو أن الزعر والصبيان الشطار والعياق قد استجابوا لدعوة طومانبـاى الأمر الذى جعل العثمانية بعد دخولهم القاهرة "طفشت فى العوام **والغلمان مـن الزعر**" هكذا ذكر ابن إياس، وفى بدايات الحكـم العثمـانى "صـارت الزعـر والغلمان ينهبون البيوت فانطلق فى أهل مصر جمرة نار"

-ومرة أخرى وفى رمضان ٩٢٤هـ "لما شق "خاير بك" القاهرة ضجت إليـه العوام من قلة الخبز فى الأسواق وانطلقت ألسن العوام فى حق ملـك الأمـراء بالكلام الفج وقالوا له انظر فى أحوال المسلمين نور الله تعالى ألا يصير ذلك فى ذمتك فتنكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم إلى الغاية".

-وفى رمضان ٩٢٨هـ "حصل له "خاير بك" غاية البهدلة من الناس".

حفل العصر العثمانى بتحركات "العوام" أو "الرعية" وتظاهراتهم المتوالية والمستمرة والتى لم تنقطع، التحم "أولاد البلد" مع "أولاد القرافة"، "الأوباش" مع "الحرافيش"، "حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية" مع "غوغاء العامـة"، اختلط الحابل بالنابل خاصة فى فترات المجاعة والغلاء. تزايدت الـدعوة إلـى عزل بعض الولاة "الباشوات" رجم البعض منهم بالحجـارة، وهتـف ضـدهم ورجمت كذلك بيوت بعض الأمراء. نودى بالعدل ورفع الظلم والجور وإقامـة الشرع.

والذى لا شك فيه أن العقد الأخير من القرن الثامن عشر والعقد الأول من القرن التاسع عشر قد شهد الزخم المتتالى لمسار حركة "العوام" شاركهم بعض من هذه الجماعات الهامشية والتى لعبت دوراً لا يستهان به خاصة فـى فتـرة التواجد الفرنسى على أرض مصر "١٧٩٨-١٨٠١".

ويحق لنا أن نسمى هذا الـدور "دور المشـاركة العامـة" ذات الطبيعـة الاقتصادية-السياسية. وإذا كانت جماعات من المتلصصة قد انتهـزت فرصـة الأحداث والأزمات التى مرت بها البلاد وقامت بأعمال نهب وسلب، خاصة وأن الجريمة تزداد إبان هذه الفترات. فيحق لنا إن نقول أن ثمة جماعات من هؤلاء،

وبوصفهم لصوص ظرفاء، قد تجاوزوا هذا الحد القائم علـى السـرقة أساسـاً بمراحل ونالهم ما نال "العامة" أساساً من هموم وآمال.

وإذا كانت هذه الدراسة لا تهدف بتاتاً إلى رصد تحركـات "العـوام" فـى مصر العثمانية. فإنها ترصد البعض القليل منها بدرجة تأثيرها وإيقاعهـا علـى دور هذه الجماعات الهامشية ومشاركتها وبحيث يمكن تقرير ما بين تحركـات "العوام" ومشاركة "الجماعات الهامشية التى تعتمد على اللصوصية" من اتصال.

الأزمة الاقتصادية-السياسية درست بشكل مفصل فـى بعـض الكتابـات التاريخية توالى الأوبئة والمجاعات وما ترتب عليها من الغلاء أدت إلى التحـام "العامة" بفئات مهمشة وخاصة الشحاتين والفقراء.

لنتذكر بعض ما ذكر مسبقاً وما يمكن أن يضاف لتوضيح هذه الصـورة، ففى أكثر من عهد لبعض الولاة توالت الشدائد، ويذكر شاروبيم فى أكثـر مـن موضع مثل هذه النماذج:"[٣]"

-فى ولاية "حسن باشا جانبلاط" وقع فى أيامه غلاء عظيم وارتفعت الأسـعار واشتد الحال على **الفقراء** حتى "أكلوا الميتة وجـذور الأشـجار وطـافوا فـى الشوارع يتخطفون الخبز من الأفران ويرجمـون بيـوت الأمـراء بالأحجـار ويصيحون يضجون"

-فى ولاية "حسن باشا السلحدار" وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغـلال إلى القاهرة، ضج **الفقراء** وطافوا بالأزقـة والحـارات يتسـاءلون وصـاروا يتخطفون ما يجدونه من الخبز فى الأفران وفى الدكاكين.

-فى عهد "على باشا قلج" كانت أيامه كلها شدائد وقع فيها غلاء شديد، **السـواد الأعظم** وقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع واستغاثوا، خطـف الأهـالى الخبز من الأسواق ومن الأفران والذى على رؤوس الخبازين مع ندرته فكـان يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصـى حتى يخبزونه.

ألم يتحدث بعض المؤرخين على أنه قد أتى على مصر فصل "الشحاتين-الهبا- الشراقى الكبير" والذى لم يسمع "بفصل لـه ثلاثـة أسـماء إلا هـذا""[٤]"

ووصف بعضهم سنة "١١٠٧هـ-١٦٩٥-١٦٩٦" بقوله: "كانت سـنة الله لا يعودها على أمة محمد".

هذه السنوات "السواد" والتى هتف ببعضها العامة: "[٥]"

سنتك يا قطامش سوده　　　سنتك يا قطامش نجعة

قطعت الحاج فى الرجعة　　　سنتك يا قطامش سوده

قطعت الحاج بالعودة

هى سنوات شهدت تجمع "أولاد مصر"[٦]" على حد قول أحمد الدمرداشـى "فى عهد رجب باشا ١١٢٥-١١٢٦هـ، ١٧٢٠-١٧٢١م" و"رعاع الخلق من الرعايا"[٧]" على حد قول يوسف الملوانى والذى يضيف أنه قد حصل لهذا الباشا "رجب باشا" "احتقار لم يحصل لغيره من الباشوات" وأنه "لم يقدر على المقاومة لشدة ما ناله من الأذية البالغة ومشافهة أهل إسماعيل بيك الدفتردار -الذى قتلـه الباشا- بالمسبة والقول القبيح حتى صاروا يغروا عليه **الغوازى** من النسا يغنوا عليه ويقولوا كلاماً قبيحاً من جملته: "باشا يا باشا يا وش القملة.. من قال لك يا معكوس تعمل ذا العملة".

ورغم نزول هذا الباشا "فى الضلمة" هو والقاضـى إلا أن الرعـاع مـن الرعية انتظرته وصفقت عليه وناولته بالألفاظ القبيحة. وكما يؤكد أحمد شـلبى ابن عبدالغنى فى موضع آخر "أن رجلاً من الرعية أتى قدام القاضى وقال لـه: ياشيخ الإسلام، أنت الذى جيت لمصر تجدد لأهلها دينها؟ حريم إسـماعيل بـك دفتردار مصر الشبرخيتى كانت لديهم حزازة منه كونه أنه قتل سيدهم فصـاروا يحضرون **الغوازى** ويعطوهم الفلوس ويقولوا لهم: قولوا كلاماً على الباشا فبقوا يتكلموا على الباشا كلام قبيح لا يليق بالوزراء من حجة قولهم له:

يا باشا يا باشا يا وجه القملة　　　من قلة عقلك يا باشا تعمل دا العملة"[٨]"

فى ثلاثينيات القرن الثامن عشر تكررت صورة رجم بعض الـولاة عنـد قدومهم إلى مصر بالحجارة، هم ومن معهم قاموا فى وجه "محمد باشا السلحدار عام ١٧٣١م" وشكوا له من المعاملة وغلو الأسعار، عندما فزع عليهم الـوالى

ضربه الرعية بالطوب. وكما يذكر أحمد شلبى بن عبدالغنى"٩". جاءت ضربة فى فخذ الباشا، كذلك قاموا فى وجه "عثمان باشا عام ١٧٣٣" ورجموه وتكـرر الحال بالنسبة "لباكير باشا عام ١٧٣٥".

هى فترة شهدت ظاهرة متكررة قيام الرعية وغوغاء العامة بالهجوم علـى الجامع الأزهر وأبطالهم الدروس والأذان والصلوات أحيانـاً وصـعودهم إلـى المنارات يدعون ويتضرعون، حدث ذلك أكثر من مرة على سبيل المثال:

-فى فترة ولاية محمد باشا النشنجى "١١٣٧هـ -١٧٢٤م" قامت الرعية وقفلت حوانيتها ونهبت أسواق القاهرة وهاجمت الجامع الأزهر على العلماء وهم فـى الدروس ووقع الضرب فى الجامع من الرعية. ثم أنهم نزلوا الرميلة إلى بيـت جركس وبقيت بين العسكر "بين العزب وجركس" فقصدوا **القرافـة** وباتوا طول ليلتهم يدعون الله بالعفو ويدعون على جركس وطايفتـه **وطلـع النـاس علـى المنارات يدعون** الله **بالعفو عنهم والدعاء على جركس،** أو لليلة وثانى ليلة إلا المنارات التى بجوار بيت جركس فلم يطلع عليها أحداً، ثم أن جـركس كتـب مراسلة إلى القاضى يأمره بعدم طلوع المنارات وطلبهم من الله، وكان دعـايهم فوق المنارات:

"يا من له المراد، فى كل ما أراد، بجاه مصطفى الحبيب، تعفو عن البلاد"."١٠"

-فى أحداث عام ١٧٧٧ يذكر الجبرتى "بعض مجاورى المغاربة تبعهم بعـض العوام وبأيديهم العصى والمساوق وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالاحجار" وأنهم "أبطلوا الدروس والآذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلـة القديمة، **وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء**""١١"

-مع غلاء الأسعار وعندما طلبوا منهم مغارم لجوامـك العسـكر "١٨ صـفر ١٢١٩هـ - ٢٩ مايو ١٨٠٤م" "اجتمع الكثير من **غوغـاء العامـة** والأطفـال بالجامع الأزهر ومعهم طبول **وصعدوا إلـى المنـارات** يصـرخون ويطبلـون وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون ويقولون "يا لطيف" "١٢"

ولعلنا نتذكر مواقف حرافيش القاهرة، العوام، أولاد البلـد مـن العسـكر العثمانية وبعض الأغوات وظلم أمراء المماليك فى تسعينيات القرن الثامن عشر

وقبيل مجيء حملة بونابرت إلى بر مصر، لعلنا نتذكر فى "١٦ يوليـه ١٧٩١" عندما نودى على طائفة القليونجية والأرنؤد والشوام بالسـفر ولا يتـأخر أحـد وعندما اجتمع منهم طائفة وذهبوا إلى الباشا أرسل معهم شخصـاً مـن الـولاة أنزلهم إلى بولاق فى المراكب "وصار **أولاد البلد** والصـغار يسـخرون بهـم ويصفرون عليهم بطول الطريق". "١٣"

وموقفهم من تعدى وظلم أحمد أغا الوالى على أهل الحسينية "١٢٠٥هـ ـ" وإيذاء الناس وأخذ المال ونهب البيوت. الأمر الذى أدى إلى عزل هذا الـوالى، وقد لعب الشيخ العروسى دوراً أثناء هذا الوقت.

نتذكر هؤلاء الذين ساروا فى ركاب الشيخ أحمد الدردير وبأيديهم نبابيـت ومساوق وصعدوا إلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول وبدأوا فى نهـب بيوت الأمراء كما نهبوا بيوتهم وبتحريض من هذا الشيخ على النهب "ونمـوت شهداء أو ينصرنا الله عليهم" حتى صار للشيخ حسن الكفراوى الذى تزوج ببنت أحد الجزارين بالحسينية "نجداً ومنعة على من يخالفه أو يعانده ولو من الحكام".

ولعلنا نتذكر أحداث "ذى الحجة ١٢٠٩هـ – ١٩يونية-١٧يوليـه١٧٩٥" والتى انتهت بإقرار "الحجة" الشهيرة والتى لعب فيها الشـيخ السـادات دوراً لا يستهان به عندما ظلم أتباع محمد بك الألفى بعض الأهالى وطلبوا منهم مـا لا قدرة عليه، تظاهروا واجتمع عليهم خلق كثير من العامة والحرافيش وتبعـوهم إلى بيت الشيخ السادات وعندما أرسل لهم إبراهيم بك أيوب بك الدفتردار يسألهم عن مرادهم قالوا له "نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشـرع وإبطـال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها واحدثتموها" فقال لهم "لايمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات"."١٤".

فى زمن الحملة الفرنسية لعبت بعض هذه الجماعـات خاصـة طوائـف الجعيدية وزعر الحارات البرانية دوراً لا يستهان به ولعلنا نعيد تذكار ما فعلـه الجعيدية من عمليات نهب فى الأيام الأولى من نزول الفرنساويين إلى القـاهرة وكيف أنه قد تم القبض على شيخ الجعيدية ومعه آخرين اطلق عليهم الرصاص رمياً ببركة الأزبكية والرميلة، وكيف أدان أرباب الديوان نهـب البيـوت أمـام بونابرت بقولهم فى "١٣ صفر ١٢١٣ – ٢٧ يوليه ١٧٩٨": "**هذا فعل الجعيدية**

وأوباش الناس"[15]".

وفى الثورات التى اندلعت آنذاك كان هؤلاء من أهم دعائمها. ففـى ثـورة القاهرة الأولى "21 أكتوبر 1798 – 11 جمادى الأولـى 1213هـ ـ" يـذكر الجبرتى"[16]": "حضر السيد بدر وصحبته **حشرات الحسـينية وزعـر الحـارات البرانية** ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح فى الكلام "نصـر الله دين الإسلام".

ويتحدث الجبرتى عن المناشير الملصوقة بالشوارع والأسواق والتى حذرت من أفعال هؤلاء الجعيدية والأوباش "كتبوا عدة أوراق علـى لسـان المشـايخ وأرسلوها إلى البلاد – أنه حصل بعض خلل فى مدينة مصر المحروسـة مـن طرف الجعيدية وأشرار النـاس فحركـوا الشـرور بـين الرعيـة والعسـكر الفرنساوية"[17]".

وأثناء ثورة القاهرة الثانية "24 شوال 1214هـ – 20 مـارس 1800م" خرج "**الأوباش والحرافيش** والأطفال ولهم صياح ونباح وتجاوب بكلمـات "الله ينصر السلطان ويملك فرط الزمان"[18]".

فى هذه الثورة كان تآلف "**أولاد القرافة والعامـة وزعـر الحسـينية**"[19]" نموذجاً فريداً للمقاومة، اتضح من خلال تجمعهم عند باب النصر، وفـى نفـس الوقت الذى كان فيه كل حرفوش يقطع رأساً من رؤوس الفرنساوية كان يذهب بها إلى قائد المقاومة لأجل أخذ البقشيش، كانت توجه ضـربات إلـى بعـض المشايخ والعلماء الذين والسوا الفرنساوية، أوذيت كرامتهم و"مسـح ببعضـهم الأرض" كما يقال فى الكنايات العامية المصرية. خاصة وأن بعض هؤلاء قـد إدان رسمياً الأعمال التى قام بها الجعيدية والزعر.

يتم الالتحام مرة أخرى بين "أولاد القرافة" و"أولاد البلد" فى الثورة العارمة التى اندلعت بالقاهرة بعد خروج الفرنساوية "ثورة 1218هـ – 1804م" والتى كان من أبرز قياداتها حجاج الخضرى وابن شمعة شيخ طائفة الجزارين "اللذان اشتهرا بالفتونة"، فعندما شرعوا فى "24 ذى القعدة 1218هـ ـ – 6 مـارس 1804م" عمل فردة وشرعوا فى كتابة قوائم لـذلك ووزعوهـا علـى العقـار

والأملاك أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر والنصف الثانى يدفعه صـاحب الملك نطقت أفواه الناس بقولهم "الفردة بطالة" وفى "٢٥ ذى القعدة ١٢١٨هـ - ٧ مارس ٢١٨٠" "ضج الفقراء والعامة والنساء وخرجوا طوائـف يصـرخون وبأيديهم دفوف يضربون عليها، ويندبن وينعين ويقلن كلاماً على الأمراء مثـل قولهن "ايش تأخذ من تفليسى يا برديسى" وصبغن أيديهن بالنيلـة وغيـر ذلـك فاقتدى بهن خلافهن وخرجوا أيضاً ومعهم طبول وبيارق.."[٢٠]

ومن أمتع ما كتبه نقولا ترك عن أحداث ذلك الزمان:

"فى خامس يوم من شهر جماد آخر سنة ١٢١٨ بدأ يقل وجود الحنطة فـى المحلات والمواد والمواضع التى تباع فيها وبدأ يقل وجود العيش فى الأسـواق ودكاكين الخبازين وسبب ذلك أن السناجق والكشاف ابتدوا يشـترون الحنطـة الواردة من الصعيد ويخزونها وبعضهم كانوا كلما حضر مركب مـن الصـعيد مملواً حنطة فكانوا يضعوا يدهم عليه ويأخذوه من غير ثمن ولا أعطا حق وكان بذلك كرب عظيم وكانت **النساء والأولاد الفقراء والمسـاكين** حينمـا يـروهم يأخذوا الحنطة والفول والشعير يخزنوه أمام أعينهم وهم لا يقدروا أن يشـتروا يرجعوا فى قففهم وزنابيلهم خايبين الأمل فكانوا يدعون عليهم ويشـتمونهم فـى وجوههم ويقولوا لهم ياليتكم ما دخلتم بالسلامة إلى مصر جيتم لكى تهلكونا مـن الجوع، وتحجزوا عنا القوت وتتركونا نموت فانشا الله **لا ننهبه إلا من بيـوتكم ولا نأكله إلا من بعد موتكم** وكانت الغز تسمع هذه الشتايم والمسبات ويصممون آذانهم ولا يلوون عنانهم، وكانت قلوبهم قاسية جداً على الرعايا والسبب فى ذلك أن رعايا القطر المصرى هم كثيرون فى العدد وقليلون فى الجلد وسريعون فى الميلان **وألسنتهم مرة وألفاظهم مضـرة** يخافون ولا يستحون وكانوا يكرهـون دولة المماليك طبعاً وكانت الغز تعلم ذلك، فلهذا السـبب كـانوا يتمنـون لهـم المضرة والوقوع فى المهالك"[٢١].

ومع تعدى طوائف العسكر وازدياد المظالم والفرد وقبض مـال الميـرى المعجل وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالـدعاوى الكاذبـة، انضـمت بعض جحافل هذه الجماعات الهامشية الفقيرة إلى تحركات العـوام وأصـحاب الحرف والطلاب والعلماء كانت صرخات هؤلاء المدوية أمام بيت القاضى فـى

أحداث "١٢ صفر الخير ١٢٢٠هـ - ١٢ مايو ١٨٠٥"[٢٢] حيث ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به الكثير من **المتعممين والعامة** والأطفال حتى امـتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بقولهم:

- شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم.
- يا لطيف
- يارب يا متجلى أهلك العثملى
- حسبنا الله ونعم الوكيل

الذى لاشك فيه تاريخياً أن تحركات "العوام" هذه لم تكن بأى حـال مـن الأحوال بعيدة عن تلاحم جماعات هامشية بهم بعضها وجد فى التظاهر متنفسـاً له والبعض الآخر وجد فى النهب والسلب وسيلة مـن الوسـائل لـدفع الفاقـة والحرمان عنهم، هؤلاء هم الذين وصفوا آنذاك بأوصاف أسافل وأراذل العامـة وأوباش وأوغاش الناس.

هذا ما أكده الجبرتى فى أكثر من موضع من عجائبه، على نحو ما حـدث فى غرة رمضان ١١٩٩هـ (٨ يونيه ١٧٨٥):

"ثارت فقراء المجاورين والقاطنين بالأزهر وخرج العميان والمجـاورون يرمحون بالأسواق ويخطفون ما يجدونه من الخبز وغيره وتـبعهم فـى ذلـك الجعيدية وأراذل السوقة".

هوامش وإحالات الفصل التاسع

(١) انظر: محمد نور فرحات (د): المجتمـع والشـريعة والقـانون، ص ١٨٣ وكذلك دراسة أحمد صادق سعد: تاريخ العرب الاجتماعى. تحول التكـوين المصرى من النمط الآسـيوى إلـى الـنمط الرأسـمالى (ص١٥٩-١٦١، ص٢٠٣) حيث يتحدث عن دور هذه الجماعات فى إطار تحركات العوام منذ بدايات العصر العثمانى وخاصة الدور الذى قام به الزعر فى معاونة الوالى أحمد باشا (الخائن عام ١٥٢٤. إلى تحركاتهم فى ظـل انتفاضـات ١٦٣٥، ١٦٧٧، ١٦٧٨، ١٦٨٧، ١٦٩٤، ١٧١٦، ١٧١٨، ١٧٢١، ١٧٨٦، ١٨٢٤، ١٨٢٥، ١٨٣١، وصولاً إلى دور هذه الجماعات التى أطلق عليهـا البعض (الكتلة النكرة) قبيل وأثناء الحملة الفرنسية وبصفة خاصة ذكر أحداث نجاح زعر الحسينية عام ١٢٠٩هـ فى عزل أحمد أغا صـاحب الشـرطة ومشاركة الجعيدية والزعر فى أحداث عام ١٢٠٩ فى تلك الانتفاضة الشهيرة احتجاجاً على مظالم المماليك والتى انتهت بكتابة الحجة.

وكذلك دراسة الدكتور محمد رجـب النجـار حـول (حكايـات الشـطار والعيارين فى التراث العربى) والذى خصص صفحات (١٧٨- ٢٢٩) لدراسـة (فتوة الحرافيش والزعار والعياق فى مصر) والذى ركز على دورها الـوطنى البطولى وبصفة خاصة زمن الحملة الفرنسية.

(٢) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخـامس، صـفحات: ٦٩، ١٢٦، ٢٧٩-٢٨٠، ٣١٧-٣١٨، ٤١٦، ٤٦٦.

(٣) ميخائيل شاوربيم بك: الكافى، الجزء الثالث، ص٩٨، ص١٠١، ص١٠٤.

(٤) أحمد شلبى بن عبدالغنى: أوضح الإشارات، ص١٩٨.

(٥) أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان: كتاب الدرة المصانة فى أخبـار الكنانـة، ص٧٧.

(٦) نفس المرجع، ص١٤١.

(٧) يوسف الملوانى: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب دراسة وتحقيق: عماد هلال - عبدالرازق عيسى، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٨) أحمد شلبى بن عبدالغنى: مرجع سابق، ص٣١٥.

- أشير إلى أهمية الدور الذى لعبته (الغوازى) فى الحياة العامة فـى مصـر العثمانية، علينا أن نتذكر ما ذكره ابن إياس فى بدائع الزهور عن صـورة قاضى عسكر الذى أتى إلى مصر واتخذ بعض الإجراءات الصارمة منهـا منعه خروج النساء من المنازل، وعندما خرج من مصر غنت (الغـوازى) هذا المقطع:

قوموا بنا نقحب ونسكر　　　　قد خرج عنا قاضى عسكر

(٩) المرجع السابق، ص٥٧٦، ص٥٨٨، ص٥٩٥.

(١٠) نفس المرجع، ص ٤٣٣-٤٣٤.

(١١) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الثانى، ص١٢.

فى هذا الجزء الثانى (ص١٣٤-١٣٥) يتحدث الجبرتى عن أحداث غـرة رمضان ١١٩٩هـ (٨ يوليه ١٧٨٥) عندما ثارت فقراء المجاورين والقـاطنين بالأزهر وخرج العميان والمجاورن يرمحون بالأسواق ويخطفون ما يجدونه من الخبز وغيره وتبعهم فى ذلك "الجعيدية وأراذل السوقة".

(١٢) نفس المرجع، الجزء الثالث، ص٤٦٦.

- أشير إلى أهمية الدور الذى لعبته مآذن ومنارات الجوامع فى الحياة السياسية والاجتماعية لمصر العثمانية ويكفى هنا أن نذكر القارئ بما كتبه عبدالعزيز البشرى "تقاليد الفن فى مصر" من كتاب (قطـوف "٢") الطبعـة الأولـى، ديسمبر ١٩٤٧، ص ٩٥-١٠٠:

(أهازيج السحر التى تتقدم آذان الفجر، وهى أناظيم فيها اسـتغفار وفيهـا تشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم وفيها توسل بآل بيتـه تسـليمات الله علـيهم ويدعوها العامة الأوله، هذه كان لها فى القاهرة تقليد جميل.. مما يؤكد على أن

أهل مصر أو سكان القاهرة على الأقل كانوا أصحاب فن وأهل ذوق وعشـاق تطريب: "حدثنى الثقات الصادقين من مشيخة القارئين أن جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا إذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو الأوله وقفوا وقد ارهفـوا آذانهم وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم فإذا جلجـل مـؤذن الشـيخ صالح بنغمة الرصد مثلاً، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالصياح بها وأخذ أخذهم مجاوروهم ومن تقع للأسماع أصواتهم وهكذا فلا تمضى دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد وإذا بدأوا بالبياتى أو بالحجاز أو بالسيكاه...إلخ".. فهكذا وما شاء الله كان).

(١٣) عبدالرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، ج٢، ص٣٠٢.

(١٤) نفس المرجع، ص ٣٨٩-٣٩٠.

(١٥) نفس المرجع، الجزء الثالث، ص ١٦.

(١٦) عبدالرحمن الجبرتى، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، ص٦٨.

(١٧) نفس المرجع، ص ٧٨.

(١٨) عبدالرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص ١٥٧.

(١٩) عبدالرحمن الجبرتى، مظهر التقديس، ص ١٧٣.

(٢٠) عبدالرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص ٤٤٣-٤٤٤.

- يصف الجبرتى البرديسى (عجائب الآثار، الجزء الرابع، ص ٦١) بأنه كان ظالماً غشوماً طائشاً سئ التدبير وقد أوجده الله جل جلاله وجعله سبباً لزوال عزهم ودولتهم واختلال أمرهم.

(٢١) راجع: مذكرات نقولا ترك، نشرها جاستون فييت، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٠، ص١٥٤.

(٢٢) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص٥٢٠.

ملاحق الدراسة

الملحق الأول

أسطر عن الزعر والصبيان الشطار والعياق ومحاولة نشل في السنوات الأولى من مجئ ابن عثمان مصر (١٥١٧م)

محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الـدهور، الجـزء الخامس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامـة للكتـاب، القاهـرة ١٩٨٤، صفحات: ١١٩-١٢٠، ١٤٠-١٤١، ٢٧٣.

الملحق الثانى

لا أسرع حركة من النشالين ولهم حكايات عجيبة فى النشل

الشيخ يوسف المغربى: دفع الأصر عن كلام أهـل مصـر، تحقيـق الدكتور عبدالسلام عواد، دار النشر "العلم"، إدارة التحرير الرئيسـية للآداب الشرقية، موسكو ١٩٦٨، ص٢٠١.

الملحق الثالث

النشال هو المختلس من اللصوص

محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية بمنشأة بجمالية مصر المحمية سـنة ١٣٠٦هـ ـ، "مـادة نشـل"، ص١٣٦.

الملحق الرابع

على بك الكبير وأبطال مظالم النشالين والحرامية والعيارين (١٧٦٨م)

عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبـار، تحقيـق الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحمن، الجـزء الأول، مطبعـة دار الكتـب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨، ص ٤٨٦.

الملحق الخامس

قُطّاع طرق .. مناسر .. بلطجية

الشيخ خليل بن أحمد الرجبى: تاريخ الوزير محمد على باشا، تحقيق دانيال كريسيليوس، حمزة عبدالعزيز، حسام الـدين إسـماعيل، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٧، صفحات ٧٢-٧٤، ١٦٦-١٧٤.

الملحق السادس

المشاديد (الفتوات – الجدعان)

على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القـاهرة، الجـزء الثانى "خطط القاهرة وشوارعها ودروبها وحاراتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ٢٤٣.

الملحق السابع

قاموس لملاحن النشالين والحرامية
وضعه وجمعه بالقاهرة سنة ١٩١٦

محمد لطفى جمعه: مباحث فى الفولكلور، شـركة الأمـل للطباعـة والنشر، القاهرة ١٩٩٩، ص ١٣٣-١٤٠.

الملحق الثامن

أحد النشالين المحترفين يتبرع لثورة ١٩١٩

عبدالفتاح يونس: "زكى المهندس يحكى عن ثورة ١٩ وطه حسين وطربوشه الأثير!"، الأهرام الأدبى، جريدة الأهرام ١٧ ديسمبر ٢٠٠٢، ص ٣٤.

الملحق التاسع

الشطار (النشالون) والامتناع عن النشل أثناء احتفال عامة الشعب بالإفراج عن سعد باشا (١٩١٩)

أحمد شفيق باشا: حوليات مصر السياسية، تمهيـد، الجـزء الأول، مطبعة شفيق باشا، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٢٦، ص ٣١٣.

الملحق العاشر

لائحة النشالين .. شر البلية ما يضحك

مجلة كاريكاتير، العدد الخامس، ٩ يناير ١٩٩١، ص ٢٧. نقلاً من مجلة (خيال الظل ١٩٢٥).

الملحق الحادى عشر

مذكرات فتوة ليست حديث فكاهة فقط، بل صفحة من تاريخ وعادات هذا الفريق من العوام

المعلم يوسف أبوحجاج: مذكرات فتوة، المطبعـة العربيـة بمصـر ١٩٢٧، ص٨-١١، ص٣٢.

الملحق الثانى عشر

مذكرات نشال – صورة من أخلاق
وعادات النشالين وحيلهم وأساليبهم فى النشل

المعلم عبدالعزيز النص: مذكرات نشال، المكتبـة الملوكيـة بمصـر ١٩٣٠، ص١١-١٧.

الملحق الثالث عشر

الفتوات – العصبجية – المشاديد
وآداب العراك فى الجيل الماضى

حديث للبشرى أذيع بالراديو فى ٢٩ ديسمبر ١٩٣٤ ونشر بالجهـاد بعد ذلك: عبدالعزيز البشرى: المختار، الجزء الثانى، دار المعـارف بمصر ١٩٥٣، ص ١٣١-١٣٧.

الملحق الرابع عشر

حيل اللصوص وأكثرهم تحايلاً هم النشالون

محمد شاهين (مأمور بالسجون المصرية): كفاح الجريمة، المطبعـة المتوسطة بمصر ١٩٣٦، ص ١٠٠-١٠٧.

الملحق الخامس عشر

صفحات من حياة أحمد أمين وذكرياته عن معارك الفتوات

أحمد أمين: حياتى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القـاهرة ١٩٥٠، ص٢٦، ص ٣٣-٣٤.

الملحق السادس عشر

النشالين والمناصرة

بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٣)، بيرم والناس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص ٥٣-٥٦.

الملحق السابع عشر

النشـــل فـــن جميـــل

روزاليوسف: العدد ١٢٠٨، ٧ أغسطس ١٩٥١.

الملحق الثامن عشر

مـــن آداب النشـــل

الدكتور السعيد مصطفى السعيد: من أدب الجريمـة، دار المعـارف بمصر ١٩٦٤، ص ٢١-٢٣.

الملحق التاسع عشر

قيم الفتونة بين الرؤية والرؤيا الروائية

نجيب محفوظ: ملحمة الحرافيش (الملحمة الأولى: عاشور النـاجى، الملحمة العاشرة: التوت والنبوت، المؤلفات الكاملة، المجلد الرابـع، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٣، ص ٧٣٦، ص ٩١٧-٩١٨.

الملحق العشـرون

ضحكات ساخرة عن "النشل" فى نماذج من الكاريكاتير المعاصر

ضحكات بهجت: كتب الهلال للأولاد والبنات، العدد (٣٢)، ١٠ يناير ١٩٨٦، ص ٧٢، كاريكاتير طوغان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦، ص ٩١، ونماذج من ملحق أيامنا الحلوة، جريـدة الأهرام، مارس ٢٠٠٢ – يناير ٢٠٠٣.

الملاحـق

ذو المقعدة سنة ٩٢٢

وفى يوم الأربعاء تاسعه حضر دوادار خاير بك نائب حلب وزعم أنه قـد فر من ابن عثمان، فأخبر أن ابن عثمان أرسل عسكراً نحو خمسة آلاف صحبة ابن سوار وقد أشرقوا على أخذ مدينة غزة، بل أشاعوا أخذها، وأن نائب غـزة قد هرب. فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار وتنكد السلطان إلى الغاية، ونادى فى ذلك اليوم بأن العسكر المعين للسفر ممن أخذ النفقة يخرجون[1] فى ذلك اليـوم من غير تأخير، ومن تأخر لا يسأل ما يجرى عليه.- فلما كان يـوم الخمـيس عاشره خرج العسكر على وجوههم مسرعين، وأشيع سفر السلطان بنفسه وأنـه هو الذى يلاقى ابن عثمان، وصحبته الأمراء قاطبة وسائر العسـكر. وحضـر صحبة دوادار نائب حلب أمير كبير غزة وهو فى الحديد، وجماعة مـن أجنـاد الحلقة بغزة وهم فى الحديد، وأرسل نائب غزة يرافع فيهم بـأنهم كـاتبوا ابـن عثمان بأن يحضر إلى غزة ويملكها من غير مانع، فلما حضـروا بـين يـدى السلطان حلفوا له أن هذا الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا ابن عثمان وإنما دولات باى نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ نفس، فكذب عليهم بهذه التهمة (٦٢ب) الباطلة، فصدقهم السلطان على ذلك، وأرسل جان بردى الغزالى نائـب الشـام يشفع فيهم ويبرؤهم مما قالوه فى حقهم بالباطل، ففكهم السـلطان مـن الحديـد وأرسلهم إلى نقيب الجيش حتى يتبصر فى أمرهم. وفى يوم الخمـيس المقـدم ذكره أخلع السلطان على الأمير يوسف البدرى الذى كان وزيراً وقرره نـاظر الذخيرة الشريفة ووكيل بيت المال، عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكـم انفصاله عنها. وفى يوم الجمعة حادى عشرة تزايد أمر الإشـاعات بـأن ابـن عثمان أرسل إلى غزة عسكراً صحبة جماعة من أمرائه، منهم شخص يسـمى اسكندر باشاه وآخر يسمى داوود باشاه، وآخرون من أمرائه، وأشيع بـأنهم قـد ملكوا مدينة غزة وأحرقوا منها بعض بيوت، وأن نائب غزة هرب، وعسكر ابن عثمان زاحف على مصر، وأن الأحوال غير صالحة. فلما يحقق السلطان [من]

---

(١) يخرجون: يخرجوا.

هذه الأخبار أشيع أنه يخرج إلى لقاء ابن عثمان بنفسه، ونادى فى ذلك اليوم بأن الزى والصبيان والشطار والمغاربة وكل من كان مختفياً على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه أمان الله والعرض لهم فى الميدان، وأن السلطان يصرف لهـم الجوامك والمركوب، ويكونون[٢] صحبة الزر دخاناه إذا سافر السـلطان. فلـم تعجب الناس هذه المناداة لقوله: ولو كانوا قد قتلوا القتلاء يظهرون[٣] وعلـيهم أمان الله، فكان السكوت عن هذا أجمل. فاضطربت الأحوال فـى ذلـك اليـوم واربجت القاهرة وخرج العسكر المعين للسفر على وجومهم مسرعين. وفى ذلك اليوم خرج الأمير خداير دى الإشرفى أحد المقدمين الذى كان نائب الإسكندرية، فخرج فى موكب حفل بغير طاب، وقدامه الجنايب الحربيـة، وصـحبته الجـم الغفير من مماليكه، وقيل كان عنده نحو ثلاثمائة مملوك، فارتفعـت الأصـوات (٦٣آ) بالدعاء من الناس قاطبة للعسكر بالنصر على ابن عثمان، وقد صـارت الناس فى وجل بسبب ابن عثمان.

وفى يوم السبت ثانى عشره جلس السلطان على التكة بالحوش وحضـر الأمراء، فاستحثهم السلطان على أن يخرجوا كلهم فى ذلك اليوم فقـال الأميـر طقطباى حاجب الحجاب: أنا عزمت على السفر إلى البحيرة. وكـان السـلطان جعله متحدثا فى كشوفية البحيرة، فقالوا الأمراء: الخروج إلى قتال ابن عثمـان أوجب من البحيرة وأنت ما خرجت صحبة السلطان الغورى لما سافر ولا نهب لك برك ولا قماش. فتعلل أنه ضعيف، فحصل بينه وبين الأمراء فى ذلك اليـوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان، وقصد المماليك الجلبان أن ينزلوا ينهبـوا بينـه ويحرقوه، وقيل إن بعض المماليك لكمه، وقاسى من البهدلة ما لا خيـر فيـه، فتقرر الحال على أنه يخرج إلى التجريدة صـحبة الأمـراء، ومنـع السـلطان المماليك من نهب بيته. وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة.

وفى ذلك اليوم خرج قايتباى نائب حماة الذى قرر بها عوضا عن جـان بردى الغزالى، فخرج بطلب حربى. وفى ذلك اليوم خرج الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين وطلب طلباً حربياً، وكان قدامه جنايب وطبلان وزمـران وعلـى

---

(٢) ويكونون: ويكونوا.
(٣) يظهرون: يظهروا.

رأسه صنجق، هذه السنة توفى الشهابى أحمد بن الأمير أسنبغا الطيـارى رأس نوبة النوب كان، وكان الشهابى أحمد من أعيان أولاد الناس الرؤساء[٤]، وكـان حشما ريساً لا بأس به ومات وله من العمر ما قارب التسعين سنة، وكـان مـن المعمرين فى الأرض.

وفى يوم الخميس ثانى عشرة وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد خـرج من غزة، وأن أوائل عسكرة قد وصل إلى العريش. وأشيع أن السـلطان رسـم بحفر خندق من سبيل علان إلى الجبل الأحمر وإلى آخر غيطان المطرية، ثم إن السلطان نصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل معمـرة فيهـا بالمـدافع، وصف حولها العربات الخشب التى صنعها بالقلعة كما تقدم ذكر ذلـك، ثـم إن السلطان رسم للأمير ماماى الصغير المحتسب بأن ينادى فى القـاهرة للسـوقة وأرباب البضائع (٧٣ب) من الزياتين والخبازين والجبـانين واللحـامين بـأن يتحولوا ببضائعهم إلى الوطاق عند تربة العادل، وينشئوا هناك سـوقا ويبيعـوا على العسكر الذى هناك. ثم إن السلطان رسم للوالى بأن ينـادى فـى القـاهرة للعسكر الذى تأخر بأن يخرج إلى الريدانية ولا يتـأخر مـنهم أحـد، فنـادت المشاعلية فى الحارات والأزقة بأن المماليك السلطانية تخرج فى ذلك اليوم إلى الوطاق، وكل من تأخر منهم يشنق على باب داره من غير معاودة، وجعل يكرر المناداة فى ذلك اليوم مرتين، فإنه[٥] قد بلغ السلطان أن جماعة مـن المماليـك السلطانية صاروا يتوجهون[٦] إلى الوطاق فى باكر النهار حتى ينظرهم السلطان ثم يرجعون إلى بيوتهم ويباتون[٧] بها، فشق ذلك على السلطان وحجر عليهم بأن يباتوا بالوطاق فى كل ليلة.

وفى يوم الجمعة ثالث عشر ينه وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل أوائله إلى قطيا، فاضطربت أحوال الناس لذلك. وفى يوم السـبت رابـع عشر ينه عرض السلطان الزعر بالوطاق، فاجتمع منهم الجم الغفير، فأوعـدهم

---

(٤) الرؤساء: الريسا.
(٥) فإنه: فإن.
(٦) يتوجهون: يتوجهوا.
(٧) يباتوا: يباتون.

السلطان أنه إذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب وانتصروا[8] عليهم ينفق على كل واحد منهم عشرة أشرفية، وينعم على كل واحد منهم بسـيف وتـرس، ورسـم للأمير أنصباى أمير آخور كبير بأن يصلح بين زعر الصلبية وزعر المدينـة. وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان اهتم بعمل حائط يستر بها على المكاحل التـى نصبها فى الريدانية، وأشيع أن السلطان جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين، فلما رأوا العسكر أن السلطان حمل الحجارة بنفسه، فصارت المماليك يحملـون الحجارة ويشيلون التراب مع الفعلة فى حفر الخندق وعمل الحائط التـى تسـتر (٧٤آ) على المكاحل. ثم وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصـل إلـى بلبيس.

وفى يوم الأحد خامس عشر ينه حضر الأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية، وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان، فلمـا وصل إلى الصالحية رأى جماعة من عسكر ابن عثمان قد وصلوا إلى هنـاك، فقبض على شخصين منهم وحز رءوسهما وأحضر بهما إلى بين يدى السلطان، وكان صحبة تلك الرءوس شخص من أبناء حلب من جماعة خاير بـك حلـب الذى خامر على السلطان الغورى والتف على ابن عثمان، فما وقف بـين يـدى السلطان طومان باى اخبره أن الواصل إليه خاير بك حلب وصحبته ابن سـوار وصحبته جماعة من أمراء ابن عثمان، وأن هذا الجاليش فيه من عسـكر ابـن عثمان ثمانية آلاف فارس وقد بطلت خيولهم من التعب والجـوع، وأن الغـلاء موجود فى عسكره. ووجدوا مع ذلك الرجل الحلبى عدة مطالعات من عند خاير بك نائب حلب إلى الأمراء المقدمين الذين[9] بمصر، فأخذ السلطان المطالعـات الذى كانوا[10] معه ووضع ذلك الرجل الحلبى فى الحديد.

وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل إلى بلبيس نـادى لأهـل بلبـيس بالأمان والاطمان، وأن أحداً من العثمانية لا يشوش على أحد من أهل بلبيس ولا ما حولها من الضياع، فدعوا له أهل بلبيس والفلاحين قاطبة. ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى العكرشة، فلما تحقق السـلطان ذلـك أراد أن يخـرج

---

(٨) وانتصروا: وانتصر.
(٩) الذين: الذى.
(١٠) الذى كانوا: كذا فى الأصل.

بالعسكر ويلاقيهم من هناك فلم تمكنه الأمراء من ذلك، ولو لا قاهم مـن هنـاك لكان عين الصواب.

ومن هنا نرجع إلى أخبار ابن عثمان، فإنه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف اقام به إلى يوم الثلاثاء رابع المحرم، فلما كـان ليلـة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء، لم يشعر ابن عثمان إلا وقد هجم عليه الأشرف طومان باى (٨٠ب) بالوطاق واحتاط به، فاضطربت أحوال ابن عثمان إلى الغاية، وظن أنه مأخوذلا محالة، وأشيع أنه هجم عليه بجمال وهى محملـة ساسا وأطلق فيها النار، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان، ووقع فـيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر بن عثمان ما لا يحصى عددهم، واجتمع هناك الجم الغفير من الزعر وعياق بولاق من النواتية وغيرها وصـاروا يرجمـون بالمقاليق[١١] وفيها الحجارة، واستمروا على ذلك إلى أن أطلع النهـار فلاقـاهم الأمير علان الدوادار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير، فكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك وقعة تشيب منها النواصى، فملكوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وغلى قنطرة قد يـدار، واسـتمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر إلى بعد المغرب. وأشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية. ثم أن المماليك الجراكة صاروا يكسبون البيوت والحارات على العثمانية كما كانـت العثمانيـة تكبس البيوت والحارات على المماليك الجراكسة.

ومثلما تعمل شاة الحمى　　　فى قرض يعمل فى جلدها

فصاروا الأتراك كل من يظفرون[١٢] به من العثمانية يقطعـون رأسـه ويحضرون بها بين يدى السلطان طومان باى وصار الطالب مطلوب. فلما كان يوم الخميس سادس المحرم اشتد القتال بين العثمانية وبـبن الأتـراك، ونـادى السلطان فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن كل من قـبض علـى عثمان يأخذ عربة ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان. ثم إن العثمانيـة طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة والفيل وملكوها منهم، ثم طردوا الأتراك من

---

(١١) بالمقاليق: كذا فى الأصل، ولعلها "المقاليع".
(١٢) يظفرون: يظفروا. // يقطعون: يقطعوا. /// ويحضرون: ويحضروا.

الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها منهم. ثم إن الأتراك خرقوا عقد قنطرة قد يدار (٨١آ) خوفاً من العثمانية أن يهجموا إلى بلده إسطنبول، وهى القسطنطينية، فكذبهم الله تعالى فيما قالوه، ودخلها وأقام بها أياماً وبطلت أقوالهم الكاذبة، فكان كما يقال:

لا ترقب النجم فى أمر تحاول　　فالله يفعل لا جدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر　　فلا يضرك مريخ ولا زحل

وقيل بلغ الخند كار أن شاه إسمعيل الصوفى طرد عسكر ابن عثمان عن البلاد التى كان ملكها واستناب بها جماعة من العثمانية، فطردهم الصوفى عن بلاده واستخلصها من أيديهم، فلما بلغ ابن عثمان ذلك (١٤١ب) خرج من إسطنبول مسرعاً وأقام بأدرنة حتى يرى ما يكون من أمر شاه إسمعيل الصوفى، هكذا أشيع بين الناس، والله أعلم بحقيقة ذلك. وفى يوم الخميس ليلة الجمعة عشرين شهر رمضان صنع له الزينى بركات المحتسب مسايرة حفلة، وركب معه جماعة من أعيان المباشرين، فشق من القاهرة بعد صلاة العشاء بأربعين درجة وقدامه أنكشارية وقواسة مشاة، وفوانيس ومشاعل كثيرة، فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان، وارتفعت له الأصوات من العوام بالدعاء، وكانت من الليالى المشهودة، وارتجت له القاهرة فى تلك الليلة، وكان محبباً للناس قاطبة.

وفيه وقع من الحوادث أن شخصاً من العثمانية كان فى خان الخليلى، فقبض على شخص من العوام وزعم أنه قد سرق من جيبه أربعة أنصاف، فلما قبض عليه طلع به إلى ملك الأمراء، فلما أوقفه بين يديه وقص عليه قصته وما فعله به فى خان الخليلى، وأنه قبض على يده وهى فى جيبه، وأخذ من جيبه وهو ماش[١٣] أربعة أنصاف، فلما سمع ملك الأمراء ذلك رسم للوالى بأن يقطع يده، فقطع يده وعلقها فى رقبته وأشهره فى القاهرة، فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف وقد راح ظلما. وقد تقدم لملك الأمراء أنه شنق شخصاً على عيدان خيار شنبر سرقها من جنينة فى زقاق الكحل، فشنقه على

(١٣) ماش: ماشى.

باب الجنينة وراح ظلما على عيدان خيار شنبر. وكان ملك

ملحق رقم (١) أسطر عن الزعر والصبيان الشطار والعياق ومحاولة نشل فى السنوات الأولى من مجىء ابن عثمان مصر (١٥١٧)

محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الزهور.. الجزء الخـامس. تحقيق محمد.

مصطفى الهيئة المصرية العامة للكتاب، القـاهرة ١٩٨٤، صـفحات: ١١٩-١٢٠، ١٤٠- ١٤١، ١٥٣- ٢٧٣.

ملحق رقم (٢)

يقولون فى السيد فلان ندل بالإهمال وإنما هو نزل بالمعجمة قال النـذل والنذيل الحنسيس الناس المحتقر فى جميع أحوال جمع انذال ونذول ونذلها ونذال ونذل ككرم نذالة ونزولة انتهى وتقدم فى مثل هذا أن .... أن يمثل بغير كرم كان يقول ونذل كفخ فأن النذل بعيد عن الكرم وتوافقا وأنا الندل بالمهملة فهـو الوسخ ندلت بين كفرح ويقولون منديل وللطيب مندل وكل همـا صـحيح قـال المنديل ما لكن والفتح وكمنبر الذى يمسح به وتندل به وتمندل لمسـح ومنـدل كمقعد الخف وبلاده بالهند والعودا واجون كالمندلى أو هو منسـوب إلـى البلـد وتقولون فلا نشال للمختلس وهو أى النشال فى اللغة عز هذا قال نشال كسـداد من يأخذ حرف الجردقة فليغمس فى القدر فيما كل دون أصحابة انتهى ويمكـن أن يؤخذ النشال بالمعنى المستعمل الآن من نشل الشىء أسرع نزعه والأسـرع حركة من الفشتالين ولم حكايات عجيبة فى النشل يطول شرحها وكذلك النشـل المستعمل فى اصطلاح الثقافى يقولون فلان نطل فى الضوء عليه ولم علم قـال ما ظفرت نباطل أى شىء ونطل الخمر عصرها والنطلة بالضم الجوعة والنبطل هو الرجل الداهية والطويل المذاكر فلفل قولهم فلان نطل أهـل نبطـل فحـرق يقولون جعلت للسرموجة فعل حديداً وليس لغوياً كما له الفعل ما وقيت به القـدم من الأرض كالنعلة وانتقل كبسها

ملحق رقم (٢) لا أسرع حركة من النشالين ولهم حكايات عجيبة فـى النشل.

الشيخ يوسف المغربى: دفع الأصر عن كلام أهل مصر.. تحقيق الدكتور عبـد السلام عواد دار النشر "العلم" إدارة التحرير الرئيسية للآداب الشرقية، موسكو ١٩٦٨، ص٢٠١.

فصل النون من باب اللام

منها نسلا وهو على حذف الجارى أى نسل بها أو منها وأن شدد كل مثل ولدها ونسل الثوب عن الرجل سقط نقله الجوهرى والنسولة كحلوبة وركوبة ما يتخـذ للنسل من أبل وغنم نقله الجوهرى والزمخشرى وهو مجاز وقـال أبـو زيـد النسولة من الغنم ما يتخذ نسلها ويقال ما لبنى فلان نسولة أى ما يطلب نسله من ذوات الأربع وعجيب من المصنف كيف أغفل هذا وقال اللحيانى هو أنسلهم أى أبعدهم من الجد الأكبر وأنسل الرجل حان أن ينسل أبله وغنمه وبه فسر قـول أبى ذؤيب

أعاشنى بعدك واد مبقل   آكل من حوذانه وأنسل

ويرى وأنسل والمعنى سمنت حتى سقط عنى الشعر وذئب نسول سريع العـدو قال الراعى

وقع الربيع وقد تقارب خطوه   ورأى بعقوته أزل نسولاً

والنسل محركة اللبن يخرج من الاحليل بنفسه نقله الجوهرى وقـال ابـن الأعرابى يقال فلان ينسل الوديقة ويحمى الحقيقة ووقع فى صدر كتاب الأربعين البلدانية للسلفى فى وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم أكرم مرسل وأطهر منسل ورجل عسال نسال أى سريع العدو والنسل من أودية الطائف كما فـى العبـاب (كناشلة) أى بالسين والشين والشين أكثر واقتصر عليه الجـوهرى ونقـل أبـو تراب عن بعض الأعراب فخذ ما شلة بهذا المعنى وقد تقدم (وقد نشات نشولاً) وكذلك الساق وقال بعضهم أنها لمنشولة اللحم (ونشل الشىء) ينشله نشلاً (أسرع نزعه) ومنه الحديث فأخذ بعضده فنشله نشلات أى جذبه جذبات كما يفعل مـن ينشل اللحم من القدر (و) نشل (المرأة) ينشلها نشلا (جامعها و) نشـل (اللحـم ينشله وينشله) من حدى ضرب ونصر (وانتشله) انتشالاً (أخرجه من القدر بيده بلا مغرفة) وفى الصحاح انتزعه منها وفى الحديث أنه مر على قـدر فانتشـل منها عظما أى أخذه قبل النضج (فهو نشيل) كأمير (ومنشل) وقال أبو حاتم ولا يكون من الشواء نشيل إنما هو من القدير وقال الشاعر

ولو أنى أشاء نعمت بالاً   وباكرنى صبوح أو نشل

(أو) نشل اللحم ينشله نشلاً (أخذ بيده عضواً فتاول ما عليه من اللحم بفيه) وهو النشيل (و) النشيل (كأمير ما طبخ من اللحم بغير تابل) يخرج من المرق وينشل قاله الليث (والفعل كالفعل) قال لقيط بن زرارة

أن الشواء والنشيل والرغف -والقينة الحسناء والكأس الأنف-للضاربين الهـام والخيل قطف

(و) النشيل (اللبن ساعه يحاب) وهو صريف ورغوته عليه قاله أبو زيد وأنشد

علقت نشيل الضأن أهلاً ومرحباً   بخالى ولا يهدى لحالك محاب

وقد نشل (و) النشيل (السيف الخفيف الرقيق) نقله ابن سـيده قـال وأراه مـن النشول وهو ذهاب لحم الساق (و) النشيل (الماء أول ما يستخرج من الركيـة) قبل حقنه فى الأ ساقى قال الأزهرى هكذا سمعنه من الأعراب قال ويقال نشيل هذه الركية طيب فإذا حقن فى السقاء نقصت عذوبته (والمنشلة المستحب تفقدها فى الطهارة) هو (ما تحت) حلقة (الخاتم من الإصـبع) عـن الزجـاجى وفـى الصحاح موضع الخاتم من الخنصر سميت بذلك لأنه إذا أراد غسله نشل الخاتم أى اقتلعه ثم غسله ويقال تفقد المنشلة إذا توضأت (وقول الجوهرى وهـو فـى الحديث وهم وإنما هو فى كلام بعض التابعين) قال شيخنا وكونه فى كلام بعض التابعين لا ينافى أنه حديث لاسيما وقد صرح بأنه حديث أكثر أئمة الغريب ابن الأثير وغيره انتهى، قلت وقد جاء فى حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال لرجل فى وضوئه عليك بالمنشلة (والمنشال) بالكسر (حديدة) فى رأسها عقافـة (ينشل بها اللحم من القدر كالمنشل) والجمع مناشل (و) منشال (فرس حجـرين معاوية) بن مالك بن ربيعة الأكرمين (ونشل ضيفك) وسوده ولوه و (سلفه) كله بمعنى واحد عن أبى عمرو (و) النشال (كشداد من يأخذ حرف الجردقة فيغمسه فى القدر فيأكله دون أصحابه) هذا هو الأصل ثم أطلق علـى المخـتلس مـن اللصوص، ومما يستدرك عليه أنشل اللحم من القدر انشالا انتزعه وقيل أنشـله انتهشه بفيه ونشله نشلاً جذبه وعضد منشولة دقيقة والنشول ذهاب لحم السـاق ونشل الرجل نشولاً قل لحمه وقال أبو تراب عن خليفه نشلته الحيـة ونشـطته بمعنى ونشيل كأمير قرية بمصر من أعمال الغربية منها الشمس محمد بن عبـد الرحمن بن محمد بن خليل بن أسد ابن الشيخ خليل الكردى النشيلى الشافعى أخذ

عن البلقينى وسمع على الحافظ ابن حجر وصحب الشيخ محمد الغمرى وجـده الأعلى الشيخ خليل صاحب الضريح بنشيل توفى بعد الستمائة ولـه كرامـات ذكرها المناوى فى طبقاته (النصل والنصلان) هكذا هو برفع النون والصـواب بكسرها ففى المحكم النصلان النصل والزج قال أعشى باهلة.

عشنا بذلك دهرا ثم فارقنا كذلك الرمح ذوا النصلين ينكسر

ملحق رقم (٣) النشال هو المختلس من اللصوص

محمد مرتضى الزبيدى أتاج العروس من جواهر القاموس المطبعـة الخيريـة بمنشأة بجمالية مصر المحمية سنة ١٣٠٦هـ (مادة نشل) ص١٣٦.

وفى ثامن عشر صفر[١٤]، أخرج على بيك جملة من الأمراء من مصـر، ونفى بعضهم إلى الصعيد، وبعضهم إلى الحجاز، وأرسل البعض إلـى الفيـوم، وفيهم محمد كتخذا تابع عبد الله كتخذا، وقر حسن كتخذا، وعبد الله كتخذا تـابع مصطفى باش اختيار مستحفظان، وسليمان جاويش، ومحمد كتخـذا الجردلـى وحسن أفندى الباقرجى، وبعض أوده باشية، وعلى جريجـى، وعلـى أفنـدى الشريف جمليان.

وفيه[١٥]: صرف على بيك مواجب الجامكية.

وفيه[١٦]: أرسل على بيك، وقبض على أولاد سعد الخادم بضريح سـيدى أحمد البدوى، وصادرهم، وأخذ منهم أموالاً عظيمة لا يقدر قدرها، وأخـرجهم من البلدة، ومنعهم من سكناها، ومن خدمة المقام الأحمدى، وأرسل الحاج حسن عبد المعطى، وقيده بالسدنة عوضاً عن المذكورين، وشرع فى بنـاء الجـامع، والقبة والسبيل والقيسارية العظيمة، وأبطل منها مظالم أولاد الخـادم والحمـل والنشالين والحرمية والعيارين[١٧]، وضمان البغايا والخواطئ وغير ذلك.

وفى تاسع شهر ربيع الأول[١٨]: حضر قابجى من الديار الرومية بمرسوم، وقفطان وسيف لعلى بيك من الدولة.

وفيه[١٩]: وصلت الأخبار بموت خليل بيك الكبير بثغر سكندرية مخنوقاً.

وفى يوم السبت ثانى عشره[٢٠]، نزل الباشا إلى بيت على بيك باسـتدعائه، فتغدى عنده، وقدم له تقادم وهدايا.

وفى يوم الأحد ثامن عشر ربيع الآخر[٢١]، اجتمع الأمراء بمنزل على بيك على العادة، فيهم صالح بيك، وقد كان على بيك بيت مع أتباعه على قتل صالح

---

(١٤) ١٨ صفر ١١٨٢هـ/ ٤ يولية ١٧٦٨م.
(١٥) ١٨ صفر ١١٨٢هـ/ ٤ يولية ١٧٦٨م.
(١٦) ١٨ صفر ١١٨٢هـ/ ٤ يولية ١٧٦٨م.
(١٧) العيارين: الشطار، الفتوات، الجعيدية.
(١٨) ٩ ربيع الأول ١١٨٢هـ/ ٢٤ يولية ١٧٦٨م.
(١٩) ٩ ربيع الأول ١١٨٢هـ/ ٢٤ يولية ١٧٦٨م.
(٢٠) ١٢ ربيع الأول ١١٨٢هـ/ ٢٧ يولية ١٧٦٨م.
(٢١) ١٨ ربيع الأول ١١٨٢هـ/ ٢٧ يولية ١٧٦٨م.

بيك، فلما انقضى المجلس، وركب صالح بيك، ركب معه محمد بيـك، وأيـوب بيك، ورضوان بيك، وأحمد بيك بشناق، المعـروف بـالجزار، وحسـن بيـك الجداوى، وعلى بيك الطنطاوى، وأحدق الجميع بمصالح بيك، ومن خلفهم.

ملحق رقم (٤) على بك الكبير وأبطال مظالم النشالين والحراميـة والعيـارين (١٧٦٨).

عبد الرحمن الجبرتى: أعجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، الجزء الأول، مطبعـة دار الكتـب المصـرية بالقـاهرة ١٩٩٨، ص ٤٨٦.

(ص١٧) وتارة تسير المركب فى وسط البحر إذا كان متسعاً، فإذا طلع عليهم الفلاحون أو العرب ونادوا عليهم أن يأتوا للسير الذى هم وقوف[٢٢] به لا يجيبونهم فيضرب الفلاحون الرصاص من مكاحلهم على المركب ومن فيها ويصيحون عليهم وينتشرون فى البر كالجراد ويكثرون من الصياح وضرب البارود بالرصاص، فيضربون عليهم من المركب المدفع والبارود فيرجعون هاربين وهم يشتموا ويصيحوا وتارة يشتد الحال ويكثر الرجيف على أهل المركب ويكون البارود الذى يأتيهم من السير كثير، وتارة يموت أناس وينجرح أناس من هؤلاء ومن هؤلاء فيؤل الأمر إلى بذل دراهم فيدفعونها لهم ويتركوهم يمضوا فى طريقهم، وتارة يكون البحر نازلاً هابطاً كعادته فى عقب الشتاء فيتكاثر الفلاحون أو العرب وينزلون بالخيل فى البحر فى جهات معلومة ويأخذون المركب بما فيه من أموال ومتاجر ويقتلون من فيها، ولا يسأل أحد من الأمراء فى ذلك[٢٣]، بل للأمير قسم فيه ونصيب مقدر (ص ١٨) يأخذه، وكذلك كان البر فى كل جهة منه طوائف من الفلاحين يسمى الرجل نفسه شيخ العرب الفلانى وله رجال ينهبون فى الطرق، وكثر ذلك وعم أقطار مصر كلها، فحصل الخلل الكبير واضطرب أمر القطر اضطراباً عظيماً حتى وصلت العرب إلى اليزبكية وإلى الحسينية ووقع القتل والسلب خارج باب الشعرية وعند المذبح السلطانى[٢٤] وتحت القلعة من جهة الجبل وخارج باب القرافة[٢٥] وباب الغريب

---

(٢٢) فى نسخة [دار الكتب] "واقفون".

(٢٣) بالرغم من أن كل قرية تقع على النيل فى مصر كان بها خفراء مسئولون عن الإبلاغ عن قوارب اللصوص، وذلك حماية للإيجار النهرى، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لحماية المراكب من خطر الاعتداء على الأنفس والممتلكات، فقد كانت لمثل هؤلاء اللصوص حيلهم فى سرقة المراكب النيلية. أنظر: نيبور، كارستين: رحلة إلى مصر ١٧٦١ – ١٧٦٢م، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة سنة ١٩٧٧، ص ١٢٥ – ١٣٧.

(٢٤) **المذبح السلطانى**: كان يقع فى منطقة الحسينية، عند ميدان الجيش الآن. أنظر: البكرى، محمد بن أبى السرور، ت سنة ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م: قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٧ جغرافياً، ورقة ١١٤ (أ)؛ الجبرتى: عجائب الآثار، ج٣، ص ٣٤١، ج٤، ص٢٧٠؛ على مبارك: الخطط، ج١، ص١٠٣، ج٢، ص٤.

(٢٥) **باب القرافة**: يقع عند نهاية سور بحرى العيون من جهة القلعة، عرف أيضاً بباب الخولى لقربه من زاوية الخولى، كما عرف أيضاً بباب قايتباى لتحديده له. السكرى على بن جوهر: الكوكب السيار إلى قبور الأبرار، تحقيق محمد عبد الستار عثمان، سوهاج سنة ١٩٩٢، ص٤٣ – ٤٤.

عند الأزهر[٢٦]، وكثر ذلك جداً، وكان الذى يتوجه إلى بولاق يسأل أى الطـرق أحسن فى هذه الجمعة، فيقال طريق باب اللوق[٢٧]، وأحذر أن تتوجه من طريق القنطرة عند المغربى[٢٨] فإن التعدى هناك، وكذا يقال فى طريق مصر العتيقة، وساير[٢٩] الجهات، وإزداد الأمر فى ذلك حتى كانت الحارات بإطارف مصـر كالأزهر ونواحيه ودواير خط الحسين والحسينية والباطليـة والعطـوف ودرب النوبى وغيرهم من سائر نواحى أطراف مصر يأتيهم بالليل ناس من الفلاحـين والعرب يقال لهم المنسر وبأيديهم تارة شعل مضيئة بالنـار فيصـعدون إلـى الحارات (ص١٩) وينهبون البيوت ويقتلون ويجرحون، وكانت أهل المحـلات على الدوام مستحضرين ومستعدين بالبارود والسلاح ويسهرون بالدور خوفاً من طرق المنسر، وبالجملة فقد كان ذلك أمراً صعباً مهولاً، والأمر نيام فى بيـوتهم يسمعون ذلك ولا تأخذهم حمية فى الدفع عن الرعية، وزاد الأمر فى مثل هـذه الأشياء حتى صار الناس بحيث لا يقدرون على المشى ليلاً فى طرق مصر إلا أن يكون ثلاثة أو أربعة أو خمسة رجال ومعهم النور مع الاحتراس على أنفسهم بالمساوق ونحو الشماريخ المعروفة، وسبب ذلك أنه ظهر بالطرق بالليل رجـال يقال لهم البطحجية ومعهم أشياء يضربون بها كل من كان ماراً منفرداً، وتـارة يضربون الاثنين ويأخذون من الناس ثيابهم وما معهم من الدراهم، حتى عمـت البلوى بذلك وكثرت هذه المعانى بمصر، فارتفع الأمـن وزاد الخـوف وكثـر الفسق، وكانت إذ ذاك الأمرا على ثلاثة أقسام: أمراء مصريون، وأمراً فلاحون، وأمراً من العرب، فكان الكلب من الفلاحين يجمع له مائـة رجـل أو مـأتين، وبعضهم يجمع الألف وبعضهم (ص٢٠) تكون جماعته ألفين وبعضهم أكثر من

---

(٢٦) **باب الغريب**: هو باب البرقية الذى بنى فى العصر الفاطمى فى السور الشرقى لمدينـة القاهرة، وموقعه عند جامع الغريب الذى بناه عبد الرحمن كتخذا (أثر رقم ٤٤٨) بجوار هـذا الباب.
الجبرتى:عجائب، ج٣: ص٩٣، ج٤، ص٣٤٦.
(٢٧) **طريق باب اللوق**: كان هذا الطريق يميد من قنطرة باب الخرق فشارع حسن الأكبـر الحالى فباب اللوق حتى شاطئ النيل المقريـزى: الخطـط، ج٢، ص١٤٧؛ علـى مبـارك: الخطط، ج٣، ص٦١.
(٢٨) **قنطرة المغربى**: كانت فى منطقة الأزبكية جهة شارع عدلى. الآن حيث مقـام الشـيخ المغربى. **الجبرتى**: عجائب، ج٣، ص٣٣، ج٤، ص٣٤٦؛ علـى مبـارك: الخطـط، ج٣، ص١١٨؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٢٤٠.
(٢٩) فى نسخة [دار الكتب] "وكذا فى ساير".

ذلك، ويسمى الكلاب نفسه شيخ العرب فلان، وكل واحد منهم مصاحب لأمير من أمراً مصر ليشاركه فيما يأخذه من أموال الناس، فكانت العلماء تذهب وتتكلم مع مثل إبراهيم بيك شيخ البلد ويحذرونه عواقب ذلك ويخاطبونه فى قمـع هـؤلاء الأوباش ورفع ضررهم عن الناس وعن البلاد، ويقولون له أن القطـر صـار خراباً بسبب ذلك، فيأمر بعض صناجقه بالخروج إليهم فيخـرج مـع عسـكره ويرسل لهم ينبههم ويقول لهم أرحلوا عن أرضيكم ومحلكم، فيرحلون بـأموالهم ويتوجهون إلى أى جهة من أى جهة من أى بلد شاؤا، فيمكثون بها حتى يـأتى ذلك الأمير ويرجع بعد ذلك إلى مصر ويقول أنهم هربوا وأنه لحق منهم عشرة فقتلهم بالكذب، ثم يرجعون إلى محلهم ويعودون إلى فسادهم، وأن لم يكن بـين الأمير وبينهم صحبة يرسل لهم الأمير الذى يكون مرافقاً لهـم ويعـرفهم عـن الحقيقة، فتارة يرحلون ويهربون، وتارة لا يبالون بذلك الأمير بل يرسـلون لـه أرجع فإن لم يرجع حاربوه، وتارة يهزمـوه (ص٢١) ويقتلـون مـن أتباعـه ومماليكه ويرجع مهزوماً منسكاً رأسه.

الفصل الثالث

فى قمع شوكة المفسدين من طوائف أجلاف الفلاحين والعربان بقطر مصر وإذلالهم

وهذا الفصل من العجائب، والذى تضمنه يذكر فى الوقـايع الغرايـب، وحاصل مضمون هذا الفصل وما أذكره فيه من القول الفصل، أن فى دولة الغز الإبراهيمية والمرادية (ص١١٣) كان ببلاد مصر ونواحيها وقراها وضـواحيها رجال موصوفون بالقوة، مذكرون بالكرم والفتوة اسماً بلا مسمى، وخيـالاً مـا ألما، وتفصل مساكنهم ونذكر أماكنهم.

فمنهم ببلادة تلا[٣٠] بفتح المثناة واللام بعدها كذلك مخففة رجـل أسـمه شيخ العرب رسلان[٣١] برا مهملة مفتوحة وسين كذلك ساكنة، ثم لام ألف ونون بعدها، وكان رجلاً ربعة جسيم البدن أسمر اللون له قوة شديدة وأتبـاع كثيـرة، وكان من الفرقة المعروفة بسعد، لأن جميع الفلاحين والعـرب فرقتـان سـعد وحرام كما هو شهير[٣٢]، ورسلان هذا كان من سعد، وكان يلبس الثياب النفسية من الهندى الجليل، إلا إنه لا يضع على رأسه إلا لبدة من الصـوف المعهـود لبسها لفقرا الفلاحين وخدمهم وأتباعهم، فكان هو لا يلبس الطربوشة مثل غيـره

---

(٣٠) **تلا**: بلاده قديمة من إقليم الغربية، أصبحت بعد ذلك أحد أقسام مديريـة المنوفيـة سـنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م، ثم سميت مركز تلا فـى سـنة ١٨٧١م، محمـد رمـزى: القـاموس الجغرافى، ق٢، ج٢، ص١٨ – ١٩، ١٧٣ – ١٧٤.

(٣١) **شيخ العرب رسلان**: وفى أواخر القرن ١٨م كان ابن رسلان قاطع طريق بالمنوفيـة. الجبرتى: عجائب الآثار، ج٢، ص١٠٢، ١٥٩.

(٣٢) **فرقتنا سعد وحرام**: جماعتان من المماليك والبدو أظهرتا كثيراً من التحـدى لسـلطات الحاكم فى النصف الأول من القرن ١١هـ/ ١٧م، وقد أطلق علـى الأولـى نصـف سـعد الفقارية، وضمت مماليك وعناصر من أهل الحضر والبدو، وظهرت كجماعات قوية هـدفها السيطرة على أكبر ما يمكن من دخل مصر. وعرفت الجماعة = المنافسة لها باسـم نصـف حزام القاسمية، وضمت المماليك المنافسين وعناصر حضرية وبدو نصف حـرام، وانتهـى الأمر بإسقاط أسم الجماعات البدوية وعرفوا ببساطة بالقاسمية والفقارية، وهـى الجماعتـان السياسيتان اللتان تنازعتا على زعامة مصر حتى منتصف القرن ١٢هـ/ ١٨م، حيث عـزز القازدغلية سيطرتهم على مصر. أنظر:

Holt, Egypt and the Fertile Crescent, ٨٤.

من أعيانهم، بل مستديم لبس اللبدة من دونهم، وكان يتعمم عليها بالشال الكشمير العظيم الكراخانة وله عذبة طويلة، وكانت فتحات أكمامه متسعة، وهـو سـاكن متوطن بقرية تلا، له دار جليلة متسعة، وله بهـا الخيـول (ص١١٤) الجيـدة، والعبيد العديدة والجمال والمزارع الجليلة، وكان على الدوام يركـب ويصـحبه الألف من الفرسان والألفان والثلاثة آلاف ويغير على بلاد حـرام ويقـع بينـه وبينهم الحرب والطعن والضرب حتى يهزمهم ويقتل الرجال ويذبح على صدور النسا الولدان والأطفال، ويفعلون الفواحش المنكرة وينهبون الأمتعـة والأمـوال الفاخرة، ولا يدعون كبيرة ولا صغيرة إلا فعلوها، ولا يغادرون خصـلة مـن القباحة إلا أحصوها، ويرجعون بالأغنام والجمال آلافاً مؤلفة، وبالدجاج والأوز والثياب والغلال أصنافاً مصنفة، فيأخذ من ذلك اللعين رسلان لنفسه مـا يريـد ويعطى باقيه لعسكره الأجلاف ولمن معه من طوائف الفلاحين والعبيد، ويتوجه إلى بلده فيمكث بها مدة فيتفق أن يقع بين الفلاحين كرب وشدة، فيسـتنجد بـه أناس فينجدهم ويحارب بجيشه أعداهم ويخذلهم، وكان له رجال يقفون بطريـق المسلمين ويؤذون المارة من ساير الطوائـف (ص١١٥) أجمعـين، فيسـلبونهم ثيابهم ويأخذون أموالهم وأسبابهم، وكل من لم يسلم لهم بالإذعان قتل أو جـرح ولرسلان فيما يأخذونه قسطاً كبيراً متكاثراً.

واتفق أن مراد بيك ركب من مصـر بعسـاكره ورجالـه وصـناجقه وأبطاله، وأراد حرب رسلان وقتاله وصدامه ونزاله، ولا يعود إلا بعـد قتلـه لرسلان وإذاقته الذل وهذه الحسنات المشهورة المسطرة المـذكورة فجـزى الله حضرى الصدر كل خير عن صنايعه، فكل سرور معدود للرعية من بضـايعه، وكذلك فعل بنصار شديد(٣٣) الزنديق العنيد، كان مـن(٣٤) الـدواهى العظمـى والبلابا الكبرى ضاراً بالعباد والبلاد، قطعت رأسه وزال ذلك الإفسـاد، وذلـك أيضاً من حسنات الصدر العلى ذى العز والفخر الجلى.

---

(٣٣) **نصار شديد**: شيخ عرب قبيلة الحويطات البدوية، أحد فروع بدو سيناء، وهى من القبائل التى تعاونت مع القوات المصرية فى حملتها ضد الوهابيين، الجبرتى: عجائب الآثـار، ج٤، ص١٣٦ – ١٣٧، ٢٠٧.
(٣٤) فى نسخة [دار الكتب] تبدأ هنا صفحة ١٠٧.

وكذلك فعل بإسماعيل الزعلوك شيخ العرب بدسوق[٣٥]، مع أنه صعلوك كان آية فى الإيذا (ص١٢٥) كبيراً فى الفحش والبذا، أضراره كالخمر والميسر، موسر من النشر ومن الخير معسر، بل ليس فيه ذرة من الخير والإيمان، فهـو خبيث وقرين للشيطان، قطعت رأسه فى أسرع زمن، وذلك لحضرة الصدر من أعظم المنن، أراح بقتله الناس وأزال بحتفه الضر عن ساير الأجناس.

لو أردت الإكثار من تعداد أمثال أوليك الضالين والوصف لتاك الفـرق الخاسرين لأجهدت الأنفاس وملأت القرطاس، فقد كانت أرض قطرنا مملوة من أمثالهم، مضطربة بكثرة أشكالهم، فكم أرتاعت الموحدون من أفعالهم وأغلقـت أبواب السفر للتجارة من إيذائهم وسلبهم، حتى من الله علـى القطـر وسـكانه بحضرة هذا الصدر فاستظلوا بأمانة، اطمأنت مـنهم القلـوب وأزيلـت عـنهم بحضرته أصناف الكروب، ولعمرى أن الأمن الموجود فى هذا العصر المسبب عن وجود حضرة الصدر[٣٦] لم.

ملحق رقم (5) قطاع طرق – مناسر، بطحجية

الشيخ خليل بن أحمد الرجبى: تاريخ الوزير محمد على باشا تحقيـق دانيـال كريسيليوس – حمزة عبد العزيز – حسام الدين إسماعيل دار الآفاق العربيـة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٧، ص٧٢ – ٧٤، ص ١٦٦– ١٧٤.

---

(٣٥) **إسماعيل الزعلوك**: لم نعثر على أى معلومات عنه.
(٣٦) فى نسخة [دار الكتب] تبدأ هنا صفحة ١٠٨.

عادة من تقدمه من الملوك إلى أن بنيت فيه الترب شيئاً بعد شئ، حتى انسـدت طريقه، واتصلت المبانى مـن ميـدان القبـق إلـى تربـة الروضـة خـارج البرقية.(انتهى باختصار).

(قلت): ومحله اليوم ترب المجاورين وترب قايتباى.

[تربة الروضة]

وأما تربة الروضة فهى الترب الواقعة بين التلول وسور البلد بقرب بـاب الغريب- الذى هو الآن أحد أبواب القاهرة- ويغلب على الظن أنه كان فى محل هذا الباب أو بالقرب منه باب البرقية الذى ذكره المقريزى عنـد ذكـر أبـواب القاهرة إلا أنه لم يتكلم عليه ولم يبين محله وإنما قال عند ذكر جامع البرقية إن هذا الجامع من باب البرقية بالقاهرة، وعمره ومغلطاى الفخـرى، وذلـك سـنة ثلاثين وسبعمائة. (انتهى). (قلت): وفى وقتنا هذا لم يوجد بهذه الخطـة جـامع مسمى بهذا الاسم، بل الجامع الموجود هناك معروف بجامع الغريب، فلعله هـو جامع البرقية، ويشهد لذلك ما هو موجود فى حجج أملاك هذه الجهة من ذكـر حارة البرقية،

لحن النشالين والحرامية

آه: مع مد الألف طويلاً وتعنى عند النشالين الفراغ من عملية النشل بنجاح

أجدى ياللود: دعك من هذا الزبون

استدها من النوى: يقولها النشال لزميله فى حالة عدم تمكنه من نشـل الزبـون ومعناها لا تنزل فى المحطة القادمة

الأروة بهو: الفلوس كثيرة، والأروة مطلقاً يعنى الفلوس.

إمسك الماس أين قبل ما يجدى: ضيق الخناق على الزبون بسرعة

إمسك باللطى: ضيق الخناق ببطء

إمسك إين: ضيق الخناق

اهرس: يعنى تكلم فى لحن النشالين

إفتح الصهريج: هيا نسرق

اندقل: قفل المخزن

انداف: ألف جنيه

الأسود: الأفيون

الادكادى: الخنصر

البنديرة: الحافلة أو الأتوبيس عند النشالين

بنداب: الباب، يقول اللص لزميله بنداب معندصلج سنيبه يعنى البـاب معصـلج سيبه أى الباب صعب فتحه فاتركه.

بربور: كتينة الساعة

بلبل: الشيشة

بوى: الأب

ترمسة: الساعة

تشرين هرين: حرامية

جويس: نشال غير ماهر أو مبتدئ

جزة: العباءة فى لحن اللصوص

جديلة يمينه: ارفع ذراع الزبون اليمنى

جوستين: الجيب يقول النشال لزميله جس الجوستين أى تحسس جيبه

جيه: المخدرات

جدى: اهرب يقول النشال أو الحرامى لزميله جدى من الكبارى يعنى اهرب من ضباط البوليس

حداية: المحفظة

الحساس: الجيب الصغير

حندش ونداتى: سور المخزن منخفض

حبل: حزام

حق: منزل

حيطة: نصبة القهوة

حد جدى اللى فى خذته بسرعة: يعنى أسرع فى نشل الزبون

حور من خذتى اخسى الماس اين ملهسنا: يعنى ابتعد عنى لأن الزبون ينظـر إلينا.

حته: منطقة النشل، وتجدر الإشارة هنا إلى أن لكل نشال منطقة ولا يجوز لغيره أن يتعدى عليها وينشل فيها

خشب: المخبر أو رجل الشرطة السرية عند حرامية المخازن

خند شب: الخشب

خنداتم: الخاتم

خندمرة: الخمر

خنفسة: حذاء أسود

دكهس كبارى: يعنى النشال سرق الحكومة

دكهس فى الترمسة ولهسها منه: انظر للساعة

دكتور: من يقوم بتخطيط عملية النشل

دولاب: قفطان

دو: رقم اثنين

الروبان: من يغطى عملية الانسحاب ويشاغل الشرطة والناس بعد النشل

روبه: رقم أربعة

ربويه: أخ

السيه: الجيب الخلفى عند النشالين

السيلة: النقود السائلة عندهم

الساك ضربه: يعنى الزبون معدم أو فقير

سيطة: المخزن بدون حراسة فى لغة حرامية المخازن

سندور عندليتا: سور المخزن مرتفع عندهم

سندعاة: الساعة

سرجية: الخمرة

سهنى: نشال ماهر

سوس: رقم ثلاثة

سندكرة: السكر

شاروت صوان على النامى سوق جدامى: يقولها الحرامى لزميله بمعنى اذهب

للسرقة فى سوق المواشى

شنكونى: نشال غير ماهر أو مبتدئ

الصندوق: جيب السترة عند النشالين

الصلبة: الجيوب السرية عندهم

صرصار: حذاء صغير

الطويل: القطار عندهم

طبأة: الدكان عند اللصوص

طباشيرة: قلم ثمين يقول النشال لزميله فى خذه طباشيرة يعنى مع الزبون قلـم ثمين وغال فى جيب سترته.

عزمان: يقول النشال لزميله كم عزمان يعنى ما معه من النقود؟

عندجلة: الدراجة عندهم

عنديل: التاجر أو العميل الذى يبيع له حرامى المخازن البضائع المسروقة

عصاية: المفتاح المصطنع

العبودى: الأفيون

غراب: زعبوط (نوع من الملابس)

فرغة: الكيس عند اللصوص

قمقم: القزازة (الزجاجة)

قاعدة: كرسى

كوشة: الطعام الجاف عند لصوص البحر

كتف: يعنى اسكتْ أو تكتم عند النشالين

كبارى: ضباط البوليس

كحيتى: الزبون معدم عندهم

كركر: الجوزة

كوديانة: امرأة

كوديانة أمرى: الأخت

اللاديرى: أصبع الإبهام عند الشالين

لهست: يقول النشال لزميله أنت لهست يعنى هل انتهيت من عملية النشل

اللهسة جويس: يعنى العملية سيئة وبدون عائد

المصدر: جيب الصدر عند النشالين

المدعى: الزبون أو المجنى عليه أو الضحية فى لحن النشالين

مقعة: الخمرة

ميه: فلوس

ماى: أم

مهباش: يعنى نشال مبتدئ أو غير ماهر

مخورجة: يقول النشال لزميله العملية مخورجة أو البلد مخورجة يعنى البلد حلو أو الأتوبيس مزدحم والعملية مربحة

ما فيش دكنة ولا لهسة: يعنى لا يوجد زحام والجو غير مناسب للنشل

مقرقرة: المحفظة

ناضورجى: من يقوم بمراقبة الجو للتنبيه عن البوليس

نزل على مرآتى: ضغط على

نتشه: يعنى اترك الزبون

هجام: نشال

هه يا على: يقولها نشال البحر عندما يريد تنبيه زميله

وكد نفسك: يعنى حاذر عند النشالين

وعشرة: مشرط أو آلة لقطع الجيوب

باللود امسك الماس اللى فى خذنتى: يعنى ضيق الخناق على الزبون حتى اتمكن من نشله

ياكى: رقم واحد

ملحق رقم (٧)

ملاحن النشالين والحرامية

محمد لطفى جمعة: مباحث فى الفولكلور.. شركة الامل للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٩، ص ١٣٣-١٤٠

هذا وقد وجدنا أن هناك ارتباطا وثيقا بين صناعة اللص وما يجنح إلى سرقته، فالحداد يميل إلى سرقة أدوات الحدادة والعمارة، والنجار إلى عدد النجارة وملحقاتها، والنقاش إلى الزيوت والمساحيق الملونة، والمبيض إلى الجبس والأسمنت، وسائق السيارات إلى القطع التى تتكون منها ماكينة السيارة، والخادم إلى الملابس وأدوات المطبخ والنقود، والمتشرد إلى النشل، والفلاح إلى المواشى والحبوب.

ويلوح لنا أن العلة فى هذا الاختيار ترجع إلى رغبة اللص عادة فى سرقة ما يعود عليه بالنفع فى معاشه. ومن هنا تستطع أن تستنتج أن الحاجة كثيرا ما تعين لللص نوع المسروق.

هذا ولصناعة اللص كذلك أثرها الفعال فى انتهاج طريقة ارتكاب السرقة. لأننا قد وجدنا كثيرا من اللصوص يستعينون بمعلوماتهم الفنية كى يصلوا بها إلى ما يصبون اليه من المسروقات من أقرب طريق، كالبراد الذى يفض الخزائن بما يصنع لها من مفاتيح المصطنعة، والنجار الذى يستخدم أدوات النجارة فى تهشيم ما استعصى فتحه من الأبواب والنوافذ.

حيل اللصوص- يعمد اللصوص إلى الحيلة عند السرقة حتى لا يكونوا عرضة للوقوع فى شرك الجريمة. وأكثر اللصوص تحايلا فى بلادنا هم النشالون. وهناك بعض الحيل التى يلجأ إليها اللصوص فى مصر قد جئنا بها على سبيل المثال فيما يلى:

١-من اللصوص من يحمل كثيرا من القطع الفضية ويعرضها على السابلة لتغييرها

بما هو فى قيمتها من الأوراق المالية "بنكنوت" فاذا أعطيته ورقة من فئة الجنيه مثلا، ناولك القطع الفضية ناقصة إحداها، وطلب إليك أن تعدها لتطمئن إلى أمانته، فاذا ما تبينت هذا النقص بادر بالاعتذار إليك وتظاهر بوضع القطعة الناقصة فى كفك، فتأخذ فضتك وتنصرف شاكرا، وما تدرى أن هذا اللص اذ أعطاك هذه القطعة قد قبض بعضلات كفه على ضعفها أو ما يزيد فى أقل من لمح البصر ومن حيث لا تشعر بمكيدته. وهذا النشال فى عرف اللصوص يدعى

"بالسهريجى".

٢- ومنهم من يترك زميلا له بجوارك وأنت فى عرض الطريق، ثم يمـر أمامكما وإذا بحافظة نقوده تسقط على مقربة منك، فيقع عليها بصرك، وتبـادر إلى التقاطها، فيسبقك إليها زميله ويفضها فيجدها محشوة بالأوراق المالية، ثـم يطلب اليك أن تكون الغنيمة قسمة بينكما وإلا أبلغ الشرطة فترضـى، وبينمـا تتناجيان، إذ يبدو لكما رب الحافظة الساقطة حانقا وقد أمسك بتلابيبك وتلابيـب شريكك، وطلب تفتيشكما. وعندها يهمس الذى هو بجوارك فى أذنك أن سـلمه حافظتك واحتفظ بالأخرى خلاصا من هذه الورطة فتجيبه إلى طلبه عن طيـب خاطر لاعتقادك أن التى عثرت عليها خير وأبقى. فاذا ما قبض هـذا المحتـال حافظتك التى اعطيتها إياه أدعى العجز فى ماله وصمم على أن تصـحباه إلـى مركز البوليس، وهنا يتطوع زميله ويمضيان فى مظهر المتخاصمين ويذر أنك فى مكانك مغتبطا، لأنك قد فزت بمحافظة مملوءة بالمال ونجوت من البـوليس ومتاعبه، ولكنك لا تلبث طويلا حتى تعلم أن الحافظة التى رضيتها بـدلا مـن حافظتك لم يكن بها غير أوراق مزيفة لا قيمة لها، فتدور بعينك علك تعثر على هذين اللصين اللذين ائتمرا بك فلا تجد لهما أثرا، وهنا تعض بنان الندم وتعلـم أنك كنت فى طمعك من الخاسرين. وهذه الطريقة تسمى "بالخمسجية".

٣- ومنهم من يلقاك فى طريقك مذعورا ويتهمك بالعثور على مال سـقط منه. ويطلب تفتيشك من، فإذا ما عرضت عليه حافظة نقودك تفقدها-، ثم ردها إليك معتذرا، وتمر ببصرك على ما بها فتلقاه كما هو، فتمضى لسبيلك لا تلوى على شىء إذ أفلت من تهمة لم تكن فى الحسبان، مع أن هذا الشرير قد سـلبك إحدى أوراقك ذات القيمة ووضع لك مكانها ورقة أخرى من شكلها ولكنها مزيفة كاذبة.

٤- ومنهم من يلوث ملابسك بمادة وأنت سائر فى طريقك مـن حيـث لا تشعر به، ثم يلفتك إليها ويبدو لك فى زى الناصح الأمين، ثم يتطوع ومن معـه من حاشيته إلى إزالة هذه القاذورات، وينصرف اهتمامك إلى تنظيف ملابسـك بينما إحدى أيدى هذه الطغمة تسلبك مالك من حيث لا تدرى.

٥- ومنهم من يلقاك فى زحام عند نزولك من إحدى مركبـات التـرام أو

القطار أو القطار أو عند صعودك إ ليها فيتصنع العجلة فى مشيته والأرتباك فى حركاته ويرفع فى وجهك احدى يديه حتى لا يقع نظرك علـى فعلتـه، بينمـا الأخرى تستل حافظة نقودك من مكانها.

٦- ومنهم من يعمد إلى شق الملابس بمشرط وخصوصا إذا كانت حافظة نقودك فى الملابس الداخلية- ومما يدل على أن بعض النشالين قـد بـرع فـى استخدام هذه الطريقة واتقانها ما حدثنا به أحد رجال الحفظ قال "لما كنـت فـى خدمة البوليس بالعاصمة جاءنى رجل قد نشلت حافظته بعد شـق ملابسـه ولا يعرف الجانى، فأستعنت على كشف الخبر بكبير النشالين الذى صرح بأن هـذا الشق من يد فلان النشال بمجرد أن وقع نظره عليه. وكم كنت دهشا عندما أثبت التحقيق فى النهاية صدق فراشته"

٧- ومن اللصوص من يقصد المحال التجارية ويشترى شيئا تافها ومقصده الأول من ذلك معرفة المكان أو الدرج الذى يضع فيه التاجر نقوده، ثم ينصرف ويرسل بزميل له ليبتاع شيئا آخر، غير أن الأخير بعد أن يأخذ ما اشتراه مـن هذا التاجر يدفع اليه بثمن أقل مما اشترى به، وقد يدلل على حسن نيتـه فيقـدم قطعة من ذات المليمين مكان ذات القرشين لوجود الشبه بينهما وينصرف متئدا فى مشيته، فيفطن التاجر إلى هذا الأجحاف فينادى عليه، فيدعى الصمم، فيترك التاجر محل تجارته بغير تريث تاركادر اهمه عرضه للأيدى العابثة. وفى هذه الآونة ينقض اللص الأول الذى تربص للسرقة غير بعيد ويسلب التـاجر مالـه بينما زميله الآخر يقدم الاعتذارات وينقد هذا التاجر باقى الثمن الذى اشترى به. وهذه الطريقة تسمى "بالفوله".

وبدهى أن هذه السرقة لا تتم الا باتفاق سابق بين أمثال هذين اللصين، وفى المحال التجارية الصغيرة التى لا يوجد بها من العمال غير أربابها منفردين.

٨- يجلس الصائغ عادة فى الأسواق العامة وأمامه بضـاعته موضـوعة داخل أحقاق من صفيح، فاذا أراد اللص اختلاس واحد من هذه الأحقاق بما فيها بعث إلى هذا الصائغ بلص آخر فبلقى بجواره ومن ناحية أخـرى قلـيلا مـن الدراهم ويوجه نظره إليها ليجمعها، فينصرف اهتمام الصائغ إلـى جمـع هـذه الدراهم المبعثرة ظنا منه أنه صاحبها حقا، بينما اللص الأول قد الـتقط حقـا أو

أكثر من حيث لا يراه، وتوارى عن الانظار بغنيمته البارده. وهذه اللعبة تسمى (بالتسويحة).

٩- ومن اللصوص من يطلى كفه بمادة لزجة ثم يطلب مـن الصـائغ أو الصراف جنيها ذهبا من نوع خاص كى يصنعة قرطا مثلا، فاذا ما جاءه الصائغ ببضع جنيهات ووضعها أمامه لينتقى منها ما يريد ردها إليه بعدان علق بكفـه واحدا منها أو أكثر. ثم يضع يده التى أجرمت فى جيبه متظاهرا باخراج لفافـة من التبغ. وعندها يسقط فيه ما علق بكفه وينصرف مودعا لأنه لم يعثـر علـى ضالته- وهذه السرقة تسمى (بالتعليقة).

١٠- قد يتظاهر أمامك غلامان بأن يمسك بتلابيب الآخر ويصيحان، وإذا برجل قد تظنه أباها يضربهما ضربا مبرحا، فتقدم لترفع عنهما هذا العذاب، فيستغيثان ويتعلقان بثيابك لتحول بينهما وبين هذا الآدمـى القاسـى، فـاذا انتهـت هـذه الضوضاء ومشيت لشأنك فانك تعجب كثير عندما تتفقد حافظة نقودك أو ساعتك فلا تجد لها أثرا، وتذكر أن أحد من هذين الغلامين قد نشلها منك من حيث لـم تشعر به. وتفتيش عن أفراد هذه العاصبة البهلونية فلا تهتدى إليها.

١١- ومن اللصوص من إذا أرادوا سرقة محل تجارى حملوا زميلا لهـم داخل دولاب، حتى إذا جاءوه هذا المحل وضعوا الدولاب أمام بابه وجها لوجه، وجلسوا بجواره، فاذا جاءهم الشرطى ظنهم حمالين يستريحون، أما الـذى هـو داخل الدولاب فيتولى فتحه، ثم فتح المحل التجارى بقدر ما يسع جسمه، ثم يغلقه خلفه، فاذا أتم جريمته دخل الدولاب بعد غلق المحل المسروق كما كان، ونقـر بأصبعه لزملائه، وهما يعلمون أنه قد فرغ من عمله، فيحملون الدولاب وبداخله السارق وما سرق ويلوذون بالفرار من حيث لم يعلم بمكيدتهم أحد. وهذا العمل لا يقدم عليه اللصوص إلا بعد حصولهم على المفاتيح المصطنعة ومعرفة مكان الشئ المراد سرقته بالضبط.

١٢- ومن اللصوص من يطرق باب منزلك ويوهم خادمك أنه رسول مـن قبلك لاستلام بعض ملابسك، ويدلك على صدق رسالته بأمارات قد وقف عليهـا من قبل، ثم يذهب بما أخذ إلى غير رجعة.

١٣- ومن النساء السارقات من يدخلن المنازل ويوهمن السـيدات أنهـن يحملن روائح زكية، فاذا ما أرادت ريه المنزل امتحان هذه الرائحة من طريـق الشم أغمى عليها، فاذا ما أفاقت وجدت أن أثمن ما تملك من الحلى قـد سـرق وتبين لها أنها لم تشم إلا رائحة مخدرة.

١٤- ومن اللصوص من لاينم مظهره إلا على الأمانة لوجاهته، فيركـب معك السيارة ثم يطلب اليك أن تغير له الأوراق المالية بقطع فضية، فتجيبه إلى طلبه مطمئنا، ولكنك لا تلبث عندما ترجع إليه حتى يبين لك أن الورقـة كانـت مزيفة. وأن هذا اللص قد سار بالسيارة إلى حيث لا تدرى- وسائقوا السـيارات أكثر الناس عرضة لهذه السرقة.

هذا بعض ما يلجأ إليه اللصوص المصريون مـن الحيـل، ونفهـم مـن مجموعها أن هذه الأساليب الشيطانية لا تنسجم ألا باتفاق بين لصين فأكثر وأنها لا تتبع غالبا ألا فى النشل أو السرقات العادية وأن النشالين يعتمدون أكثـر مـا يكون على ذكائهم وخفة أيديهم وان كان هذا الذكاء مع الأسـف لا يسـتخدم إلا للكيد بالناس والنشالون يصرحون لنا فى غير مواربة أنهم يركنون كثيـرا إلـى سرقة السذج من الناس كالفلاحين الذين يفدون إلـى المـدن والبنـادر لقضـاء حوائجهم المعاشية، وحيث الأزدحام فى الأسواق والمجتمعات العامة.

ملحق رقم (٨) حيل اللصوص وأكثرهم تحايلاً هم النشالون

محمد شاهين (مأمور بالسجون المصرية): كفاح الجريمة.. المطبعة المتوسطة بمصر ١٩٣٦.

النشالين والمناصرة

النشالين والمناصرة والحرامية أكثر من البياعين ومن الصنايعية مقسـمين البلاد أقسام نفوذ وخطوط. وكل فرقه لها دايره وداوريه!

من نشالين فى المحطه يمسكوا الأبواب وبتلتميت مرحباً يستقبلوا الركـاب تطير فلوس الغريب ما بين سؤال وجواب أو يندبح بالطريقة الأمريكانيه!

ونشالين بالترام تختص، والأتوبيس محسرين العباد ع المجفظـه والكـيس وكل خط بجماعه وللجماعة رئيس يغرس صوابع إديه فى عينك وعنيه.

وصنف للسيارات متجمعين فى جراج لا بسين بدل رزق وهباب الوجـوه ماكياج بيجوا فى عز النهار ويوضبوا المونتاج ويشلوا منها العجل أو تتسـرق هيه.

وناس لفتح المنازل بس والدكاكين منهم علـى بـاب حارتنـا، وأربعـين، خمسين دكان دخاخنى النهارده مين ح ينخرب بيته ويشطب فى فجريه.

وفرقة للأسطحه دول كلهم أحداث تطلع فى شمس الضحى تجمـع غسـيل الناس إن بيتوك بالقميص ما يبيتوك بلباس خلوا الغسيل أنشره وألمه بأديه.

أموال تضيع كل يوم وبيحسبوها ألوف مثبوته فى قهوة شاوى نص خروف يعزم على "بعضهم" فى الروحه والجاية لو كنت مخبر ماهيتى خمسة سته جنيه ويقولوا هات الحرامى والحديد فى أديه لا يقولون لى عقلى ح تقبض م الحكومة إيه ما تقول ما شفتوش وتأخذ خمسة فى الميه!!

ملحق رقم (٩) النشالين والمناصرة

بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٣) بيرم والناس الهيئـة المصـرية العامـة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.

فقال بصوت جهورى:

- اعتمادى على الله جل شأنه.

فصاح السبع:

- أذهب على قدميك وإلا ذهبت على نقالة.

فوقف عاشور وشد على نبوته. اندفع صبى القهوة خارجاً منادياً رجـال العصابة. هرع الآخرون إلى الحارة خوفاً. انقض السبع بنبوته، وانقض عاشور بنبوته، فارتطم النبوتان بعنف جدار متهدم. ونشبت معركة غايـة فـى الشـدة والقسوة.

وجاء رجال العصابة من شتى الأنحاء فاختفى الناس من الحارة وأغلقت الدكاكين، وامتلأت النوافذ والمشربيات.

وإذا بمفاجأة تدهم الحارة كزلزال. مفاجأة لم يتوقعها أحد. تدفق الحـرافيش من الخرابات والأزقة، صائحين، ملوحين بما صادفته أيديهم من طوب وأخشاب ومقاعد وعصى. تدفقوا كسيل فاجتاحوا رجال السبع الـذين أخـذوا، وبسـرعة انقلبوا من الهجوم إلى الدفاع. وأصاب عاشور ساعد السبع فأفلت منه النبـوت، عند ذاك هجم عليه وطوقه بذراعين، وعصره حتى طقطق عظامه، ثم رفعه إلى ما فوق رأسه ورمى به فى الحارة فتهاوى فاقد الوعى والكرامة.

أحاط الحرافيش بالعصابة، انهالوا عليهم ضرباً بالعصى والطـوب فكـان السعيد من هرب وفيما دون الساعة لم يبق فى الحـارة إلا جمـوع الحـرافيش وعاشور.

كانت معركة لم تستبق بمثيل من حيث عدد من اشترك فيها. فـالحرافيش أكثرية ساحقة. وفجأة تجمعت الأكثرية واستولت على النبابيـت فانـدفعت فـى البيوت والدور والوكالات رجفة مزلزلة. تمزق الخيط الـذى ينـتظم الأشـياء وأصبح كل شىء ممكنا. غير أن الفتونة رجعت إلى آل الناجى، إلـى عمـلاق خطير، تشكل عصابته لأول مرة أكثرية أهل الحارة، ولم تقع الفوضى المتوقعة، التف الحرافيش حول فتوتهم فى تفان وامتثال، وانتصب بينهم مثل البناء الشامخ،

توحى نظرة عينيه بالبناء لا بالهدم والتخريب.

واجتمع بعاشور ليلاً يونس السايس وجليل العالم. كانا واضحى القلق، وقال شيخ الحارة.

- المأمول ألا يقع ما يقتضى تدخل الشرطة...

فقال عاشور فى استياء:

- كم من جرائم ارتكبت تحت بصرك وكانت تقتضى تدخل الشرطة...

فقال الرجل بلهفة:

- معذرة، إنك أدرى الناس بظروفنا، أود أن أذكرك أنك انتصرت بهم ولكنـك غداً ستقع تحت رحمتهم!

فقال عاشور بثقة:

- لن يقع أحد تحت رحمة أحد...

فقال الشيخ جليل العالم بإشفاق:

- لم يكبحهم فى الماضى إلا التفرق والضعف...

فقال عاشور بثقة أشد:

- إنى أعرفهم خيراً منك، عاشرتهم فى الخلاء طويلاً، والعدل خير دواء...

فتردد يونس السايس قليلاً ثم تساءل:

- والسادة والأعيان ماذا يكون مصيرهم؟

فقال عاشور بقوة ووضوح:

- إنى حب العدل أكثر مما أحب الحرافيش وأكثر مما أكره الأعيان...

ولم يتوان عاشور ربيع الناجى ساعة واحدة عن تحقيق حمله ذلك الحلم الذى جذب به الحرافيش إلى ساحته، ولقنهم تأويله فى الخلاء، وحولهم به مـن صعاليك ونشالين ومتسولين إلى أكبر عصابة عرفتها الحارة.

سرعان ما ساوى فى المعاملة بين الوجهاء والحرافيش، وفرض على الأعيان إتاوات ثقيلة حتى ضاق كثيرون بحياتهم فهجروا الحارة إلى أحياء بعيدة لا تعرف فتوة ولا فتونة. وحتم عاشور على الحرافيش أمرين: أن يدربوا أبناءهم على الفتونة حتى لا تهن قوتهم يوماً فيتسلط عليهم وغد أو مغامر، وأن يتعيش كل منهم من حرفة أو عمل يقيمه لهم من الإتاوات وبدأ بنفسه فعمل في بيع الفاكهة، وأقام فى شقة صغيرة مع أمه. وهكذا بعث عهد الفتوة البالغ أقصى درجات القوة وأنقى درجات النقاء. ولم يجد الشيخ جليل العالم بدا من الثناء عليه، والجهر بالتنويه بعدالته، وكذلك يونس السايس فعل، ولكنه ارتاب في ضميرهما، ولم يشك فى أنهما يتحسران على الهبات التى كانت تتسرب إليهما من الأعيان، وعند توزيع الإتاوات بين أفراد العصابة الهاربة.

وما لبث الشيخ جليل العالم أن هجر الحارة فعين مكانه الشيخ أحمد بركات. ولما كان يونس السايس معينا من قبل السلطة فقد تعذر عليه هجرها، وكان يغمغم وهو منفرد بنفسه فى دكانه:

- لم تبق فى الحارة إلا الزبالة!

وكان يفضى بذات نفسه إلى زين علباية الخمار فيتساءل الرجل فى قلق:

- حتى متى تدوم هذه الحال؟

فيقول يونس السايس:

- لا أمل مع بقاء الوحش على قيد الحياة...

ثم يتنهد مواصلاً:

- لا شك أن أناساً مثلنا تناجوا بما نتناجى به الآن على عهد جده الأول، فاصبر وما صبرك إلا بالله...

وجدد عاشور الزاوية والسبيل والحوض والكتاب، نشأ كتاباً جديداً ليتسع لأبناء الحرافيش، ثم أقدم على ما لم يقدم عليه أحد من قبل فاتفق مع مقاول على هدم مئذنة جلال. وقد كان يصد السابقين عن ذلك خوفهم من إغضاب العفاريت التى تسكنها ولكن الفتوة الجديد لم يخف العفاريت. وقام هو فى الحارة عملاقاً

كالمئذنة ولكنه فى الوقت نفسه مستقر للعدل والنقاء والطمأنينة. ولم يبدأ بتحدى أحد من فتوات الحارات ولكنه كان يؤدب من يتحداه ويجعل منه عظة للآخرين فتهيأت له السيادة بلا معارك.

واعتقد حليمة البركة أنه آن له أن يفكر فى ذاته. وجاء ضـياء أخـوه سعيدا، وفى نيته أن يستعيد وكالة الفحم، وأن يصير كبير الأعيان فى كنف أخيه الفتوة، ولكنه لم يلق منه تشجيعاً، فاضطر إلى الاستقرار فى فندقه. واقترحـت حليمة عليه أن يتزوج قائلة:

- مازال فى حارتنا نفر من الأعيان الطيبين الذين لم يفرطوا فيها...

فتذكر عاشور موقف أسرتى الخشاب والعطار بامتعاض شديد وقال لأمه:

- أشعر يا أمى أنك تطمحين إلى حياة أفضل مما نحن فيه...

فقالت المرأة بصدق:

- ليس العدل أن تظلم نفسك!

فقال بقوة محتجاً ورافضاً:

- لا...

قالها بقوة. ليست قوة الرفض الحقيقى بل قوة يدارى بها ضعفاً يحس به أحياناً فى أعماق خواطره. فكم يحن أحياناً إلى رغد العيش والجمال! كما يحلـم بحياة الدور والمرأة الناعمة. لذلك قال لا بعنف وقوة.

وقال لها:

- لن أهدم بيدى أعظم ما شيدت من بناء شامخ...

وأصر أن يجئ الرفض من ذاته لا حذراً من الحرافيش. إنـه يريـد أن يتفوق على جده نفسه. لقد اعتمد جده على نفسه على حـين خلـق هـو مـن الحرافيش قوة لا تقهر، ولقد مال مرة جده مع هواه وسوف يصـمد هـو مثـل السور العتيق. ومرة أخرى قال بقوة:

- لا...

وتم له أعظم نصر، وهو نصره على نفسه. وتزوج مـن بهيـة بنـت عدلات الماشطة بعد مشاهدة واستقراء من جانبه. وعندما اقتلعت مئذنة جـلال من جذورها أحيت الحارة ليلة رقص وطرب. وعقب منتصف الليل ذهب إلـى ساحة التكية لينفرد بنفسه فى ضوء النجوم.

- علينا أن نعيد التفكير لمواجهة الخماسين...

فمضى درويش وهو يقول:

- إنه الفتوة الجديدة بلا منازع...

- ومن الميدان ترامى طبل وزمر.

وفى الحال خرج إلى الحارة أهلها نساء ورجالاً وصغاراً. وتهادت كارو من ذوات العجلات الأربع قد تربع فى وسطها عاشور، تقدمها الزفة، ويحدق بها رجال العصابة.

صفق الناس وهللوا ورقصوا، ومن شدة الزحام قطعت العربة المسـافة بين مدخل الحارة والزاوية فى حوالى الساعة.

وتواصل الرقص والطرب حتى فجر اليوم التالى.

وجد عاشور الناجى نفسه فتوة للحارة دون منازع.

خاتمة:

وكما توقع الحرافيش أقام فتوته على أصول لم تعرف من قبل. رجع إلى عمله الأول ولزم مسكنه تحت الأرض كما ألزم كل تابع من أتباعه بعمل يرتزق منه، وبذلك محق البلطجة محقاً. ولم يفرض إتاوة إلا على الأعيـان والقـادرين لينفقها على الفقراء والعاجزين. وانتصر على فتوات الحارات المجاورة فأضفى على حارتنا مهابة لم تحظ بها من قبل، فتحف بها الإجلال خارج الميدان كمـا سعدت فى داخلها بالعدل والكرامة والطمأنينة.

وكان يسهر ليله فى الساحة أمام التكية، يطرب للألحـان، ثـم يبسـط

راحتيه داعياً "اللهم صن لى قوتى، وزدنى منها، لأجعلها فـى خدمـة عبـادك الطيبين".

عادة من قدمه من الملوك إلى أن بنيت فيه الترب شيئاً بعد شئ، حتـى انسدت طريقة، واتصلت المبنى من الميدان القبق إلى تربـة الروضـة خـارج البرقية. (انتهى باختصار).

(قلت): ومجلة اليوم ترب المجاورون وترب قايتباى.

(تربة الروضة)

واما تربة الروضة فهى الترب الواقعة بين التلول وسور البلد بقرب باب الغريب- الذى هو الآن أحد أبواب القاهرة- ويغلب على الظن أنه كان فى محل هذا الباب أو بالقرب منه باب البرقية الذى ذكره المقريزى عنـد ذكـر أبـواب القاهرة إلا أنه لم يتكلم عليه ولم يبين محله وإنما قال عند ذكر عجامع البرقية إن ذها الجامنع من باب البرقية بالقاهرة، وعمرة مغطاى الفخرى، وذلك سنة ثلاثين وسبعمائة. (وانتهى). (قلت): وفى وقتنا هذا لم يوجد بهذه الخطة جامع مسـمى بهذا الاسم، بل الجامع الموجود هناك معروف بجامع الغريب، فلعله هو جـامع البرقية، ويشهد لذلك ما هو موجود فى حجم أملاك هذه الجهة من ذكـر حـارة البرقية،

(تتمة): كفر الطماعين وكفر الزعارى المتقدم ذكرهمـا همـا حارتـان كبيرتان متلاصقتان بالسورن سكانهما يميلون إلى التعصب والتحزب، وكانـت لهم غارات فيما سبق، فكانوا يتحالفون علـى المغالبـة والمضـربة بالعصـى والمسارق، ويستعملون الشد والعهد بينهم، بمعنى أن كل طائفة منهم لهم كبيـر يدعونه بالعم وهو يدعوهم بالمشاديد، فكان الواحد منهم إذا أراد التعصب علـى سكان جهة أخرى- كالعطوف مثلاً- لمضاغنة بينهما أرسل إليهم يخبرهم بأنـه يريد التعصب عليهم، فيعطونه ميعاداً، ويرجون خـارج البلـد جهـة الخـلاء، ويتضربون بالمساوق ونحوها. وربما فزع لعضهم بسلاح إذا طال القتال، واشتد بينهم. وفى بعض الأوقات كان يموت منهم قليل، وإذا وصل الخبر إلى الحكومة فكانوا ينكرون ذلك، ويعدونه من الفتوة. ولكن فى هذه السنين قد بطل ذلك وانسد

هذا الباب شيئاً فشيئاً حتى صارت التعاصبات والتحزبات كأنها لم تكـن شـيئاً مذكوراً. وكانت هذه الأمور لا تقع غالباً إلا من سكان الحـارات القريبـة مـن الخلاء مثل الحسينية والحطابة والعطوف، وغيرها من تلك الجهات.

هذا ما يتعلق بوصف الدراسة وما فيه من العطف والحارات وغيرهـا قديما وحديثاً.

ملاحق رقم (٦)المشادير (الفنون-الحرفيش)

على باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة.. الجزء الثالث الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص٤٤٣.

ملحق رقم (١٠) قيم الفتونة بين الرؤية والرؤيا الروائية

نجيب محفوظ ملاحقة الحرافيش (الملاحقة الأولى: عاشور الناجى، الملاحقـة التوت قوالنبوت) المؤلفات الكاملة، المجلة الرابـع، مكتبـة لبنـات، بيـروت ١٩٩٣، ص٧٣٦.